الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعة المرقب

كلية الآداب والعلوم

قسم التاريخ

شعبة التاريخ الإسلامي

دور المـرأة في المجتمع الإسلامي خـلال العصر العباسي الأول من عام ((١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٥٠-٨٤٧ م))

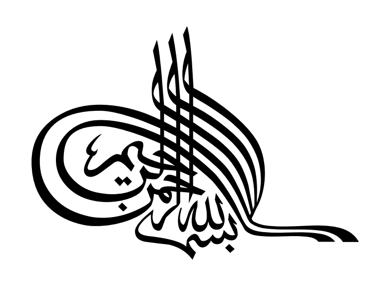
رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الإجازة العالية

(الماجستير) في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة/ حنان محمد علي عاشور

إشراف/ أ.د.على حسين الشطشاط

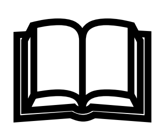
العام الجامعي(٢٠٠٧-٢٠٠٨ف)ى



﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ

سورة المجادلة – الآية (١١)



الإهــداء

إلى روح والدي الطاهرة الذي تَمَنَّي أن يري غرسه قد أثمر أسأل الله أن
يتغمده برحمته الواسعة ويسكنه فسيح جناته .

إلى سبب وجودي ونبع حناني
أمي

إلى من كانوا لي نعم الإخوان والأحبة
إخوتي

إلى كل محب للعلم والمعرفة
أهدي هذا العمل راجيةً من الله أن ينتفع به .

❁❁❁❁

الباحثة . . . . .

د



الشكر والتقدير

أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور **على حسين الشطشاط** على تفضله بالإشراف على هذه الرسالة، وعلى الجهد الكبير الذي بذله معي طوال رحلة البحث، وما أسداه لي من نصائح وتوجيهات استفدت منها أيما استفادة، فله مني خالص الشكر والتقدير، كما أتوجه بالشكر العميق لكل من الأستاذ الدكتور/ **بشير رمضان التليسى** والأستاذ الدكتور/**المبروك غنية الأسطى** على تفضلهما بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة وتقييمها تقييماً جيداً ، فلهما مني الشكر والتقدير.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للإخوة العاملين بالمكتبات التالية بمصر: المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، ومكتبة دار الكتب المصرية، ومكتبة القاهرة الكبرى. كما أتوجه بالشكر الجزيل للعاملين بالمكتبة المركزية بجامعة قاريونس ببنغازي ، و مركز جهاد الليبيين بطرابلس، و مكتبة الشيخ أحمد الزروق بمصراتة ،ومكتبة الجامعة الأسمرية بزليتن ، والمركز الثقافي بالخمس وكذلك العديد من المكتبات العامة، والتي لا يتسع المقام هنا لذكرها على ماقدموه لي من خدمات وتسهيلات فيما يتعلق بمصادر ومراجع البحث، فلهم مني جزيل الشكر وفائق الاحترام .

كما لا يفوتني أن اشكر كُلاً من الأستاذ أحمد الشريف الذي أمدني بالمراجع المهمة في هذه الدراسة،والأستاذ مفتاح اشكيك الذي لم يبخل في مساعدتي بكل صورة استطاع .

وأخيراً أتقدم بالشكر إلى كل من عاونني وساعدني في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود ، فلهم مني جميعًا الشكر والتقدير، وأدعو الله أن يجزي الجميع عني خير الجزاء .

الباحثة...

قائمة المحتويات

المُقَـــدْمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد بن عبد الله الهادي البشير..والسراج المنير..صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين هدانا الله بهم ووفقنا للسير على منوالهم وبعد:

إن هذه الدراسة ستسلط الضوء على دور المرأة في المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي الأول من عام "١٣٢ - ٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م" وذلك في الأمور السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية،والثقافية.

لقد مثلت المرأة نصف المجتمع،حيث أعطاها الإسلام حقّ الملكية وحرية التصرف فيما تملك،كما منحها حقوقًا كثيرةً حُرِمَتْ منها في العصور السابقة على ظهور الإسلام،ورغم ذلك ظَلَّتِ النسَّاءُ في نظر الرجل المسلم حَرمًا يُصان، ومفروض أن لا يظهر للعيان، وإنما وراء الستر مكانه وفي الخدور يقضي حياته، بيد أن المرأة لم تستكن لتسلط الرجل دومًا، وعملت لإثبات ذاتها وشاركت الرجل حياته على الصعيد الاقتصادي والثقافي فضلاً عن مشاركتها إيّاه في الحياة السياسية من وراء ستار.

ومن المعلوم أن نساء العامة شاركت الرجل حياته الاقتصادية بما تؤدي من عمل داخل المنزل، وكثيرًا ما خرجت للعمل إذا ما أعوزتها الضرورة، رَغْبَةً في كسبِ الرّزق، أو أملاً في زيادة الدخل، وسلكت الغالبية سُبلاً شريفة ابتغاء الرزق، وخاضت أُخريات مجالات منافية للآداب والأخلاق، بحثًا عن المال لسد الحاجة أو بغية الثراء، أما نساء البلاط من أمهات الخلفاء وزوجاتهم، وكذلك الجواري والقهرمانات فلم يكنّ بحاجة إلى الكسب من أجل العيش، وإنما تملكن الضياع والقصور والحّلي،واستغلت بعضهن أموالها في التجارة،ومن ثَمَّ تَرَكْنَ آثارًا على الحياة الاقتصادية، إيجاباً أم سلباً.

وشاركت نساء البلاط في الحياة الاجتماعية والثقافية فضلاً عن اتخاذ القرار السياسي والإداري من وراء ستار إبان فترة قوة الدولة، وسيطرة الخلفاء على أمورها أو في سفور إبّان فترات الضعف وانهماك الخلفاء في حياة اللهو والترف.

إن سبب اختياري لهذا الموضوع والبحث فيه راجع إلى عدة أسباب منها:

١- شغفي الشديد بهذا الموضوع منذ كنت طالبة في مرحلة الليسانس ودبلوم الدراسات العليا.

٢- إيماناً منى بضرورة التعريف بدور المرأة وأهميتها في المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي الأول،والدور المميز الذي لعبته في كافة ميادينه السياسية والثقافية والاقتصادية والدينية.

٣- لم يخصص احد من الباحثين المحدثين حسب علمي دراسة وافية ومستفيضة عن

دور المرأة في العصر العباسي الأول، بل كانت معظم كتاباتهم عن النساء تسجل من خلال حياة بعض الخلفاء وهى لا تفي بالغرض المطلوب.

أهمية الموضوع:

رغم تعاظم دور المرأة في كثير من جوانب الحياة، فإنَّ الكثير من المصادر أغفلت رصد دورها السياسي بشكل واضح، ولم تكشف عن مدى مشاركة النساء للرجال في إنصاف بسبب الموروث عند العرب، فجعلت من المرأة ظلاً للرجل في فترات قوة الدولة، وألقت على النساء تهم إفساد الدولة في فترات الضعف، ومن ثَم جاء ذكر بعض النساء عرضاً في هذه المصادر ، وشذرات متفرقات، وحتمًا أغفلوا ذكر الكثيرات منهن ناهيك عن تلون المعلومات بمنظور أصحاب هذه التآليف، فغضوا البصر عن الإسهامات الإيجابية للمرأة، وصوروا الجانب السلبي من دورها وقلصوا منه حين اعتبروا المرأة للإمتاع والمؤانسة، وجعلوا مكانها قعر بيتها، والمغزل عملها وتسليتها،مما أدى إلى عدم تدوين كل شئ، فالتي أسعفها الحظ وبرزت خلال حياة بعض الخلفاء سُجلت لها مواقفها، وفى اغلب الأحيان جاء دورها بمظهر المتسلط مما جعل المجتمع يمقت هذا الدور؛ والتي لم يسعفها الحظ دخلت في زاوية النسيان وعدم الاهتمام، لذلك تَكْمُنُ أهمية هذه الدراسة في كشف دور المرأة في المجتمع الإسلامي من خلال العصر العباسي الأول خلال الفترة الزمنية المحددة للدراسة.

أما أهداف هذه الدراسة فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ – إبراز دور النساء من أمهات وزوجات الخلفاء اللأّتي أسهمن في مختلف ألوان النشاط السياسي،والإجتماعي،والثقافي،والديني إبّان فترة الدراسة؛وإعطاء صورة واضحة للمشاركة الفعالة للنساء خلال الدعوة العباسية.

٢– توضيح ما لعبته المرأة من أدوار في تسيير الأَحداث وتغيير مجريات الأمور في المجتمع العباسي الأول،وما تركته من اثارسواء كانت سلباً أم إيجاباً.

٣–رأيتُ أن الموضوع بحاجة إلى دراسة جادة ولو بالشئ اليسير منه لتقصى دور المرأة عامة خلال المجتمع العباسي،وما دار حوله من آراء مختلفة بغية الوصول إلى حقيقة هذا الموضوع.

منهج البحث:–

اعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي؛ الذي استخدمته في وصف أحوال المرأة ومكانتها وأدوارها خلال الفترة الزمنية المنوط بها البحث،مع تحليل بعض النصوص واستخلاص النتائج التي تم التوصل إليها.

صعوبات البحث:

لقد كانت قلة المصادر والمراجع من أهم الصعاب التي واجهتني خلال فترة البحث، فتطلب ذلك مني التنقل بين«مصر» و«ليبيا»عدة مرات حتى تمكنت من الحصول على العديد منها، وقد سهلت لي هذه الزيارات – على ماكان فيها من مشقة السفر– الكثير من الصعوبات، ووفرت لي أغلب المصادر والمراجع التي اعتمدتُ عليها في هذه الدراسة.

كما أنى وجدتُ في كثير من الأحيان صعوبة في جمع المادة؛ وذلك لتناثر المعلومات في العديد من المصادر التاريخية،والأدبية،والفقهية، وقد كان لتوجيهات الأستاذ المشرف الدكتور علي حسين الشطشاط وإرشاده لي الأثر الأكبر في تذليل هذه الصعوبة فله مني جزيل الشكر.

مصادر البحث:

ما كُتب عن المرأة جاء ضمن كتابات المحدثين عن التاريخ العباسي العام، وحقيقة قامت بعض الدراسات ببحث دور المرأة في العصر الجاهلي، والفاطمي،وكذلك دورها إبان فترة حكم المماليك،بيد أن المكتبة العربية خلت من دراسة تاريخية متكاملة عن دور المرأة في العصر العباسي الأول، لذا كان عليِ تقصي هذا الدور وبكافة جوانبه في محاولة لرصده ووضعه في منظومة متسقة اعتمادًا على المصادر الأصلية التي تمثل حجر الزاوية في البحث التاريخي.

وقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها البحث نظرًا لتشعب الموضوع واتساعه تنوعًا شهدته القائمة المثبتة في نهاية الرسالة إذ اعتمد البحث على بعض المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة، التي عالجت أحداث الفترة التي اهتمت الدراسة بها، فضلاً عن الاعتماد على بعض الدراسات الحديثة التي تناولت الفترة المعاصرة والقريبة من الأحداث.

ومن أهم المخطوطات التي اعتمدتُ عليها

١– كتاب « **السيرة وأخبار الأئمة**» «**ليحي بن أبى بكر أبو زكريا)** الذي أمدني بمعلومات عن أخبار أهل الدعوة والسيرة وعن أخبار الأئمة.

٢– كتاب «**ري الظمأ فيمن قال الشعر من الإماء**» «**لأبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي** »الذي يتناول المؤلف فيه أخبار بعض الجواري اللائي عشن في قصور الخلفاء العباسيين إلى جانب أخريات، وقد أفادني المخطوط في رفد البحث ببعض أخبار جواري العصر العباسي الأول .

أما بالنسبة للمصادر المطبوعة التي اعتمدتُ عليها مايلى:

١–كتاب«**أحكام النساء** »لمؤلفه«**أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي**» من أهم المصادر التي أفادتني في الفصل الثالث؛ وذلك بأمدادى بمعلومات وافية تتعلق بأدوات الزينة،والأزياء،وفن التجميل في فترة موضوع الدراسة.

٢-كتاب«**بلاغات النساء**» لمؤلفه «**أبو الفضل أحمد ابن طيفور**» ويعد من أهم الكتب التي تحدثت عن فترة الدراسة، ويزيد من قيمة كتابات ابن طيفور تمتعه بالحياد، وقد أفادني هذا الكتاب بما أمدني به من معلومات عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول،وكما أمدني أخبار عن بعض النساء وأشعارهن.

٣- ويعد كتاب «**الأغاني**» لمؤلفه «**أبي الفرج على الأصفهاني**» من أهم المصادر الأدبية في نقل أخبار النساء. لقد أمدني بمعلومات تفيدني عن النواحي الاجتماعية والفنية في العصر العباسي الأول،وكذلك كتابه «**الإماء الشواعر**» الذي استفدتُ منه مباشرة عن شاعرات العصر العباسي إبان الحقبة موضوع الدراسة.

٤-كتاب «**نزهة الجلساء في أشعار النساء** » لمؤلفه « **جلال الدين أبو الفضل السيوطي**»الذي ترجم فيه المؤلف لأربعين شاعرة من شواعر العرب،وقد أفادني الكتاب برفد البحث ببعض النساء اللاَّتي برعن في قول الشعر وتلحينه منهن «عُلية بنت المهدي».

٥- وقد أفادني كتاب«**تاريخ بغداد أو مدينة السلام**» لمؤلفه«**الحافظ الخطيب البغدادي**» في الجزء الرابع عشر منه بمعلومات وافية عن النساء، وخصص هذا الجزء من الكتاب لأخبار النساء فقط ومن ثم أمدني بمعلومات وافية عن محدثات وفقيهات العصر العباسي.

أما فيما يتعلق بالمراجع العربية التي اعتمدتُ عليها فهي متعددة ومتنوعة ايضاً من أبرزها:

١- كتاب «**الملابس العربية** » لمؤلفه«**صلاح الدين العبيدي**» وقد أفادني الكتاب في موضوع بحثي وخاصة في الفصل الثالث، حيث أمدني بمعلومات عن زينة النساء، وملابسهن في العصر العباسي الأول سواء كن من الحرائر أو الجواري.

٢- كتاب «**المرأة في أدب العباسي**» لمؤلفه«**واجدة عبدالله**» الذي أفادني في الفصلين الأول والرابع، حيث استفدت منه في اشتراك النساء في أحزاب المعارضة، كماأمدني بمعلومات عن النساء الحرائر في العصر العباسي الأول اللاَّتي اشتهرن بالثقافة، والأدب، والعفة،والجمال،وعن الجواري المغنيات اللاَّتي كان لهن الآثر في إثراء النهضة الأدبية في الغناء.

٣- كتاب «**أعلام النساء**» لمؤلفه «**عمر رضا كحالة**» الذي أفادني إفادة عظيمة في موضوع البحث بصفة عامة، وقد أمدني هذا الكتاب بتراجم لبعض النساء اللاَّتي أسهمن في الحياة الاجتماعية، والثقافية، والدينية.

هذا، إلى جانب العديد من المراجع الثانوية الأخرى والتي يطول المقام هنا لذكرها، فهي ذات أهمية في تغطية كثير من النقاط التي تناولها البحث.

وقد اقتضت الدراسة تقسيم هذا الموضوع إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

ففي **الفصل الأول** تناولتُ بالبحث الدور السياسي الذي قامت به المرأة، ومن خلاله تحدثت في **المبحث الأول** عن دورها في الدعوة العباسية السرية وتأثيرها في نجاح تلك الدعوة،**والمبحث الثاني** عن تدخلها في شئون الحكم، مع إبراز تأثيرها في التدخل السافر على الدولة، ونتائج هذا التدخل بسبب ضعف الخلفاء وانتشار الفوضى والاضطرابات في بلاط الدولة، ثم تناولت في **المبحث الثالث** أهم الحركات المعارضة ومدى اشتراك المرأة فيها.

أما الفصل الثاني أُفردته لدراسة دور المرأة الاقتصادي، وكان **المبحث الأول** عن أملاك النساء من الحرائر والجواري. **والمبحث الثاني** عن المنشآت التي قامت بها النساء، والنفقات التي أنفقتها على هذه المنشآت والنفقات في مجالات أخرى.

وتصدى **المبحث الثالث** لبيان أهم الأعمال والمهن التي قامت بها النساء سواء المهن الموجودة سابقًا عن المجتمع العباسي، أو المهن المستحدثة التي جلبتها الوافدات معهن كالتجميل مثلاً، والظروف التي أدت إلى القيام ببعض هذه الأعمال والمهن.

أما الفصل الثالث كان لدراسة الأوضاع الاجتماعية للمرأة العامة، ويتكون من ثلاثة مباحث **فالمبحث الأول** تناول دور المرأة في الحياة الأسرية، ومدى تأثيرها في حياة أبنائِها كأُمٍّ وزوجة ودورها كأخت وابنة.

بينما **المبحث الثاني** كان لمناقشة أسباب كثرة الجواري في المجتمع العباسي،وطرق جلبهن، وارتفاع أثمانهن، وتأثيرهن على الحياة الاجتماعية والعلاقة بين هؤلاء الجواري والرجال والعلاقة بينهن وبين الحرائر.

أما المبحث الثالث تناولت فيه الحديث عن وسائل الزينة التي استخدمتها النساء من حيث كيفية التزين بها وإعدادها من ملابس وطيب وحلي وغيرها، ومدى تأثير استعمال هذه الزينة على المجتمع من حيث القبول أو الرفض.

وأخيرًا يُعالج **الفصل الرابع** دور المرأة الثقافي، حيث خصص **المبحث الأول** لمناقشة ثقافة الحرائر الأدبية وإبراز دورهن.

وأفردت **المبحث الثاني** لثقافة الجواري الأدبية في جميع مجالات الأدب، وتميزهن بأنواع من الثقافة، وناقشت أسباب تفوقهن في بعض النواحي الأدبية، وتحديد نتائج هذا الدور الأدبي.

أما المبحث الثالث فوضعته لبيان أسباب لجوء النساء إلى النبوغ في العلوم الدينية وأشهر النساء في هذا المجال، ومدى مساهمتهن في النهضة العلمية الدينية.

ختاماً، فإني حاولت بقدر الإمكان أن أوضح هذا الموضوع، ولست أدعى أنى وفيته حقه، ووصلت إلى درجة الكمال، فالكمال لله وحده،،وما توفيقي إلا به، عليه توكلت واليه أنيب.

الباحثة...

الفَصْلُ الأوَّل

دور المرأة السياسي

المبحث الأول: - دور المرأة في الدعوة العباسية.

المبحث الثاني: - تدخل النساء في شئون الحكم.

المبحث الثالث: - دور المرأة في أحزاب المعارضة.

يُعَدُّ دَوْرُ المرأة السياسي متمثلاً في تدخلها في شئون الحكم واشتراكها في أحزاب المعارضة من المباحث التي تحتاج إلى جُهْدٍ كبيرٍ، لما يكتنفها من غموض وإبهام فضلاً عن ندرة المعلومات التي رصدها المؤرخون لهذا الدور، ولذا جاءت معلوماتهم بقدر ضئيل حين سردوا أخبار بعض النساء،ناهيك عن تناثر هذه المعلومات هنا وهناك، مما كان له أبعد الأثر في تناقضها.

ورغم ذلك رصدت المصادر بعض أدوار نساء شاركن في الحياة السياسية، ومن خلال ذلك نستطيع إبانة دور المرأة عامة من أمهات وزوجات للخلفاء، أو قهرمانات وجواري وغيرهن، وكان لهن الفضل في قهر الموروث حتى استطعن أن يظهرن على سطح الحياة السياسية، فمن المعلوم أن بعض النساء لعبن دوراً بارزاً في الحياة السياسية إبّان العصر العباسي الأول، رغم تميز هذا العصر بقوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على مقاليد الأمور في دولتهم، وضربهم بيد قوية على يد كل من تسول له نفسه أن يحاول انتزاع السلطة من أيديهم، ويحتم ذلك طرح التساؤل عن مدى استطاعة المرأة المشاركة في الحياة السياسية وإيجاد دور لها إبان العصر العباسي الأول.

وفي العصر العباسي الثاني لعبت النساء إبانه دوراً مهماً في أحواله السياسية، ونجم ذلك عن تقلص سلطة الخلفاء نتيجة سيطرة قواد العسكر التركي، وانغماس غالبية الخلفاء في حياة اللهو والمجون، وعدم درايتهم السياسية بسبب ضعفهم، أو توليهم السلطة صغار السن مثلما، حدث للمقتدر بالله العباسي(٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م)، مما أتاح لبعض نساء البلاط العباسي على اختلاف صفاتهن من أمهات وزوجات وقهرمانات[١] التدخل بقدر في شئون الحكم، وبلغت أدوار بعضهن قدرًا غطى على سلطان الخلفاء أنفسهم، واستغلت بعضهن ضعف شخصية بعض خلفاء العصر العباسي الثاني، وعملن على تعيين وإبعاد من أردن من مناصب الدولة، رغبة منهن في الإبقاء على من يدور في فلكهن ويساعدهن على استمرار سيطرتهن على الأمور، فأسهم ذلك في تأجيج نار الفتنة فضلاً عن المؤامرات والدسائس بين كبار الدولة من وزراء وكُتَّاب وغيرهم.

وأدى ضعف الخلفاء وسيطرة النساء على أمور الدولة، فضلاً عن عدم دراية الخلفاء

---

(١) قهرمانات:مفردها قهرمانة وهي مديرة شؤون القصر، والمسيطرة على الأمور التي تحت يدها= صبحي الصالح: تاريخ النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين(بيروت، ١٩٨٠م)، ص٢٣١.

السياسية، وانغماس معظمهم في حياة اللهو إلى ظهور فرق المعارضة للحكم القائم، والتي نادت بإقامة العدل، وطالبت بالمساواة حين تتابعت الأزمات الاقتصادية، وسادت الاضطرابات السياسية التي حدثت إبان العصر العباسي الأول وإن كانت قليلة، وأمست سمة العصر العباسي الثاني لكثرة تكرارها، وساهمت بعض النساء في فرق المعارضة رغم ندرة المعلومات عن إسهاماتهن، ومرد ذلك إلى عدم اعتناء الحوليين بأخبارهن، فضلاً عن سرية المعارضة عامة، وتكتم أدوار النساء بخاصة خوفًا عليهن من بطش الحكام، بيد أن دور بعضهن فرض نفسه على صفحات التاريخ مثل دور (ليلى بنت طريف) [١] التي اشتركت في أحزاب الخوارج[٢] بجانب أخيها في عهد الخليفة هارون الرشيد.

إن هذه الأوضاع التي حدثت في البلاط العباسي من ضعف الخلفاء أو قوتهم، وارتباط هذه الأدوار بقوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على مقاليد الأمور في العصر العباسي الأول، ثم ضعفهم وسيطرة النساء وتعاظم دور فرق المعارضة طوال العصر العباسي الثاني كان له آثاره الاقتصادية، إذ أدت سيطرة الخلفاء على أمور الدولة في العصر العباسي الأول إلى اتساع حركة التجارة وازدهار الزراعة وتنامي الصناعة، وتبع ذلك امتلاك النساء كثير من الأملاك، وقيامهن ببعض الإصلاحات والمنشآت في مجالات شتى، ونجم عن ضعف الخلفاء وسيطرة النساء على الدولة إبان العصر العباسي الثاني، أن حازت النساء ثروات طائلة وأبقت عليها في خزائنها، فلم يُقَدَّر لهذه الأموال المشاركة في النهضة الاقتصادية، وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل التالي.

---

(١) ليلى بنت طريف الشيباني :شاعرة من شواعر الدولة العباسية وأخت الوليد بن طريف، وكان أخوها الوليد رأس الخوارج وأشدهم باساً =الزركلي،خير الدين:الأعلام،دار الملايين(بيروت،بدون تاريخ)،٧٥/٢.كذلك عبد الحكيم الوائلي:موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين (عمان،٢٠٠١م)٥٢١/٢.

(٢) الخوارج هم فرقة إسلامية ظهرت في عهد الخليفة علي بن أبي طالب نتيجة الخلافات السياسية التي بدأت في عهده، وتتصف هذه الفرقة بأنها أشد الفرق دفاعا عن مذهبها وتعصبا لآرائها، ويؤخذ عليها تمسكها بالألفاظ وظواهر النصوص، كما أنهم كانوا يدعون بالبراءة والرفض للخليفة عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحكام من بني أمية= الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل- تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار الفكر(بيروت، ١٩٨٢م)، ص٢١٠.

المبحث الأول: دور المرأة في الدعوة العباسية

إن اشتراك المرأة في الدعوة العباسية[1] من الأمور التي يعوَّل عليها في تحديد الأسباب والنتائج لدورها، بيد أن هذا الدور ظلَّ غامضاً ومستوراً لم توره المصادر، والغالب على الظن أن ذلك حسب الموروث، إلى جانب الخوف عليها كجنس ضعيف من التعرض للعقاب إذا ما قبض عليها متلبسة بهذا الدور، كذلك سرية الدعوة العباسية، فمعلوم دقة التنظيم السري العباسي وإخفائه عن عيون الأمويين، إذ عمد زعماء الدعوة إلى إخفاء أساليب دعوتهم، والتستر على المشاركين فيها حتى تكتمل قوتها، ومن ثم يكون ضمان النجاح ثم الظهور[2].

ويطرح دور النساء في الدعوة العباسية التساؤل عن كنه دورها، ومدى قناعتها بهذا الدور، فهل لعبت دورها عن قناعة كاملة بنصرة الدعوة أم أن هذا الدور أُمْلِيَ عليها بالتهديد والوعيد من قبل زعماء الدعوة في محاولة استغلالها لنقل الأسرار والرسائل بين الثوار، بسبب كونها عنصراً قابلاً للتخفي والتستر عن العيون، لذلك اقتضى منهج دراسة هذا المبحث تعقب دور المرأة في الدعوة العباسية زمنيًا منذ قيامها توخيًا للتحقيق وذلك نتيجة تشابك الأحداث واضطرابها إلى جانب ندرتها.

وعلى الرغم من إغفال المصادر والمراجع الحديثة التركيز على دور المرأة السياسي خاصة إبان فترة الدعوة العباسية، فإنه يمكن الخوض في الموضوع استناداً إلى المحاور الآتية:

١- مدى تقبل المرأة فكرة الاشتراك في الدعوة العباسية.

٢- الأساليب التي اتبعتها في السعي لإنجاح الدعوة، وتخطي العرف الاجتماعي السائد، بالاشتراك في المجال السياسي.

٣- نتائج اشتراك المرأة في الدعوة العباسية.

يعتبر اشتراك المرأة في الدعوة العباسية في ذاته سببًا كافياً يجعلني أجزم بقبولها فكرة الدعوة العباسية والتهيئة لإنجاحها، وإن كان دورها آنذاك لا يرد كثيرًا -كما ألمحت-

---

(١) عن الدعوة العباسية ينظر مؤلف مجهول: أخبار الدعوة العباسية- تحقيق عبد العزيز الدوري (بيروت،١٩٧١م)،ص١٦٥-١٦٦.

(٢)المصدر نفسه والصفحة.

في مباحث المؤرخين القدامى، سوى إشارات متناثرة مبعثرة، حاولت تتبعها لإلقاء الضوء عليها، ورغم ذلك رصدت المصادر دور بعض النساء لبروزهن في هذا المجال والغالب على الظن أن دور المرأة لم يكن مباشراً في الدعوة العباسية[١]، أو سافراً للعيان بحكم كونها امرأة، وتبعيتها للرجل من حيث قوامته كما نصت الشريعة الإسلامية، هذا فضلاً عن طابع السرية الذي غلف الدعوة العباسية.

وبالرغم من ذلك كان للمرأة دورُ كبيرُ وذو أهمية وخطورة، وإن حاول البعض الاستهانة بها والتقليل من حجم دورها بحكم كونها العنصر الأضعف، خاصة وأن الدعوة العباسية كغيرها من الدعوات التزمت السرية في بداية أمرها، وبرزت مساهمة بعضهن في إعانة الدعوة بكل ما تجود به أنفسهن من الأموال والحلي، حتى قيل إن المرأة: «كانت لتخرج من جميع حليها التي على جسدها فتبعث بها»[٢].

بمعنى أن تبعث إلى نقباء الدعوة الذين كانوا يطوفون على مراكز الدعوة السرية لجمع الأموال وغيرها، فقد كان أبو هاشم بكير بن ماهان[٣] ينتقل من مركز إلى آخر يطلب من مناصري الدعوة معاضدة إمام الدعوة بالسر والعلانية[٤]، حتى وصل إلى جرجان، فوقف أهلها إلى جانبه وناصروه رجالاً ونساء[٥].

ومن النساء اللاَّتي فرضن على التاريخ ذكرهن امرأة من الأزد يقال لها ماوية بنت عمر بن سعيد[٦]، وقد قبلت الدعوة عن عامر[٧] بحكم قرابته لها، إذ كان خالها، كما

(١) مؤلف مجهول: أخبار الدعوة العباسية، ص١٦٥ وما بعدها. كذلك مجدي فتحي السيد: تاريخ الإسلام والمسلمين، دار الصحابة (طنطا، ١٩٩٩م)،ص٢٤.

(٢) مجهول:أخبار الدعوة العباسية، ص٢٢٤.

(٣) أحد كبار النقباء والمتحمسين للعباسيين، رحل إلى الكوفة سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، حيث وضع بكير ثروته الكبيرة تحت تصرف دعاة العباسيين، وأخذ يدعوا لهم في خراسان، وعندما أخذ بيعة أهلها لإبراهيم إمام الدعوة عاد ومعه الأموال التي جمعت منهم لنصرة الدعوة، وظل بكير على حماسه للعباسيين حتى وفاته سنة (١٢٧هـ/ ٧٤٤م)= فاروق عمر :الثورة العباسية٩٨ –١٣٢هـ/٧١٦–٧٤٩م،دار الشروق (عمان،٢٠٠١م)،ص١١٣.

(٤) من أقواله: «إنكم قد جُدْتم بأنفسكم في إقامة الحق، فجودوا لإمامكم بأموالكم»= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٣.

(٥) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان،دار إحياء التراث العربي (بيروت، بدون تاريخ)، ١١٩/٢.كذلك البكري، أبو عبيد الله: معجم ما استعجم (بيروت،١٩٨٣م)،٣٧٥/٢.

(٦) وتبرعت ماوية بحليها «فخلعت ما كان عليها من حلي، فبعثت به، وكان سواري وطوق وخاتم ذهب وخلخال فضة»= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٧) هو أحد رجالات الدعوة العباسية= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

تبرعت بكثير من حليها، وكذلك أم الهيثم[1]، امرأة أبي عون من النساء اللاَّتي ساهمن بأموالهن وحليهن في سبيل الدعوة[2]، ولا شك في أن صلة القرابة بين الدعاة ونسائهم سهلت من عملية استجابة المرأة للدعوة بمثل هذه السرعة والسهولة ولكن هل اقتصر دور المرأة على المشاركة بمالها وحليها فقط، أم تجاوز ذلك، والغالب على الظن أن قبولها الدعوة معناه المزيد من التضحيات التي تتعدى الوقوف عند حد التبرع بالحلي والأموال، وإن لم أتوفر على المادة العلمية عن هذه الأدوار بدرجة كافية، فإن المصادر أفصحت عن بعضها.

معلوم قدرة المرأة على التخفي، ومن ثم قامت بدور كبير في التجسس لجمع المعلومات فترة الدعوة، فقد استعان أبو مسلم الخراساني[3] بالنساء في أمور التجسس، إذ كان يدس النساء من أهل الدعوة وكأنهن يتصدقن لالتقاط الأخبار، ومن النساء اللاتي لعبن دورًا كبيرًا في هذا المجال امرأة يقال لها «أم العلا»، فكانت تنتقل بين الناس وتخبرهم أن الخليفة الأموي مروان بن محمد قتل إبراهيم الإمام[4]، وحبس الصبيان، فمن أيد قولها لا تنقل خبره إلى أبي مسلم،ومن يعارضها في ذلك، فإنها ترفع أمره إلى أبي مسلم الذي كان يقوم بدوره في القضاء على معارضي الدعوة[5].

ولم تسلم هذه السيدة من عقاب رجال مروان بن محمد، إذ حدث أنها وقعت في الأَسْر ومعها ستون فارسًا كانوا ينتقلون معها لعونها لنشر الدعوة وقبض عليها أبو خالد

(١) فقد بعثت بثلاثة أبرد وبر من غزل يدها وسواري فضة= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٢) أحد رجال الدولة العباسية= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٣) أبو مسلم الخراساني هو أبومسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، و من ثم واليها، سياسي وقائد عسكري. قيل اسمه إبراهيم، ويكنى أبا إسحاق، كان غلاماًسراجاً، ومن ثم أُرسل إلى إبراهيم الإمام ليخدمه،فلمس فيه إخلاصاً، وحماساً، وشجاعة، فقربه،وأمره بتغيير اسمه وكنيته، وأرسله بعدها ليدعوا للعباسيين في خراسان، وأوصاه وصية مشهورة التزم بها. استمر أبو مسلم في دعوته رغم موت الإمام، ووطأ المنابر للدولة العباسية،حتى قامت في(١٣٢ هـ/٧٤٩م). وقد عاش أبومسلم الخراساني (٣٧ سنة) بلغ بها منزلة عظماء العالم حتى قال فيه المأمون: أجلّ ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدولة وتحويلها: الإسكندر وأردشير وأبومسلم الخراساني. وكانت وفاته سنة (١٣٧هـ/٧٥٤م). عن دور أبي مسلم في الدعوة العباسية= ينظر مجهول: أخبار الدعوة،ص٢٥٤ وما بعدها.كذلك أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، رسالة ماجستير (دمشق، ١٩٨٤م)، ص١١.

(٤) إمام الدعوة العباسية=ينظر مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٤٠ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٠٣.

متنكرًا[1] وفي نفر من رجاله، فقتلها ومن معها[2]؛ لأن الأمويين لم يغفلوا أمر دعاة العباسيين، وإنما ظلوا على تعقبهم حتى آخر العصر الأموي، وقد استغلت بعض النساء ظاهرة التجسس هذه في الكسب غير المشروع، إذ ظهرت امرأة بعد مقتل «أم العلا» وتسمت باسمها، ودارت على المنازل، وهي تدعو للعباسيين، وتجمع الأموال والحلي من الأهالي وتستولي عليها، فسعى بها إلى عامل لأبي مسلم بعد أن اكتشف أمرها، فأمر بعقابها بأن ضُرِبت ستمائة سوط[3].

وشجع رجال الدعوة العباسية النساء على القيام بدورهن من أجل إنجاح الدعوة، ولم يقف الأمر عند حد مساهمة النساء بالحلي والأموال، وإنما عمل رجال الدعوة على مد يد العون لكل النساء اللاتي شاركن في إنجاح الدعوة أو انضممن إليها حتى يتمكن من القيام بدورهن من ناحية، أو لمساعدة من يرونها بحاجة إلى الأموال؛ لأن العون المادي في حد ذاته يحض الكثير من الناس على الدخول في الدعوة واستمرار مناصرتها، وأوردت المصادر الدليل على ذلك، بأن إبراهيم بن محمد الإمام بعث بمبلغ أربعمائة دينار إلى ريطة بنت عبد الله بن محمد بن الحنفية مع ولدها الحسين بن زيد[4].

ورغم قبول المرأة للدعوة العباسية والمشاركة في مناصرتها، فإنها لم تستسلم لرأي الرجال دوماً، وإنما عارضت الدعاة في الأساليب التي يستخدمونها، من ذلك ما فعلته أم الفوارس، صاحبة منزل أبي مسلم الخراساني إذ قدمت إليه لتعارضه في أساليبه في نشر الدعوة[5]، فكانت تعظه تارة وتعيب سيرته تارة أخرى، فنهاها عن ذلك عدة مرات، ولكنها لم ترتدع أو تنته، وإنما تمادت في إصرارها، فاضطر أبو مسلم إلى ضربها ثم رجمها[6].

---

(١) أحد رجالات مروان بن محمد= مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣)مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

(٤) يذكر الحسين: «فأخذتها ومضيت يقصد الأموال، فما أنفقناها حتى رأينا راية بني العباس في خراسان= مجهول: أخبار الدعوة،ص٣٨٣-٣٨٤.

(٥) من أساليب أبي مسلم في نشر الدعوة قتل كل من يتكلم العربية في خراسان، وعلل ذلك بأن وجود العرب من شأنه أن يؤدي إلى فشل الدعوة، فوضع بدهائه خطة لأن يفني العرب بعضهم بعضًا، فأوقع بين القيسية واليمنية وأشعل بينهما نار الفتنة= ينظر:المسعودي،أبو الحسن على بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت،١٩٨٢م)، ٢٥٩/٣.كذلك مؤلف مجهول: أخبار الدعوة،ص٣٨٧، شوقي ضيف: العصر العباسي الأول،دار المعارف (القاهرة،١٩٦٦م)،ص١٢.

(٦) مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

وصفوة القول، أن دور المرأة – رغم ضآلته – في مناصرة الدعوة العباسية، فإنه كان على جانب كبير من الأهمية، وما نجاح الدعوة العباسية سوى خير دليل على ذلك، وعدم سفور دورها للعيان، لا يعني أنها لعبت دورًا يستهان به، فمعلوم ضرورة الاستعانة بالمرأة في بعض الأعمال والمواقف التي تحتاج إلى التخفي وإعمال الحيلة، فضلاً عن الحاجة إليها للوصول إلى بعض الأماكن التي يصعب ويستحيل على الرجال ارتيادها كدور الحريم.

ويمكن القول بأن قبول المرأة للقيام بهذا الدور نبع من قناعة تامة بفكرة الدعوة العباسية، فعملت النساء على إنجاحها وظلت تساندها حتى تحققت بقيام الخلافة العباسية سنة(١٣٢هـ/٧٥٠م).

المبحث الثاني: تدخل النساء في شئون الحكم

لم يتوقف دور المرأة السياسي عند التهيئة للدعوة العباسية بل تعداه بعد قيام الدولة العباسية ككيان مستقل بذاته إلى تدخلها في شئون الدولة بالرغم من المحاذير الدينية والقيود الاجتماعية، وإن حُرمت بلوغ قمة السلطة فإنها لم تُحرم التأثير على مجريات السياسة في الدولة، وفي فترة الدراسة التي نحن بصددها يجب تقصي هذا التأثير في العصر العباسي الأول؛ كذلك العصر العباسي الثاني لتبيان أيهما كان أكبر قدرًا.

احتلت المرأة موقعاً مؤثراً في القصر العباسي، فهل اقتصر الأمر عليها، أم أصبح لها أتباعًا أو صاحبات مراتب فيه يقمن بدور ضمن إطار موقعهن كالقهرمانات وغيرهن.

إشكالية أخرى أجدها عندما أوجه نظري نحو المجتمع، هل قبل المجتمع تدخل النساء في شئون الحكم أم لا؟

ولذلك سوف تتمحور الدراسة حول:

١- مدى تدخل المرأة في شئون الحكم في العصر العباسي الأول وإلى أي مدى نجحت في ذلك؟

إن الدولة العباسية قامت بعد صراع طويل مع أعدائها حتى أضحت كيانًا مستقلاً قائمًا بذاته، ولعبت المرأة دورًا لا يستهان به في الدعوة العباسية، وشجعها نجاح الدعوة وقيام الدولة العباسية على أن تطمع في التدخل في شئون الدولة، لكن تدخلها كان محدودًا في العصر العباسي الأول لما امتاز به من قوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على أمور دولتهم، وضربهم بيد قوية كل من يحاول انتزاع السلطة من أيديهم[١].

---

(١) مثال ما فعله المنصور بأبي مسلم الخراساني= عنه ينظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير :تاريخ الرسل والملوك- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(القاهرة،١٩٧٩م)،٤٧٩/٧ وما بعدها.كذلك ابن الطقطقى،محمد بن على بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية (بيروت، بدون تاريخ)،ص١٦٨.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول،مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة،١٩٧٩م)، ص٦٠ وما بعدها.

وعن ما فعله المنصور مع الطالبيين «ذكر الطبري» أنه لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي ودفع لها مفاتيح الخزائن، ووكد الأيمان عليها ألا تفتح بعض تلك الخزائن إلا للمهدي ، بعد موته، فلما مات المنصور فتح المهدي الباب ومعه ريطة؛ فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلا الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ= عنه ينظر تاريخ الرسل ١٠٤/٨-١٠٥، وما فعله المنصور مع بني الحسن=ينظر ابن الطقطقى: الفخري، ص١٦٤-١٦٥، وما فعله الرشيد مع البرامكة = عنه ينظر المسعودي: مروج الذهب، ٣٨٧/٣.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٢٩٤/٨،٢٨٧، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر (بيروت، بدون تاريخ)، ١٦/٢، وما فعله المعتصم مع الأفشين عنه ينظر الطبري: تاريخ الرسل، ١١٤/٩،١١١.

وهذا التدخل يجعلني أقبل وأَجزم بدور المرأة في تدبير شئون الدولة، وذلك لأن الرجل لا بد له من أن يتأثر في بعض المواقف بالمرأة التي تقف إلى جانبه، وهذا أدى إلى بروز بعض النساء في بلاط الدولة العباسية من أمهات وزوجات وجواري كانت لهن سلطات غطت أحيانًا على سلطات الخلفاء أنفسهم، فأم سلمة[١] غلبت على السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٣م) حتى أنه كان لا يقطع أمرًا دون مشورتها[٢].

بيد أن الخليفة المنصور من بعده (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) أخذ حذره من النساء فلم يسمح لهن بالتدخل في شئون الدولة، بالرغم من أنه اشترط لزوجته أن لا يتزوج عليها، ولا يتسرى إلا بأمرها[٣]، ولكنه لم يسمح لها أن يتعدى سلطانها سلطانه[٤]، بل أنه نهى أبناءه عن مشاورة النساء[٥].

وقد يعود السبب في ذلك إلى استياء أبي جعفر المنصور من المرأة لأن خصومهم (الهاشميين) كانوا دائمًا يفخرون بأمهاتهم المفضليات، هذا الأمر الذي لم يكن يستطيعه خلفاء بني العباس؛ لأن جُلَّ أبنائِهم كانوا من الإماء[٦]، مما أدى بهم في بادئ الأمر إلى عدم الارتياح إلى المرأة وبروز دورها حتى يثبتوا لخصومهم أنهم رجال أشداء أقوياء[٧]. وربما يعود كبح المنصور بخاصة جماح المرأة إلى أن أمه أم ولد يقال لها سلامة وقيل بربرية[٨].

---

(١) أم سلمة زوجة أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية=الطبري:تاريخ الرسل، ٢٦/٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧٥/٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٨٦/٨.كذلك الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:المحاسن والأضداد- تحقيق فوزي عطوي (بيروت، ١٩٦٩م)، ص١٣٧.

(٤)صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، دار الحياة (بيروت،١٩٥٧م)، ص٧.

(٥) جاء في وصيته ما نصه: «وإياك والاستماع لمشورة النساء وأظنك ستفعل»= الطبري:تاريخ الرسل،٨ /١٠٤.كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الحياة (بيروت،بدون تاريخ)، ٣٥١/١.

(٦) الإماء: الجواري من الرقيق والعبيد=إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (بيروت،١٩٨٦)، ص١٢٣.

(٧) وقد ذكر الطبري نص الكتاب الذي عبر به المنصور عن ذلك وأرسله إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن هذا نصه «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فلقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضلّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء،ولا كالعصبة والأولياء؛ لأن الله جعل العمّ أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، قال جلَّ ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام: (واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبًا،وأصرحهم أما وأبًا ؛وأنه لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد= الطبري:تاريخ الرسل،٥٦٨/٧.كذلك واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي،دار الرشيد للنشر(بغداد،١٩٨١م)، ص٧٠-٧١.

(٨) المسعودي: التنبيه والإشراف (بيروت، ١٩٨١م)، ص٣١١.

ورغم حرص خلفاء العصر العباسي الأول على الحد من تدخل النساء في شئون الحكم، فإنهم استعانوا ببعضهن في التجسس خاصة في بداية قيام دولتهم، بل وصل الأمر ببعضهم إلى أن جعل لهن رواتب شهرية تُمنح لهنّ من الدولة مقابل معرفة الأخبار ونقلها، فقد استعان الخليفة المنصور بالحَجَّامات في عملية التجسس؛ لأنهن أقدر على الدخول إلى داخل البيوت، ومما يؤكد ذلك أنه قبض على أحد الجواري وأراد أن يعلم منها أخبار محمد بن عبد الله – أحد المعارضين للدولة العباسية– ومكانه، ولكنها رفضت الإجابة حتى أخبرها المنصور إن كانت تعرف حَجَّامَةً بعينها وذكر لها اسمها(١) وأغراها بما يغدقه عليها من أموالٍ حتى اعترفت الجارية بكل ما تعلم، خاصة وأنها تعلم بأن هذه الحجامة إحدى العيون التي يبثها المنصور لمعرفة الأخبار ويجري عليها راتب كل شهر من الدولة(٢).

ونهج الخليفة المأمون(١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م) نهج جد ابيه المنصور في الحد من تدخل النساء في شئون الدولة، إذ يتضح في عهد كُلٍّ من الخليفتين المنصور والمأمون أنه لم تبرز أسماء لنساء كان لهن دورُ مهمُ في تسيير شئون الحكم؛ لأن هذين الخليفتين لم يسمحا للمرأة بأن يتعدى دورها التجسس فقط لترسيخ قواعد الدولة العباسية، فقد استعان الخليفة المأمون بكثير من العجائز لهذه المهمة (التجسس) وكان له ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال الناس وأخبارهم فيمن يحبه ويكرهه أو يبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، حتى أنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى يسمع منهن أخبارهن(٣).

وكان لاستخدام المرأة في التجسس آثاره السلبية، منها المناداة بعزل المرأة، والنظر إليها بعين الشك والريبة.

أما بالنسبة لدور المرأة في التدخل في شئون الحكم فإنه كان أكثر وضوحًا على عهد الخليفة المهدي (١٥٨–١٦٩هـ/٧٧٤–٧٨٥م)، فأحرزت المرأة إبان عهده نفوذًا كبيرًا

---

(١) قال المنصور للجارية الصفراء: «أتعرفين فلانة الحجامة هي أمتي، ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أخباركم»= البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ (بيروت، ١٩٧٠م)، ص١٤٨.كذلك صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٩٠.

(٢) صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٩٠

(٣) المصدر نفسه، ص٩٣.

الفَصْلُ الأَوَّل

دور المرأة السياسي

المبحث الأول: - دور المرأة في الدعوة العباسية.

المبحث الثاني: - تدخل النساء في شئون الحكم.

المبحث الثالث: - دور المرأة في أحزاب المعارضة.

يُعَدُّ دَوْرُ المرأة السياسي متمثلاً في تدخلها في شئون الحكم واشتراكها في أحزاب المعارضة من المباحث التي تحتاج إلى جُهْدٍ كبيرٍ، لما يكتنفها من غموض وإبهام فضلاً عن ندرة المعلومات التي رصدها المؤرخون لهذا الدور، ولذا جاءت معلوماتهم بقدر ضئيل حين سردوا أخبار بعض النساء،ناهيك عن تناثر هذه المعلومات هنا وهناك، مما كان له أبعد الأثر في تناقضها.

ورغم ذلك رصدت المصادر بعض أدوار نساء شاركن في الحياة السياسية، ومن خلال ذلك نستطيع إبانة دور المرأة عامة من أمهات وزوجات للخلفاء، أو قهرمانات وجواري وغيرهن، وكان لهن الفضل في قهر الموروث حتى استطعن أن يظهرن على سطح الحياة السياسية، فمن المعلوم أن بعض النساء لعبن دوراً بارزاً في الحياة السياسية إبّان العصر العباسي الأول، رغم تميز هذا العصر بقوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على مقاليد الأمور في دولتهم، وضربهم بيد قوية على يد كل من تسول له نفسه أن يحاول انتزاع السلطة من أيديهم، ويحتم ذلك طرح التساؤل عن مدى استطاعة المرأة المشاركة في الحياة السياسية وإيجاد دور لها إبان العصر العباسي الأول.

وفي العصر العباسي الثاني لعبت النساء إبانه دوراً مهماً في أحواله السياسية، ونجم ذلك عن تقلص سلطة الخلفاء نتيجة سيطرة قواد العسكر التركي، وانغماس غالبية الخلفاء في حياة اللهو والمجون، وعدم درايتهم السياسية بسبب ضعفهم، أو توليهم السلطة صغار السن مثلما، حدث للمقتدر بالله العباسي(٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م)، مما أتاح لبعض نساء البلاط العباسي على اختلاف صفاتهن من أمهات وزوجات وقهرمانات[(١)] التدخل بقدر في شئون الحكم، وبلغت أدوار بعضهن قدرًا غطى على سلطان الخلفاء أنفسهم، واستغلت بعضهن ضعف شخصية بعض خلفاء العصر العباسي الثاني، وعملن على تعيين وإبعاد من أردن من مناصب الدولة، رغبة منهن في الإبقاء على من يدور في فلكهن ويساعدهن على استمرار سيطرتهن على الأمور، فأسهم ذلك في تأجيج نار الفتنة فضلاً عن المؤامرات والدسائس بين كبار الدولة من وزراء وكُتَّاب وغيرهم.

وأدى ضعف الخلفاء وسيطرة النساء على أمور الدولة، فضلاً عن عدم دراية الخلفاء

---

(١) قهرمانات:مفردها قهرمانة وهي مديرة شؤون القصر، والمسيطرة على الأمور التي تحت يدها= صبحي الصالح: تاريخ النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين(بيروت، ١٩٨٠م)، ص٢٣١.

السياسية، وانغماس معظمهم في حياة اللهو إلى ظهور فرق المعارضة للحكم القائم، والتي نادت بإقامة العدل، وطالبت بالمساواة حين تتابعت الأزمات الاقتصادية، وسادت الاضطرابات السياسية التي حدثت إبان العصر العباسي الأول وإن كانت قليلة، وأمست سمة العصر العباسي الثاني لكثرة تكرارها، وساهمت بعض النساء في فرق المعارضة رغم ندرة المعلومات عن إسهاماتهن، ومرد ذلك إلى عدم اعتناء الحوليين بأخبارهن، فضلاً عن سرية المعارضة عامة، وتكتم أدوار النساء بخاصة خوفًا عليهن من بطش الحكام، بيد أن دور بعضهن فرض نفسه على صفحات التاريخ مثل دور (ليلى بنت طريف) [١] التي اشتركت في أحزاب الخوارج[٢] بجانب أخيها في عهد الخليفة هارون الرشيد.

إن هذه الأوضاع التي حدثت في البلاط العباسي من ضعف الخلفاء أو قوتهم، وارتباط هذه الأدوار بقوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على مقاليد الأمور في العصر العباسي الأول، ثم ضعفهم وسيطرة النساء وتعاظم دور فرق المعارضة طوال العصر العباسي الثاني كان له آثاره الاقتصادية، إذ أدت سيطرة الخلفاء على أمور الدولة في العصر العباسي الأول إلى اتساع حركة التجارة وازدهار الزراعة وتنامي الصناعة، وتبع ذلك امتلاك النساء كثير من الأملاك، وقيامهن ببعض الإصلاحات والمنشآت في مجالات شتى، ونجم عن ضعف الخلفاء وسيطرة النساء على الدولة إبان العصر العباسي الثاني، أن حازت النساء ثروات طائلة وأبقت عليها في خزائنها، فلم يُقَدَّر لهذه الأموال المشاركة في النهضة الاقتصادية، وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل التالي.

---

(١) ليلى بنت طريف الشيباني :شاعرة من شواعر الدولة العباسية وأخت الوليد بن طريف، وكان أخوها الوليد رأس الخوارج وأشدهم باساً =الزركلي،خير الدين:الأعلام،دار الملايين(بيروت،بدون تاريخ)،٧٥/٢.كذلك عبد الحكيم الوائلي:موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين (عمان،٢٠٠١م)٥٢١/٢.

(٢) الخوارج هم فرقة إسلامية ظهرت في عهد الخليفة علي بن أبي طالب نتيجة الخلافات السياسية التي بدأت في عهده، وتتصف هذه الفرقة بأنها أشد الفرق دفاعا عن مذهبها وتعصبا لآرائها، ويؤخذ عليها تمسكها بالألفاظ وظواهر النصوص، كما أنهم كانوا يدعون بالبراءة والرفض للخليفة عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحكام من بني أمية= الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل- تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار الفكر(بيروت، ١٩٨٢م)، ص٢١٠.

المبحث الأول: دور المرأة في الدعوة العباسية

إن اشتراك المرأة في الدعوة العباسية[1] من الأمور التي يعوَّل عليها في تحديد الأسباب والنتائج لدورها، بيد أن هذا الدور ظلَّ غامضاً ومستوراً لم توره المصادر، والغالب على الظن أن ذلك حسب الموروث، إلى جانب الخوف عليها كجنس ضعيف من التعرض للعقاب إذا ما قبض عليها متلبسة بهذا الدور، كذلك سرية الدعوة العباسية، فمعلوم دقة التنظيم السري العباسي وإخفائه عن عيون الأمويين، إذ عمد زعماء الدعوة إلى إخفاء أساليب دعوتهم، والتستر على المشاركين فيها حتى تكتمل قوتها، ومن ثم يكون ضمان النجاح ثم الظهور[2].

ويطرح دور النساء في الدعوة العباسية التساؤل عن كنه دورها، ومدى قناعتها بهذا الدور، فهل لعبت دورها عن قناعة كاملة بنصرة الدعوة أم أن هذا الدور أُمْلِيَ عليها بالتهديد والوعيد من قبل زعماء الدعوة في محاولة استغلالها لنقل الأسرار والرسائل بين الثوار، بسبب كونها عنصراً قابلاً للتخفي والتستر عن العيون، لذلك اقتضى منهج دراسة هذا المبحث تعقب دور المرأة في الدعوة العباسية زمنيًا منذ قيامها توخيًا للتحقيق وذلك نتيجة تشابك الأحداث واضطرابها إلى جانب ندرتها.

وعلى الرغم من إغفال المصادر والمراجع الحديثة التركيز على دور المرأة السياسي خاصة إبان فترة الدعوة العباسية، فإنه يمكن الخوض في الموضوع استناداً إلى المحاور الآتية:

١- مدى تقبل المرأة فكرة الاشتراك في الدعوة العباسية.

٢- الأساليب التي اتبعتها في السعي لإنجاح الدعوة، وتخطي العرف الاجتماعي السائد، بالاشتراك في المجال السياسي.

٣- نتائج اشتراك المرأة في الدعوة العباسية.

يعتبر اشتراك المرأة في الدعوة العباسية في ذاته سببًا كافياً يجعلني أجزم بقبولها فكرة الدعوة العباسية والتهيئة لإنجاحها، وإن كان دورها آنذاك لا يرد كثيرًا -كما ألمحت-

---

(١) عن الدعوة العباسية ينظر مؤلف مجهول: أخبار الدعوة العباسية- تحقيق عبد العزيز الدوري (بيروت، ١٩٧١م)،ص١٦٥-١٦٦.

(٢)المصدر نفسه والصفحة.

في مباحث المؤرخين القدامى، سوى إشارات متناثرة مبعثرة، حاولت تتبعها لإلقاء الضوء عليها، ورغم ذلك رصدت المصادر دور بعض النساء لبروزهن في هذا المجال والغالب على الظن أن دور المرأة لم يكن مباشراً في الدعوة العباسية[١]، أو سافراً للعيان بحكم كونها امرأة، وتبعيتها للرجل من حيث قوامته كما نصت الشريعة الإسلامية، هذا فضلاً عن طابع السرية الذي غلف الدعوة العباسية.

وبالرغم من ذلك كان للمرأة دورُ كبيرُ وذو أهمية وخطورة، وإن حاول البعض الاستهانة بها والتقليل من حجم دورها بحكم كونها العنصر الأضعف، خاصة وأن الدعوة العباسية كغيرها من الدعوات التزمت السرية في بداية أمرها، وبرزت مساهمة بعضهن في إعانة الدعوة بكل ما تجود به أنفسهن من الأموال والحلي، حتى قيل إن المرأة: «كانت لتخرج من جميع حليها التي على جسدها فتبعث بها»[٢].

بمعنى أن تبعث إلى نقباء الدعوة الذين كانوا يطوفون على مراكز الدعوة السرية لجمع الأموال وغيرها، فقد كان أبو هاشم بكير بن ماهان[٣] ينتقل من مركز إلى آخر يطلب من مناصري الدعوة معاضدة إمام الدعوة بالسر والعلانية[٤]، حتى وصل إلى جرجان، فوقف أهلها إلى جانبه وناصروه رجالاً ونساء[٥].

ومن النساء اللاَّتي فرضن على التاريخ ذكرهن امرأة من الأزد يقال لها ماوية بنت عمر بن سعيد[٦]، وقد قبلت الدعوة عن عامر [٧] بحكم قرابته لها، إذ كان خالها، كما

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار الدعوة العباسية، ص١٦٥ وما بعدها. كذلك مجدي فتحي السيد: تاريخ الإسلام والمسلمين، دار الصحابة (طنطا، ١٩٩٩م)،ص٢٤.

(٢) مجهول:أخبار الدعوة العباسية، ص٢٢٤.

(٣) أحد كبار النقباء والمتحمسين للعباسيين، رحل إلى الكوفة سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، حيث وضع بكير ثروته الكبيرة تحت تصرف دعاة العباسيين، وأخذ يدعوا لهم في خراسان، وعندما أخذ بيعة أهلها لإبراهيم إمام الدعوة عاد ومعه الأموال التي جمعت منهم لنصرة الدعوة، وظل بكير على حماسه للعباسيين حتى وفاته سنة (١٢٧هـ/ ٧٤٤م)= فاروق عمر:الثورة العباسية٩٨ –١٣٢هـ/٧١٦-٧٤٩م،دار الشروق (عمان،٢٠٠١م)،ص١١٣.

(٤) من أقواله: «إنكم قد جُدْتم بأنفسكم في إقامة الحق، فجودوا لإمامكم بأموالكم»= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٣.

(٥) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان،دار إحياء التراث العربي (بيروت، بدون تاريخ)، ١١٩/٢.كذلك البكري، أبو عبيد الله: معجم ما استعجم (بيروت،١٩٨٣م)،٣٧٥/٢.

(٦) وتبرعت ماوية بحليها «فخلعت ما كان عليها من حلي، فبعثت به، وكان سواري وطوق وخاتم ذهب وخلخال فضة»= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٧) هو أحد رجالات الدعوة العباسية= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

تبرعت بكثير من حليها، وكذلك أم الهيثم[1]، امرأة أبي عون من النساء اللاَّتي ساهمن بأموالهن وحليهن في سبيل الدعوة[2]، ولا شك في أن صلة القرابة بين الدعاة ونسائهم سهلت من عملية استجابة المرأة للدعوة بمثل هذه السرعة والسهولة ولكن هل اقتصر دور المرأة على المشاركة بمالها وحليها فقط، أم تجاوز ذلك، والغالب على الظن أن قبولها الدعوة معناه المزيد من التضحيات التي تتعدى الوقوف عند حد التبرع بالحلي والأموال، وإن لم أتوفر على المادة العلمية عن هذه الأدوار بدرجة كافية، فإن المصادر أفصحت عن بعضها.

معلوم قدرة المرأة على التخفي، ومن ثم قامت بدور كبير في التجسس لجمع المعلومات فترة الدعوة، فقد استعان أبو مسلم الخراساني[3] بالنساء في أمور التجسس، إذ كان يدس النساء من أهل الدعوة وكأنهن يتصدقن لالتقاط الأخبار، ومن النساء اللاتي لعبن دورًا كبيرًا في هذا المجال امرأة يقال لها «أم العلا»، فكانت تنتقل بين الناس وتخبرهم أن الخليفة الأموي مروان بن محمد قتل إبراهيم الإمام[4]، وحبس الصبيان، فمن أيد قولها لا تنقل خبره إلى أبي مسلم،ومن يعارضها في ذلك، فإنها ترفع أمره إلى أبي مسلم الذي كان يقوم بدوره في القضاء على معارضي الدعوة[5].

ولم تسلم هذه السيدة من عقاب رجال مروان بن محمد، إذ حدث أنها وقعت في الأَسْر ومعها ستون فارسًا كانوا ينتقلون معها لعونها لنشر الدعوة وقبض عليها أبو خالد

---

(١) فقد بعثت بثلاثة أبرد وبر من غزل يدها وسواري فضة= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٢) أحد رجال الدولة العباسية= مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٢٤.

(٣) أبو مسلم الخراساني هو أبومسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، و من ثم واليها، سياسي وقائد عسكري. قيل اسمه إبراهيم، ويكنى أبا إسحاق، كان غلاماًسراجاً، ومن ثم أُرسل إلى إبراهيم الإمام ليخدمه،فلمس فيه إخلاصاً، وحماساً، وشجاعة، فقربه،وأمره بتغيير اسمه وكنيته، وأرسله بعدها ليدعوا للعباسيين في خراسان، وأوصاه وصية مشهورة التزم بها. استمر أبو مسلم في دعوته رغم موت الإمام، ووطأ المنابر للدولة العباسية،حتى قامت في(١٣٢ هـ/٧٤٩م). وقد عاش أبومسلم الخراساني (٣٧ سنة) بلغ بها منزلة عظماء العالم حتى قال فيه المأمون: أجلّ ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدولة وتحويلها: الإسكندر وأردشير وأبومسلم الخراساني. وكانت وفاته سنة (١٣٧هـ/٧٥٤م). عن دور أبي مسلم في الدعوة العباسية= ينظر مجهول: أخبار الدعوة،ص٢٥٤ وما بعدها.كذلك أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، رسالة ماجستير (دمشق، ١٩٨٤م)، ص١١.

(٤) إمام الدعوة العباسية=ينظر مجهول: أخبار الدعوة، ص٢٤٠ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٠٣.

متنكرًا[1] وفـي نفر مـن رجالـه، فقتلهـا ومـن معهـا[2]؛ لأن الأمـويين لـم يغفلـوا أمـر دعـاة العباسيين، وإنما ظلوا على تعقبهم حتى آخر العصر الأموي، وقد استغلت بعض النساء ظـاهرة التجسس هذه فـي الكسب غير المشروع، إذ ظهرت امرأة بعد مقتل «أم العـلا» وتسمت باسمها، ودارت على المنازل، وهي تدعو للعباسيين، وتجمع الأموال والحلي من الأهالي وتستولي عليها، فسعى بها إلى عامل لأبي مسلم بعد أن اكتشف أمرها، فأمر بعقابها بأن ضُربت ستمائة سوط[3].

وشجع رجال الدعوة العباسية النساء على القيام بدورهن من أجل إنجاح الدعوة، ولم يقف الأمر عند حد مساهمة النساء بالحلي والأموال، وإنما عمل رجال الدعوة على مد يد العون لكل النساء اللاتي شاركن في إنجاح الدعوة أو انضممن إليها حتى يتمكن من القيام بدورهن من ناحية، أو لمساعدة من يرونها بحاجة إلى الأموال؛ لأن العون المادي في حد ذاتـه يحـض الكثيـر مـن النـاس علـى الـدخول فـي الـدعوة واسـتمرار مناصـرتها، وأوردت المصـادر الـدليل علـى ذلك، بـأن إبراهيم بـن محمـد الإمـام بعث بمبلـغ أربعمائـة دينـار إلـى ريطة بنت عبد الله بن محمد بن الحنفية مع ولدها الحسين بن زيد[4].

ورغم قبول المرأة للدعوة العباسية والمشاركة في مناصرتها، فإنها لم تستسلم لرأي الرجال دوماً، وإنما عارضت الدعاة في الأساليب التي يستخدمونها، من ذلك ما فعلته أم الفوارس، صاحبة منزل أبي مسلم الخراساني إذ قدمت إليه لتعارضه في أساليبه في نشر الدعوة[5]، فكانت تعظه تارة وتعيب سيرته تارة أخرى، فنهاها عن ذلك عدة مرات، ولكنها لم ترتدع أو تنته، وإنما تمادت في إصرارها، فاضطر أبو مسلم إلى ضربها ثم رجمها[6].

---

(١) أحد رجالات مروان بن محمد= مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣)مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

(٤) يذكر الحسين: «فأخذتها ومضيت يقصد الأموال، فما أنفقناها حتى رأينا راية بني العباس في خراسان= مجهول: أخبار الدعوة،ص٣٨٣-٣٨٤.

(٥) من أساليب أبي مسلم في نشر الدعوة قتل كل من يتكلم العربية في خراسان، وعلل ذلك بأن وجود العرب من شأنه أن يؤدي إلى فشل الدعوة، فوضع بدهائه خطة لأن يفني العرب بعضهم بعضًا، فأوقع بين القيسية واليمنية وأشعل بينهما نار الفتنة= ينظر:المسعودي،أبو الحسن على بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت،١٩٨٢م)، ٢٥٩/٣.كذلك مؤلف مجهول: أخبار الدعوة،ص٣٨٧، شوقي ضيف: العصر العباسي الأول،دار المعارف (القاهرة،١٩٦٦م)،ص١٢.

(٦) مجهول: أخبار الدعوة، ص٤٠٤.

وصفوة القول، أن دور المرأة – رغم ضآلته – في مناصرة الدعوة العباسية، فإنه كان على جانب كبير من الأهمية، وما نجاح الدعوة العباسية سوى خير دليل على ذلك، وعدم سفور دورها للعيان، لا يعني أنها لعبت دورًا يستهان به، فمعلوم ضرورة الاستعانة بالمرأة في بعض الأعمال والمواقف التي تحتاج إلى التخفي وإعمال الحيلة، فضلاً عن الحاجة إليها للوصول إلى بعض الأماكن التي يصعب ويستحيل على الرجال ارتيادها كدور الحريم.

ويمكن القول بأن قبول المرأة للقيام بهذا الدور نبع من قناعة تامة بفكرة الدعوة العباسية، فعملت النساء على إنجاحها وظلت تساندها حتى تحققت بقيام الخلافة العباسية سنة(١٣٢هـ/٧٥٠م).

المبحث الثاني: تدخل النساء في شئون الحكم

لم يتوقف دور المرأة السياسي عند التهيئة للدعوة العباسية بل تعداه بعد قيام الدولة العباسية ككيان مستقل بذاته إلى تدخلها في شئون الدولة بالرغم من المحاذير الدينية والقيود الاجتماعية، وإن حُرمت بلوغ قمة السلطة فإنها لم تُحرم التأثير على مجريات السياسة في الدولة، وفي فترة الدراسة التي نحن بصددها يجب تقصي هذا التأثير في العصر العباسي الأول؛ كذلك العصر العباسي الثاني لتبيان أيهما كان أكبر قدرًا.

احتلت المرأة موقعاً مؤثراً في القصر العباسي، فهل اقتصر الأمر عليها، أم أصبح لها أتباعًا أو صاحبات مراتب فيه يقمن بدور ضمن إطار موقعهن كالقهرمانات وغيرهن.

إشكالية أخرى أجدها عندما أوجه نظري نحو المجتمع، هل قبل المجتمع تدخل النساء في شئون الحكم أم لا؟

ولذلك سوف تتمحور الدراسة حول:

١- مدى تدخل المرأة في شئون الحكم في العصر العباسي الأول وإلى أي مدى نجحت في ذلك؟

إن الدولة العباسية قامت بعد صراع طويل مع أعدائها حتى أضحت كيانًا مستقلاً قائمًا بذاته، ولعبت المرأة دورًا لا يستهان به في الدعوة العباسية، وشجعها نجاح الدعوة وقيام الدولة العباسية على أن تطمع في التدخل في شئون الدولة، لكن تدخلها كان محدودًا في العصر العباسي الأول لما امتاز به من قوة شخصية الخلفاء وسيطرتهم على أمور دولتهم، وضربهم بيد قوية كل من يحاول انتزاع السلطة من أيديهم[١].

---

(١) مثال ما فعله المنصور بأبي مسلم الخراساني= عنه ينظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير :تاريخ الرسل والملوك- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(القاهرة،١٩٧٩م)،٤٧٩/٧ وما بعدها.كذلك ابن الطقطقى،محمد بن على بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية (بيروت، بدون تاريخ)،ص١٦٨.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول،مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة،١٩٧٩م)، ص٦٠ وما بعدها.

وعن ما فعله المنصور مع الطالبيين «ذكر الطبري» أنه لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي ودفع لها مفاتيح الخزائن، ووكد الأيمان عليها ألا تفتح بعض تلك الخزائن إلا للمهدي ، بعد موته، فلما مات المنصور فتح المهدي الباب ومعه ريطة؛ فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلا الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ= عنه ينظر تاريخ الرسل ١٠٤/٨-١٠٥، وما فعله المنصور مع بني الحسن=ينظر ابن الطقطقى: الفخري، ص١٦٤-١٦٥، وما فعله الرشيد مع البرامكة = عنه ينظر المسعودي: مروج الذهب، ٣٨٧/٣.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٢٩٤/٨،٢٨٧، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر (بيروت، بدون تاريخ)، ١٦/٢، وما فعله المعتصم مع الأفشين عنه ينظر الطبري: تاريخ الرسل، ١١٤/٩،١١١.

وهذا التدخل يجعلني أقبل وأَجزم بدور المرأة في تدبير شئون الدولة، وذلك لأن الرجل لا بد له من أن يتأثر في بعض المواقف بالمرأة التي تقف إلى جانبه، وهذا أدى إلى بروز بعض النساء في بلاط الدولة العباسية من أمهات وزوجات وجواري كانت لهن سلطات غطت أحيانًا على سلطات الخلفاء أنفسهم، فأم سلمة[١] غلبت على السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٣م) حتى أنه كان لا يقطع أمرًا دون مشورتها[٢].

بيد أن الخليفة المنصور من بعده (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) أخذ حذره من النساء فلم يسمح لهن بالتدخل في شئون الدولة، بالرغم من أنه اشترط لزوجته أن لا يتزوج عليها، ولا يتسرى إلا بأمرها[٣]، ولكنه لم يسمح لها أن يتعدى سلطانها سلطانه[٤]، بل أنه نهى أبناءه عن مشاورة النساء[٥].

وقد يعود السبب في ذلك إلى استياء أبي جعفر المنصور من المرأة لأن خصومهم (الهاشميين) كانوا دائمًا يفخرون بأمهاتهم المفضليات، هذا الأمر الذي لم يكن يستطيعه خلفاء بني العباس؛ لأن جُلَّ أبنائِهم كانوا من الإماء[٦]، مما أدى بهم في بادئ الأمر إلى عدم الارتياح إلى المرأة وبروز دورها حتى يثبتوا لخصومهم أنهم رجال أشداء أقوياء[٧]. وربما يعود كبح المنصور بخاصة جماح المرأة إلى أن أمه أم ولد يقال لها سلامة وقيل بربرية[٨].

---

(١) أم سلمة زوجة أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية=الطبري:تاريخ الرسل، ٢٦/٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧٥/٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٨٦/٨.كذلك الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:المحاسن والأضداد- تحقيق فوزي عطوي (بيروت، ١٩٦٩م)، ص١٣٧.

(٤)صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، دار الحياة (بيروت،١٩٥٧م)، ص٧.

(٥) جاء في وصيته ما نصه: «وإياك والاستماع لمشورة النساء وأظنك ستفعل»= الطبري:تاريخ الرسل،٨ /١٠٤.كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الحياة (بيروت،بدون تاريخ)، ٣٥١/١.

(٦) الإماء: الجواري من الرقيق والعبيد=إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (بيروت،١٩٨٦)، ص١٢٣.

(٧) وقد ذكر الطبري نص الكتاب الذي عبر به المنصور عن ذلك وأرسله إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن هذا نصه «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فلقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضلّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء،ولا كالعصبة والأولياء؛ لأن الله جعل العمّ أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، قال جلَّ ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام: (واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبًا،وأصرحهم أما وأبًا ؛وأنه لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد= الطبري:تاريخ الرسل،٥٦٨/٧.كذلك واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي،دار الرشيد للنشر(بغداد،١٩٨١م)، ص٧٠-٧١.

(٨) المسعودي: التنبيه والإشراف (بيروت، ١٩٨١م)، ص٣١١.

ورغم حرص خلفاء العصر العباسي الأول على الحد من تدخل النساء في شئون الحكم، فإنهم استعانوا ببعضهن في التجسس خاصة في بداية قيام دولتهم، بل وصل الأمر ببعضهم إلى أن جعل لهن رواتب شهرية تُمنح لهنّ من الدولة مقابل معرفة الأخبار ونقلها، فقد استعان الخليفة المنصور بالحَجَّامات في عملية التجسس؛ لأنهن أقدر على الدخول إلى داخل البيوت، ومما يؤكد ذلك أنه قبض على أحد الجواري وأراد أن يعلم منها أخبار محمد بن عبد الله – أحد المعارضين للدولة العباسية– ومكانه، ولكنها رفضت الإجابة حتى أخبرها المنصور إن كانت تعرف حَجَّامَةً بعينها وذكر لها اسمها[(١)] وأغراها بما يغدقه عليها من أموالٍ حتى اعترفت الجارية بكل ما تعلم، خاصة وأنها تعلم بأن هذه الحجامة إحدى العيون التي يبثها المنصور لمعرفة الأخبار ويجري عليها راتب كل شهر من الدولة[(٢)].

ونهج الخليفة المأمون(١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م) نهج جد ابيه المنصور في الحد من تدخل النساء في شئون الدولة، إذ يتضح في عهد كُلٍّ من الخليفتين المنصور والمأمون أنه لم تبرز أسماء لنساء كان لهن دورُ مهمُ في تسيير شئون الحكم؛ لأن هذين الخليفتين لم يسمحا للمرأة بأن يتعدى دورها التجسس فقط لترسيخ قواعد الدولة العباسية، فقد استعان الخليفة المأمون بكثير من العجائز لهذه المهمة (التجسس) وكان له ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال الناس وأخبارهم فيمن يحبه ويكرهه أو يبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، حتى أنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى يسمع منهن أخبارهن[(٣)].

وكان لاستخدام المرأة في التجسس آثاره السلبية، منها المناداة بعزل المرأة، والنظر إليها بعين الشك والريبة.

أما بالنسبة لدور المرأة في التدخل في شئون الحكم فإنه كان أكثر وضوحًا على عهد الخليفة المهدي (١٥٨–١٦٩هـ/٧٧٤–٧٨٥م)، فأحرزت المرأة إبان عهده نفوذًا كبيرًا

---

(١) قال المنصور للجارية الصفراء: «أتعرفين فلانة الحجامة هي أمتي، ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أخباركم»= البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ (بيروت، ١٩٧٠م)، ص١٤٨.كذلك صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٩٠.

(٢) صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٩٠

(٣) المصدر نفسه، ص٩٣.

وخصوصًا زوجته السيدة الخيزران[١] بنت عطاء الجرشية، (نسبة إلى جرش في اليمن)، قد رآها والده المنصور في سوق الجواري واشتراها وأهداها إلى ابنه المهدي لكي تنجب له، فوقعت منه كل موقع وولدت له موسى الهادي وهارون[٢].

وكانت الخيزران امرأةً قويةَ الشَّخْصِيةِ تحُبُّ النفوذَ وتهوى السُّلْطَانَ ووجدت في أخلاقِ المهدي ما وافق طبيعتها، فكانت الآمَرةَ الناهيةَ[٣]، فقرَّبت من تشاء من رجال الدولة من الوزراء والعلماء والحجاب والأطباء وغيرهم وأبعدت من أرادت[٤]، فقد طلبت من المهدي إبعاد الطبيب بختشيوع بن جورجيس[٥] فأبعده بإرساله إلى جُنْدَيْسابور[٦]. كما أنها حابت كل من يتصل بها من الأقارب والأولياء، فمن ذلك ما فعلته مع أخيها الغطريف بن عطاء، فقد كتب الخليفة المهدي إلى عامل جرش في أشخاص الغطريف بن عطاء، وكان الغطريف غلامًا لرجل من أهل جرش فأعتقه، فحباه عامل المهدي وكساه وحمله إلى المهدي، فرفع منزلته، ثم ولاه على اليمن[٧].

وبلغ من نفوذ عطاء أنه كان يملك كثيرًا من الأملاك وكانت له طاقات[٨] عرفت باسمه – طاقات الغطريف– في الجانب الغربي من بغداد[٩]، ومما يؤكد منزلة الخيزران عند زوجها المهدي، أن الناس أدركوا هذه المنزلة، فكانوا يقصدونها للتوسط لدى المهدي

(١) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٧.كذلك الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (بيروت، بدون تاريخ)، ٤٣٠/١٤، السويدي، أبو الغور محمد أمين: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، المكتبة العلمية(بيروت، بدون تاريخ)، ص٨٥.

(٢)الجاحظ: المصدر السابق، ص١٣٨.

(٣) فقد وصفها ابن الطقطقى بقوله: «إن الخيزران كانت تأمر وتنهي وتشفع وتبرم وتنقض»= ابن الطقطقى: الفخري، ص١٩١.

(٤)صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٧.

(٥) بختشيوع هو الطبيب الخاص للخليفة هارون الرشيد، وأبوه هو جورجيس بن جبرائيل: طبيب سرياني الأصل، وهو أبو بختشيوع الطبيب رأس عائلة علمية عرفت بالطب والصيدلة في جُنْدَيسابور. كان رئيس الأطباء في مدرسة جندَيسابور في الأحواز، و عائلة بختشيوع من أشهر العوائل الطبية في العصر العباسي التي توارثت الطب جيلا بعد جيل=على شلق : العقل العلمي في الإسلام (طرابلس،١٩٩٢)، ص٤٢.

(٦) ابن القفطى، جمال الدين بن الحسن : أخبار العلماء بأخبار الحكماء (بيروت، بدون تاريخ)، ص٧١.

(٧) اليعقوبي،أحمد بن يعقوب بن واضح: تاريخ اليعقوبي (بيروت،بدون تاريخ)،٣٩٩/٢. كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري– ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي (القاهرة،١٩٥٧م)،٢٧٢/١.

(٨) الطاقات هي الحدائق المثمرة= محمد حسين: معجم المصطلحات الدخيلة، دار الفكر (بيروت،بدون تاريخ) ص٢٣٤.

(٩) الحموي:معجم البلدان، ٥/٤.

لقضاء حوائجهم فكان مقرها يعج بالناس رائحين وغادين.

ومن خلال اهتمام المهدي بزوجته حظيت بمنزلة رفيعة مكّنتها من التدخل والتصرف في بعض الأمور التي تتعلق بالدولة، فقد حدث أن استقبلت مزنة امرأة (مروان بن محمد)- آخر الخلفاء الأمويين- عندما لجأت إليها فأحسنت استقبالها وأكرمت وفادتها(١). بالرغم من أنها زوجة أحد أعداء الدولة العباسية.

ولم يتوقف دور الخيزران عند التدخل في شئون الحكم بموت زوجها المهدي، بل استمر هذا الدور في حياة ابنها -الهادي- وبما أن السيدة الخيزران كانت على درجة كبيرة من الدهاء والحنكة، فقد تدخلت في احتواء فتنة الجند عندما مات المهدي، وكان ابنه الهادي غائبًا بجرجان، فقام الرشيد بالبيعة حتى يأمن شغب الجند بالمطالبة بزيادة في الرواتب، وغيرها من المطالب، وقد اختلفت الآراء في حجم هذه الفتنة(٢)، وكان لتدخل الخيزران في الوقت المناسب أثره الكبير في احتواء فتنة الجند والقضاء عليها حيث أمرت بجمع الأموال وإعطاء الجند لسنتين(٣).

ولاعتياد الخيزران الأمر والنهي في عهد المهدي، حرصت على إتباع نفس السياسة في خلافة ابنها الهادي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) خاصة وأنه كان في بداية عهده بالسلطة كَثِيرَ اللهو، ولا يقيم للخلافة أَيَّ عَظَمَةٍ ولا أبهة(٤)، ولكن الهادي كان كغيره من خلفاء العصر العباسي الأول الذين امتازوا بقوة الشخصية، فقد كان صعب المراس، سيئ الظن بالآخرين، شديدة الغيرة على حرمه(٥)، وبسبب ذلك بدأت الجفوة بين السيدة التي تريد السيطرة على كل شيء وبين ابنها الذي أراد الحد من تدخل النساء في شئون الدولة،

---

(١)الحموي:معجم البلدان، ٣/٣٢٤.

(٢) فقد ذكر صاحب كتاب المؤلف المجهول: «أن الهادي كان يوم موت أبيه -المهدي- غائبًا بجرجان فقام الرشيد ببيعته، وقد اجتمع القواد، ووجوه الموالي إلى هارون الرشيد فقالوا: إن علم الجند بوفاة المهدي لم تأمن الشغب، والرأي أن تنادي في الجنود بالقفول إلى بغداد، ويحمل المهدي إلى بغداد ويواري بها بحيث لا يعلم موته. فاستدعى هارون يحيى بن خالد البرمكي فقال: يا أبي ما تقول فيما يقول هؤلاء قال: لا أرى ذلك لأن هذا لا يخفى، ولا آمن إذا علم الجند، أن يتعلقوا بمحمله، ويقولوا: لا نخلي حتى نعطي لثلاث سنين، ولكني أرى أن يوارى رحمه الله هاهنا وتوجه إلى الهادي بالقضيب والخاتم والبردة والتهنئة والتعزية وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين وتنادي فيهم بالقفول إلى بغداد»= العيون والحدائق في أخبار الحقائق (بغداد، بدون تاريخ)، ٣/٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٤) السيوطي،جلال الدين أبو الفضل:تاريخ الخلفاء- تحقيق محمد محي الدين(القاهرة،١٩٥٢م)، ص٢٧٩.

(٥) الجاحظ:التاج في أخلاق الملوك- تحقيق احمد زكى باشا (القاهرة، ١٩١٤م)، ص٣٥.

فكان الهادي ينهر والدته ويأمرها بأن تلتزم مغزلها ومصحفها[١]، كما حذر كُلَّ من يحاول الاتصال بها لتشفع له في حاجة أو تقضيها له،وبالرغم من ذلك كان الهادي في بداية خلافته كثير الطاعة لها ويجيبها فيما تسأله من الحوائج[٢]، ولعل سبب ذلك حرصه على أن يمكّن لنفسه السلطان أول الأمر.

حينذاك حاولت الخيزران الانتقام من ابنها الهادي، فسعت إلى قتله بالاستعانة ببعض جواريها حيث أمرتهن بتغطية وجهه والجلوس فوقه فقتلنه بتحريض منها[٣].

ولعل ما جعلها تُعجِّل بالتخلص من الهادي علمها بأنه أراد خلع أخيه من ولاية العهد ليجعلها لابنه جعفر[٤]،وخاصة أَنَّ كثيراً من المؤرخين قد وصفوا الخيزران بأنها حاكمة مستبدة بالأمور[٥] بالرغم من أن الكثير يرفض أن تكون الأم قاتلة، فيستبعدون قتل الخيزران لابنها الذي منعها من التدخل في شئون الحكم[٦].

ولعل أن الخيزران قتلت الهادي حتى تواصل التدخل في شئون الدولة على عهد ابنها الرشيد إذا ما ولي الخلافة، خاصة وإنها باتت صاحبة الفضل عليه في ذلك؛ لذلك كان الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) مطيعًا لها لا يعصى لها أَمراً فكانت تأمره ويطيع أَمْرَهَا[٧]، وأصبحت الخيزران في عهد ابنها الرشيد هِيَ الناظرةَ في الأمور، وكان يحيى بن خالد البرمكي[٨] يَعْرِضُ عليها أُمُوْرَ الدولة، ويصدر الأوامر عنها[٩]، فكانت

---

(١) فقد قال لها ذات يوم ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم؟ أمالك مِغْزَلٌ يَشغلك، أو مُصْحَف يذكرك، أو بيت يصونك؟= الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٦/٨. كذلك ابن الأثير، عز الدين أبى الحسن بن أبى الكرم: الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٨٠م)، ٧٩/٥.

(٢) إذا وقف أحد من قُوَّادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربنَّ عنقه، إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمّي=المسعودي:مروج الذهب ٣٣٧/٣.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٦/٨.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة،بدون تاريخ)، ٦٤/٢. كذلك ينظر كارل بروكلمان:تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الملايين (بيروت،١٩٨٤م)، ص١٨٥.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، ٣٤٢/٣.

(٥) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ٦٤/٢.

(٦) فقد قال لها ما نصه: «قد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك، ولم أكن عاقًا بل كنت صائنًا بارًا واصلاً»= المسعودي:مروج الذهب، ٣٤٣/٣.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٢٨/٨.

(٨) كان يحيى بن خالد البرمكي مسؤولاً عن تربية الرشيد، أما زوجته فقد أرضعت الخليفة هارون الرشيد، وقد قام يحيى بن خالد على أمر وزارة الرشيد وقد فوضه الرشيد بكل الأمور، أما الفضل بن يحيى بن خالد فقد كان أخو الرشيد من الرضاعة ووكله على تربية ابنه الأمين = كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢١٣.كذلك شوقي خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء واجلّ ملوك الدنيا،دار الفكر(دمشق،١٩٩٦م)، ص٢٣٢.

(٩) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل: البداية والنهاية (بيروت،١٩٨٧م)، ١٦١/١٠.

تبرم وتحل وتمضي وتحكم في كثير من أمور الدولة، وترتب على تدخل الخيزران في شئون الحكم أن خفت جبهة المعارضة للرشيد إذ طالبت المعارضة بخلعه أول عهده، فقد أمرت الخيزران يحيى بن خالد البرمكي أن يرضي كل من يعارض خلافة الرشيد في جبهة القتال حتى تتخلص منهم[١]،كما لعبت الخيزران دورًا كبيرًا في الصراع القائم بين الفرس والعرب في خلافة الرشيد إذ وثّقت صلاتها بكثير من الأسر الفارسية حتى أنها وَلت يحيي بن خالد البرمكي كثيراً من أمور الدولة[٢]،رغم أن الرشيد مال إلى تولية الفضل بن الربيع[٣]– وهو عربي– بعض أمور الدولة. وبعد وفاة الخيزران سنة (١٧٣هـ/٧٨٩م) تنفس الرشيد الصعداء من سيطرتها على أمور الدولة، وولى الفضل بن الربيع ديوان الخاتم فضلا عن بعض شئون الدولة الأخرى[٤].

وَعَبَّرَ خلفاءُ العصر العباسي الأول صراحة عن استيائهم من محاولة تدخل بعض نسائهم في أمور الدولة وخاصة أمهات الخلفاء، لاعتقادهم أن أكثر المنازعات التي تحدث في بلاط الدولة نجمت عن تدخل أمهاتهم في أمور الحكم، حتى وصل الأمر عندهم أن الخليفة كان ينتخب أحيانًا لأنه لا أم له حتى تستقيم في نظرهم أمور الدولة وتستقر[٥].

وتدخلت زوجات الخلفاء في شئون الحكم في العصر العباسي الأول إلا أنه لم يكن تدخلاً سافرًا ومباشرًا بسبب أن خلفاء ذلك العصر ضربوا بيد قوية كل من تُخَوِّلُ له نفسه التدخل في أمور الدولة –كما سبقت الإشارة– خاصة النساء حتى أنهم حذروا من الاستماع لمشورتهن والإصغاء إليهن والأخذ برأيهن[٦].

لذلك بات تدخل زوجات الخلفاء في العصر العباسي الأول محدودًا جدًا. فالسيدة «زبيدة» زوجة الخليفة هارون الرشيد،لم يكن تدخلها تدخلاً نابعًا من حب السيطرة

---

(١) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب(القاهرة،١٩٨٠)، ص١٧٨.

(٢) المصدر والصفحة نفسها.

(٣) أبو العباس الفضل بن الربيع، حاجب الرشيد وهو الذي قام بأعباء الدولة في خلافة الأمين، ثم اختفى بعد قتل الأمين لأنه يقال أنه هو الذي أوحى للأمين خلع المأمون من ولاية العهد، وكانت وفاة الفضل بن الربيع في ذي القعدة سنة ثمان ومائتين، وعمره ثمان وستون سنة=ينظر ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان،(بيروت،١٩٦٨م)، ٣٧/٤. كذلك الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت، ١٩٧٩م)، ٢٠/٢.

(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص١٧٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠١.

(٦) المسعودي: مروج الذهب، ٨٦٣/٣.

والمباهاة،ولتنال المكانة العالية بالمجتمع، والغالب على الظن أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك، فمعلوم أنها سيدة هاشمية تعتز بعروبتها وانتسابها إلى البيت الهاشمي، فبوأها ذلك مركزاً عليًا، وقد اقتصر تدخلها في أمور الدولة على ناحيتين: الأولى كسر شوكة الفرس في الصراع القائم بينهم وبين العرب، فكانت بذلك على نقيض الخيزران التي ناصرت العنصر الفارسي، والناحية الأخرى فيما يتعلق بولاية العهد، إذ أوعزت إلى الخليفة هارون الرشيد بتولية ولدها محمد الأمين الخلافة بدلاً من المأمون؛ لأن أم المأمون فارسية، وفي هذا دليل على حنكة السيدة زبيدة السياسية وبُعد نظرها في الحدِّ من سيطرة التيار الفارسي، خاصة بعد أن استفحل أمرهم وقوى سلطانهم حتى أنها كانت تُحَرِّض الرشيد على القضاء عليهم[١].

وبلغ من حرص السيدة زبيدة على توليه ابنها ولاية العهد أن الرشيد عهد له بالولاية وهو ابن خمس سنين[٢]،لأنها كانت تعلم أن الرَّشيدَ نَفْسَهُ كان لا يزال تحت تأثير الفرس بالرغم من حرصه على إقرار الحقَّ في ولاية العهد، وتعليقه لكتاب العهد بين الأمين والمأمون في الكعبة[٣].

ومما يؤكد أن السيدة زبيدة كان لها تأثيرها القوي في توليه ابنها الأمين ولاية العهد أن الرشيد كان قلقاً من ذلك رغم عِلمه بميل بني هاشم إلى محمد (الأمين) بأهوائهم، ويبين ذلك وصفه للأمين بأنه منقاد إلى هواه يشارك النساء والإماء في رأيه، فضلاً عن ميل الرشيد لتولية المأمون[٤].

ولعل سبب ذلك أن المأمون امتاز بالحنكة السياسية في تدبير الأمور[٥]، بيد أن زبيدة ظلت دائمًا تعترض على تولية المأمون أي من أمور الدولة، فقد اعترضت على الرشيد حينما ولى الأمين العراق بينما ولى المأمون أمور الجيش والقواد[٦].

---

(١)المسعودي: مروج الذهب، ٣٦٤/٣.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٩٠.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٧٥/٨.
(٤) المسعودي: مروج الذهب، ٨٦٣/٣.
(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٦) فقد قالت السيدة زبيدة للرشيد ما أنصفت ابنك محمداً حيث وَلَّيْته العراق وأَعْرَيته من العمد والقواد، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه، فقال لها: وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال؟ إني وَلّيت ابنك السِّلْم،وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحْوَجُ إلى الرجال من المسالم»= المسعودي: مروج الذهب، ٨٦٤/٣.

وما دام تدخل السيدة زبيدة في أمور الدولة نابعاً من الوقوف في وجه سيادة التيار الفارسي، فأنها لم تكتف بتدخلها في أمور ولاية العهد، والتي كانت تعلم أن من وراء ذلك يحيى البرمكي وغيره في التأثير على الرشيد، فنجد أنها حرضَّت الرشيد للقضاء على البرامكة وعملت على الوقيعة بين الرشيد ويحيى البرمكي، فادعت وجود علاقة بين جعفر بن يحيى البرمكي[١]، وبين العباسة أخت الرشيد خاصة أن الرشيد عرف بميله إلى يحيى البرمكي حتى أنه ولاه على حرمه[٢].

ويجب الإشارة إلى أن تدخل السيدة زبيدة في أمور الدولة من تولية العهد والحد من سيطرة الفرس نم عن حسن تصرف في الأمور السياسية، فقد حاول الكثيرون إقحامها في الصراع القائم بين الأمين والمأمون، وبعد مقتل ولدها أيضاً حين طلبوا منها أن تخرج لتأخذ بثأر ابنها الأمين عندما قُتل، كما خرجت عائشة تطلب دم عثمان، ولكنها رأت أنه ليس للنساء التدخل في طلب الثأر ومنازلة الأبطال[٣]، حتى لا يزيد الفتنة اشتعالاً، ومما يدل على بعد نظرها وحسن تصرفها أيضاً ما أوصت به على بن عيسى بن ماهان[٤]، عندما شخص لحرب المأمون، إذ أوصته الرفق بالمأمون إذا ما قبض عليه، لأن على هذا كان ينفذ كلامها وينصاع لأوامرها[٥]، وفي هذا دليل على علو مكانتها السياسية في البلاط العباسي، ويؤكد حسن تصرف هذه السيدة ودريتها السياسية وبُعد نظرها، أنه لما تولى المأمون الخلافة بعثت إليه تهنئة بذلك[٦].

وفي إطار الحديث عن دور المرأة السياسي في العصر العباسي الأول لا يمكن

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٢٦٤/٣، الطبري: تاريخ الرسل، ٢٩٤/٨.

(٢)المصدر نفسه، ٣٨٦/٣.

(٣)المصدر نفسه، ٤٢٣/٣.

(٤) على بن عيسى بن ماهان: هو أحد القادة الكبار في عهد الرشيد والأمين، وهو من حرض الأمين على خلع أخيه المأمون= عنه ينظر الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٣٠٩/١.

(٥) فقد أوصته بقولها: «يا على، إن أمير المؤمنين وان كان ولدي؛ إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فأني على عبد الله منعطفة ومشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، فأعرف لعبد الله حق والده وأخوته، ثم دفعت إليه قيدًا من فضة، وقالت: أن صار في يدك فقيده بهذا القيد، فقال لها: «سأقبل أمرك وأعمل بطاعتك»= الطبري: تاريخ الرسل، ٤٠٥/٨-٤٠٦.

(٦) كتبت إليه ما نصه: «أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابنًا خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك. وأنا اسأل الله أجرًا على ما أخذ، وامتناناً بما عوض»= ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٦/٢.كذلك الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤-٤٣٤.

إغفال دور السيدة زينب بنت سليمان[١]، وهي من ربات النفوذ والسلطان والعقل والفصاحة في العصر العباسي، وكانت هذه السيدة معروفة بكراهيتها الشديدة للأمويين، ولذلك وقفت موقفًا صارمًا من مزنة زوجة مروان بن محمد، ووفدت إليها؛ لأن مزنة هذه قد رفضت أن تشفع في خلافة زوجها في إبراهيم بن محمد (الإمام)، وكان لهذه السيدة دور كبير في تغيير لون شعار الدولة، وهذا ليس بالأمر الهين، إلا إذا كانت المرأة لها من المكانة العالية الشيء الكثير. فقد نفذ المأمون طلبها وأعاد اللون الأسود (شعار العباسيين) بعد أن كان قد غيره إلى الأخضر، وبلغ من علو مكانة هذه السيدة أنها كانت تدخل إلى دار أمير المؤمنين (المأمون) بدون استئذان وكان يرفع الستر إليها[٢].

هذه الأمور قد تكون عند البعض أمراً عادياً لكنها في المجتمع العباسي تعتبر من الأمور التي لها وزنها من حيث المكانة العالية والسمو خاصة لامرأة كالسيدة زينب بنت سليمان.

وترى الباحثة أنه لابد من الإطلاع على دور المرأة العامة والجواري وغيرهن من النساء في العصر العباسي الأول، وإن ضنت علينا المصادر في ذلك، إلا أنه من الملاحظ أنه لم يكن لهن دورُ مباشرُ في الناحية السياسية، وإنما اقتصر دورهن على الشفاعات في تولية منصب من المناصب،كما فعلت ذلك الجارية (ذات الخال) عندما طلبت من الخليفة الرشيد أن يولي (حمويه) – وهو وصيف عند الرشيد– الخراج والحرب بفارس لمدة سبع سنين فلبى الرشيد طلبها[٣].

وبلغ الأمر عند بعض الجواري والقيان[٤] ممن لهن سلطان في بلاط الدولة أنهن كن يتعصبن لطائفة سياسية أو يشايعن مذهبًا، ومنهن (فضل) الشاعرة التي تعصبت وشايعت طائفة من الناس[٥]، ويبدو أيضاً أن دور المرأة في العصر العباسي الأول لم

---

(١) الهمذاني،أبو الحسن محمد:تكملة تاريخ الطبري– تحقيق محمد بن أبى الفضل إبراهيم (القاهرة، ١٩٧٩م)، ص٢٣١–٢٣٢.كذلك عمركحالة: أعلام النساء،مؤسسة الرسالة (بيروت،١٩٨٢م)، ٦٩/٢.

(٢)الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٤/١٤.كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٧٠/٢.

(٣) الأصفهاني، أبوالفرج على بن الحسن: الأغاني– تحقيق إبراهيم الابيارى (القاهرة،١٩٦٩م)، ١٧٨/٩. كذلك فايد العمروسي: الجواري المغنيات، دار المعارف (القاهرة،١٩٦١م)، ص١٣٠.

(٤) القيان: جمع قَيْنَة وهي الجارية المغنية= محمد حسين: معجم المصطلحات الدخيلة، ص٢٣٤.

(٢) ذكر ابن المعتز «أن فضلا الشاعرة كانت تتشيع وتتعصب لجماعة من الناس وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف»= طبقات الشعراء – تحقيق عبد الستار احمد فراج (القاهرة،١٩٦٨)، ص٤٢٦. كذلك صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلفاء، ص١٠.

يتعدَ نقل المراسلات بين الأمراء وغيرهم وخاصة في بعض المواقف التي تفاقمت فيها الخلافات، فعندما قام خلاف بين الأمين والمأمون، لعبت المرأة دورًا مهمًا؛ إذ نقلت الكتب بين الفريقين المتخاصمين[١].

ومن الملاحظ أن دور المرأة السياسي في العصر العباسي الأول لم يمس صميم سياسة الدولة، فلم نسمع عن أسماء سيدات كانت لهن السلطة في عزل أو تعيين الخلفاء والوزراء مقارنة بالدور السياسي الذي لعبته المرأة في العصر العباسي الثاني(٢٣٢-٣٣٤هـ/٨٤٦-٩٤٥م).فقد أثرت السيدة قبيحة زوجة المتوكل(٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) في تيسير الحوادث ببغداد،ومعلوم أن عهد المتوكل بداية ضعف الدولة العباسية فكانت زوجته تشرف على شئون الدولة وتشترك في تدبير الحكم[٢]، وتتدخل في تعيين ولاة العهد، ففي سنة(٢٣٥هـ/٨٤٩م) ولى المتوكل العهد لأبنائه حسب الترتيب الآتي: المنتصر، ثم المعتز،ثم المؤيد، ولكن (قبيحة) تدخلت في ذلك لأنها تعلم أن المتوكل يميل إليها أكثر من نسائه الأخريات ليقدم ولدها المعتز على بقية أبنائه[٣]؛ فنجم عن ذلك أن دبر المنتصر مع قادة الأتراك مؤامرة لقتل والده المتوكل[٤]، وفي ذلك تبيان لمدى تسلط الأتراك، وتدخل النساء في القصر، وعندما حاول المنتصر الانتقام من قتلة أبيه[٥]، تآمروا على قتله بالاتفاق مع طبيبه ابن طيفور الذي دس له السم وهو في السادسة والعشرين من عمره لم يل الخلافة اصغر منه من قبل [٦].

واختار الأتراك المستعين(٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م)[٧]، فتسلطت أمه على أمور الدولة، لأن المستعين من الخلفاء الذين لم يكن لهم حل ولا عقد لأنه اختير دون إرادته[٨]،

---

(٣) ذكر الطبري ذلك بقوله «وقد كان الفضل بن سهل قد دسَّ قومًا اختارهم ممن يثق بهم ليكاتبوه بالأخبار يوماً عندما همَّ محمد الأمين بخلع المأمون، وكان الفضل بن الربيع قد شدد المراقبة بأخذ المراصد لئلا تنقل الكتب، فكتب الرسول مع امرأة وكانت المرأة تمضي على المسالح من قرية إلى قرية فلا تفتش»= الطبري: تاريخ الرسل، ٨/٣٨٥-٣٨٦.

(٢)الحنبلي: شذرات الذهب، ٢/١١٤. كذلك على إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، دار النهضة (القاهرة، ١٩٦٥)، ص٩٣.

(٣) الحنبلي: شذرات الذهب، ٢/١١٥.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٥/٢٨٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ٥/٣٠٣.

(٥) فقد وصف المنتصر الأتراك بقوله «هؤلاء قتلة الخلفاء»= ابن الأثير: المصدر السابق، ٥/ ٣٠٩.كذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ٥/٣١٠.

(٧) ابن الأثير:الكامل، ٥/٣١٣.كذلك جرجي زيدان، ٢/٤٦٠.

(٨) ابن الطقطقى: الفخري، ص٢٤٠.

ومعلوم أن والدته (صقلية الأصل) فاستبدت بتدبير أمور الحكم، وأطلق المستعين يدها مع اثنين من قواد الأتراك هما (أتامش) و(شاهك) الخادم في أموال الدولة التي ترد إلى بيت المال، فصار حفظها في يد هؤلاء، ومن ثم بات المستعين ألعوبة في يد والدته والأتراك[١]، ولم تستكن قبيحة أم المعتز؛ وإنما لعبت دوراً كبيراً ليعتلي ابنها المعتز كرسي الخلافة، ودبرت الدسائس والمؤامرات لإبعاد المستعين عن الخلافة حتى حققت بغيتها وتولى المعتز الخلافة (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م)[٢]، له من العمر تسع عشرة سنة[٣].

ومن المؤامرات والدسائس التي حاكتها قبيحة لتمكين ابنها من الاستمرار في حكمه[٤]؛ خاصة وأن الأتراك أصبحت لهم اليد الطولي في تعيين وعزل الخلفاء، أنها استعانت بالأتراك- الذين أخبروها أن أمور الخلافة لا تستقر لولدها مع بقاء المستعين على قيد الحياة- في تدبير أمر التخلص من المستعين حتى لا يكون للمعتز منافس، وأرسل قادة الأتراك سعيد الخادم -أحد حجاب القصر- في شرذمة من الجند إلى بلدة واسط[٥]؛ حيث يوجد المستعين فتولى قتله[٦]، وكذلك أشارت السيدة قبيحة على أبنها بقتل أخيه المؤيد[٧]، وهذه الأمور تؤكد سيطرة أمهات الخلفاء على زمام الأمور في بلاط الدولة.

لقد اندلعت الصراعات بين أمهات الخلفاء، ووضح ذلك بين أم المعتز ووالده المؤيد، في محاولة كل منهما إبقاء أو توصيل أبنائها إلى منصب الخلافة[٨]. بيد أن محاولات السيدة قبيحة باءت بالفشل لإبقاء ابنها في منصب الخلافة، إذ لم يُقدر له البقاء فيه

---

(١) وقد وصفه أحد الشعراء بقوله:

خَلِيفَــــةٌ فــــي قَفَـــصٍ ... بَـــين وَصِــــيفِ وَبُغَـــا

يَقُـــولُ مَـــا قَـــالاَ لَـــهُ ... كَمَـــا يَقُـــولُ البَبَّغَـــا

=ينظر المسعودي: مروج الذهب، ١٤٥/٤. كذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٨٧.

(٢) ابن الطقطقى: الفخري، ص٢٤٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٩.

(٤) ابن الطقطقى: الفخري، ص٢٤٣.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ٣٤٧،٣٥٣/٥.

(٦) ابن الطقطقى: الفخري، ص٢٤١.

(٧) البيروني، أبو الريحان محمد بن احمد: الجماهر في معرفة الجواهر، (حيدر أباد الدكن، ١٣٥٥هـ)، ص١٥٨. كذلك صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص٦٠.

(٨) ومما يؤكد هذا الصراع ما ذكره البيروني «بعثت أم المعتز قبيحة بسبحة إلى أم المؤيد قيمتها أربعة آلاف دينار وقالت لها: سبحي بها يا أختاه فسحقتها أم المؤيد في الهاون ولفتها في كاغد وردتها إلى حاملتها وقالت لها: اقرئي عني أختي السلام وقولي لها: التسبيح لا يذهب بمجزرات الدماء»= البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص١٥٨.

طويلاً؛ لأن الدولة كانت قسمة بين الأتراك والنساء وليست دولة الخلفاء، فما لبث الأتراك أن قبضوا عليه وعذبوه عذابًا شديدًا؛ فسحل وضرب بالدبابيس ومزقت ثيابه، وأقاموه في الشمس، حتى أنه كان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة الحر، وأجبر على خلع نفسه من الخلافة، واشهدوا على ذلك جماعة أشهرهم صالح بن وصيف وبعد ذلك خنقوه في الحمام[١].

وكان بوسع السيدة أم المعتز إنقاذ ولدها ولو إلى حين، بيد أنها وقفت موقف المتفرج إذ رفضت أن تدفع للمتمردين[٢]، الذين تأخرت رواتبهم خمسين ألف دينار، بالرغم من أنها تملك ثروة طائلة أخفتها بعد مقتل ابنها قدرها ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار عدًّا وكثيرًا من الجواهر والحلي التي لا تقدر بثمن[٣]، وسبق حدوث الموقف في العصر العباسي الأول عصر قوة الخلفاء؛ فكل من السيدتين الخيزران وقبيحة عرضت ابنيهما للقتل وان اختلفت الطريقة، إذ قتل الأول الجواري، أما الثاني فقتله الأتراك، أما الحافز وراء ذلك فواحد في اعتقادي وهو حب السيطرة والتسلط على الأمور في بلاط الحكم والدولة، وقد يعود ذلك إلى تزوج الخلفاء بنساء دون مبالاة بأصلهن.

ويتضح من خلال ذلك أن نساء العصر العباسي الثاني تدخلن في شئون الدولة، مما أدى إلى ضعف الدولة وحرمانها من رجالها الأكفاء لسيطرة الأتراك من جهة، ولضعف الخلفاء من جهة أخرى.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ٣٤٢/٥. كذلك الحنبلي: شذرات الذهب، ص١٣٠.

(٢) المتمردين: هم جماعة من الأتراك قالوا للمعتز أعطنا أرزاقنا فطلب من أمه مالاً فلم تعطه، وكانت ذات أموال عظيمة، ولم يكن في خزائن الدولة شيء حينئذ فأجمعوا على خلعه؛ فلبسوا السلاح وأحاطوا بدار الخلافة، فأرسل إلى والدته لكنها رفضت بادعائها أنها لا تملك شيئاً»= ينظر ابن الأثير: الكامل،٣٤١/٥-٣٤٢. كذلك الحنبلي: شذرات الذهب، ١٣٠/٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٣٤٤/٥. كذلك البيروني:الجماهر، ص٦٧.

المبحث الثالث: دور المرأة في أحزاب المعارضة

لَقَدْ لَعِبَتِ المرأَةُ دورًا لا يستهان به في العصر العباسي بتدخلها في شئون الحكم وإدارة الدولة، ومعلوم نجاح بعض النساء في تأدية دورها نجاحًا كبيرًا، بحيث لم يعد للخلفاء من السلطة نصيب سوى الاسم فقط، ولم تحسن أخريات القيام بدورها، فأسهمت بقدرٍ ما في إضعاف الدولة، وبديهي أَن تَدَخُلَ النِّسَاءِ، ثم تسلطها على رجال البلاط مع ضعف الخلفاء يعد أحد أسباب شيوع الفوضى والاضطراب الذي عَمَّ الدولة، وترتب عليه استياء الجماهير في بغداد، إذ لم تعد تأمن على أموالها وحياتها، وعبر هذا الاستياء عن نفسه في شكل معارضة.

ويحاول هذا المبحث تحديد مدى مشاركة المرأة في بغداد للرجل في هذه المعارضة ومن نافلة القول، التذكير بإغفال المصادر المعاصرة لدور المرأة في أحزاب المعارضة، ورغم ذلك عَمَلْتُ على تقصي أحوال المعارضة في العصر العباسي الأول وكذلك الثاني، ومتابعة أشكالها، لعلي أستطيع من خلال ذلك إعطاء صورة لدور المرأة في هذا المعارضة، ومن ثم تحتم خوض الموضوع استنادًا إلى المحاور الآتية:

١- تبيان بعض حركات المعارضة في بغداد.

٢- التركيز على إبراز دور المرأة من خلال هذه المعارضة.

٣- مدى نجاح المرأة في هذا الدور وقدر إسهامها.

تأثرت حركات المعارضة الخارجية التي اندلعت في العصر العباسي من صُفْرية[١] وإباضية[٢] وغيرهما من فرق الخوارج -والتي أستطيع أن أطلق على هذه الحركات اسم ثورات ومن الثابت -كما سبق وأسلفتُ- أن معظم خلفاء العصر العباسي الأول اهتموا بشئون دولتهم حتى تظل على قوتها، وانصب اهتمامهم على اختيار ولاتهم، فاختاروا ذوي الكفاءة والحنكة السياسية والدراية الإدارية، ليستطيعوا السيطرة على مناطق نفوذهم وبسط سلطان الخلافة عليها، فقامت سياسة المنصور على أساس الاحتفاظ بالمغرب[٣]، وأولى

---

(١) الصفرية فرقة من فرق الخوارج، تنسب إلى عبد الله بن الأصفر، وهو من زعمائهم= عامر النجار: فرق الخوارج، دار المعارف (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص١٢٣.

(٢) تنتسب فرق الإباضية من الخوارج إلى عبد الله بن أباض التميمي،وهو أحد زعماء الخوارج= عامر النجار: الخوارج، ص١٢٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٤٠،٤٧/٥.كذلك محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص٩٧.

الخليفة هارون الرشيد المغرب اهتماماً كبيراً، وإبان عن ذلك حرصه على اختيار ولاته على المغرب من ذوي «الخداع، والدهاء،والغدر»[١]، ونجح الولاة في تحقيق بغيته وحافظوا على إفريقية خاضعة لسلطة الخلافة العباسية بعد أن كادت تسقط في أيدي الخوارج[٢].

ومعلوم أن حركات الخوارج[٣] لم يكتب لها النجاح –أول أمرها– بسبب تفشي الخلافات داخل جماعتهم، كالاختلاف في المبدأ،والرأي، وما نجم عن ذلك من انقسامهم، وبالتبعية ضعف قوتهم[٤].

فعلى الرغم من أن ثوراتهم ضد السلطة نادت بإقامة العدل وتحقيق المساواة، وانتخاب الأفضل لمنصب الخلافة[٥]، فإن خلافاتهم سببت انقسامهم إلى فرق متعددة منها الأزارقة والصفرية والإباضية وغيرها، وتشعبت الخلافات حتى شتت شمل المذهب، وانقسم الخوارج إلى أكثر من عشرين فرقة[٦].

والراجح أن للمرأة دوراً في هذه الحركات، وإن لم يرد إلا لماماً، فقد لعبت دوراً في الحركة الإباضية[٧]، وإن أنكر بعض مؤرخي الإباضية ذلك[٨]، فقد أبدت المرأة مقدرة كبيرة على تحمل مسئولية المشاركة في هذه الحركة، وأكدت قدرتها على حفظ أسرارها وكتمانها[٩]، فمعلوم أن زعماء الإباضية عمدوا إلى الأساليب السرية في دعوتهم وتنظيمهم

---

(١) ابن الطقطقى: الفخري، ص١٩٣ وما بعدها. كذلك محمود إسماعيل: الخوارج، ص٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ص١٢١.

(٣) عن الخوارج ينظر الشهرستاني: الملل والنحل،١/١١٤-١١٥.كذلك محمود إسماعيل: الخوارج، ص٢٤-٢٥، وعامر النجار: الخوارج، ص١١-١٢

(٤) محمود إسماعيل: الخوارج، ص٢٧.

(٥) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي،دار الطليعة (بيروت، ١٩٨٢م)،ص٤٨.
وقد ارتضى الخوارج لمنصب الخلافة أي شخص عارف بالكتاب والسنة= ينظر عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (القاهرة،١٩٦٣م)، ص٢٦، كذلك البشبيشي،محمود: الفرق الإسلامية (القاهرة، ١٩٣٢م)، ص٦٦، على عكس أهل السنة الذين اشترطوا أن يكون الخليفة من قريش= ينظر الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (أنقرة،١٩٦٢م)، ص٢٣٧.كذلك الماوردي، أبو الحسن على: الأحكام السلطانية والولايات الدينية (القاهرة،١٩٦٠م)، ص٦، أما الشيعة فقد قصروا الخلافة على نسل علي بن أبي طالب= راجع عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (القاهرة،١٩٧٣م)، ١/٥١.

(٦) عن فرق الخوارج= راجع الشهرستاني: الملل والنحل، ص١١٤.

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل، ١/١٣٤.

(٨) أبو زكريا، يحي بن أبى بكر: السيرة وأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية،رقم (٩٠٣٠ح)، ورقات ١١،٨.

(٩) مهدي هاشم: الحركة الإباضية في المشرق العربي،رسالة ماجستير (بغداد،١٩٧٧م)، ص٨٣-٨٤.كذلك واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي،ص٦٩.

السياسي، فاحتاج ذلك إلى النساء، بوصفها أقدر على التخفي والتستر في نقل الرسائل، وأن تكون حلقة وصل بين أفراد التنظيم، ورغم التكتم الذي غلف الدعوة الإباضية في البصرة، وبقاء تنظيمها السري قائمًا، وتداول رؤساء المذهب جيلاً بعد جيل، فإن الحركة عانت من بطش العباسيين الذين كالوا الضربات للخوارج في المشرق[١].

ومن ثم أرسل زعماء المذهب الأباضي في المغرب بعوثهم للدراسة على مشايخ البصرة، واستمدوا منهم الكتب والتآليف، وخاصة ما يتعلق منها بالمذهب[٢].

وحققت المرأة الإباضية درجة من المعرفة السياسية نتيجة الإعداد والدروس التي تعلمتها على يد مشايخ الدعوة، فقد كان جابر بن زيد –أحد أعلام الإباضية– يزور الإباضيات بهدف تعليمهن، فكن يسألنه في أمور الدعوة وأسرارها فيجيبهن[٣]، ونجم عن هذا الإعداد الذي تلقته المرأة في الخلايا السرية، إذ تجمعت نساء الإباضية في بيوت النسوة العجائز دفعًا للشبهة[٤]، وهروبًا من رقابة رجال الدولة العباسية، فضلاً عما استوعبته المرأة الإباضية من دروس فكرية في المجالس الثقافية، أن تمكنت من المشاركة في خوض المعارك الحربية إلى جانب الرجل الإباضي[٥].

وبديهي أن تشارك المرأة في أحزاب المعارضة المذهبية الأخرى من خارجية وشيعية، وقد اقتنعت المرأة بالمبادئ والشعارات التي نادى بها قادة هذه الحركات من إقامة العدل، والعمل على إصلاح الأحوال المتدهورة في الدولة، ومن أشهر النساء اللاَّتي شاركن في حركة الخوارج إبان عهد الخليفة هارون الرشيد، ليلى بنت طريف الشيباني[٦]، إذ كان أخوها الوليد بن طريف الشيباني رأس الخوارج آنذاك[٧] بعد أن عاد إلى الجزيرة سنة (١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، وكثر أتباعه فاشتدت شوكته[٨].

وقد عمل الرشيد على قمع الحركة قبل أن يستشري خطرها، فأرسل يزيد بن مزيد

---

(١) محمود إسماعيل: الخوارج، ص٢٠٠.
(٢) المرجع والصفحة نفسها.
(٣) مهدي هاشم: الحركة الإباضية، ص٨٤. كذلك واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي، ص٦٩.
(٤) الشماخي، أبو العباس احمد بن سعيد: السير (القاهرة، بدون تاريخ)، ص١٠٨–١٠٩.
(٥) واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي،ص٦٩. كذلك مهدي هاشم: الحركة الإباضية، ص٨٤.
(٦) الطبري: تاريخ الرسل، ٨/٢٦١.
(٧)الأصفهاني: الأغاني، ٦/٤٢٦٢.
(٨) الطبري: تاريخ الرسل، ٨/٢٦١.

الشيباني[١] الذي نجح في قتل الوليد، وأخذ رأسه إلى الرشيد[٢]، وشاركته أخته ليلى المعركة، وخلفته في قيادة الجند بعد مقتله، وارتدت الدرع والجوشن[٣] للتخفي[٤]، بيد أن يزيد وأصحابه عرفوها رغم ذلك، لما عرفت به من الشجاعة، فأمرها يزيد بالخروج من ساحة المعركة بعد أن ضرب بالرمح قطاه فرسها[٥].

ولم يقتصر دور المرأة في معارضة السلطة الحاكمة على اشتراكها في أحزاب المعارضة المذهبية، فحتمًا شاركت في الحركات والثورات التي ضد السلطة الحاكمة نتيجة التفاوت الاقتصادي والتسلط التركي، وتدخل النساء في شئون الحكم، وإن ندرت المعلومات التي تفيد مباشرة عن مشاركة النساء في هذه الحركات، بسبب إخفاء دور المرأة لكونها العنصر الأضعف وخشية تعرضها للعقوبات، علاوة على أن معظم كتب المعارضة أحرقت بعد أن تعرضت حركاتهم للفشل.

ومن ثم أرى أنه لا بد من عرض موجز لبعض هذه الحركات الثورية في العصر العباسي؛ لأنه من المؤكد أن للمرأة دوراً فيها إلى جانب الرجل، وخاصة أن غالبية هذه الحركات قام بها الصناع والحرفيون والفلاحون، بسبب ما نالهم من تعسف أثر على مستواهم الاقتصادي.أدى التفاوت الاقتصادي إلى قلق اجتماعي، نجم عنه قيام حركات اجتماعية، بسبب زيادة الضرائب والتعسف في جبايتها، وفرض المغارم على الأسواق والصناع من أصحاب المهن، فضلاً عن وجود عاطلين بسبب استمرار النزوح من الريف إلى المدن، ولمجابهة هذا التعسف كونت الجماعات الحرفية فرق دفاعية لدرء الأخطار، ومن هذه الفرق: العيارون والشطار التي ظهرت أول أمرها على شكل تكتلات شبه عسكرية استأجرتها القوى البرجوازية، قبل أن تأخذ خطًا جديدًا تميز بالثورة على أصحاب السلطة وذوي المال من كبار التجار[٦] وعمل الشطار والعيارون من أجل تصحيح

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، ٤٢٦٢/٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٦١/٨.

(٣) الجوشن:هو درع يتألف من صدر لاظهر له ولا أكمام وذلك لحماية الصدر=على حسين الشطشاط: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية،دار قباء للنشر (القاهرة،٢٠٠١م)، ص١٣٧،١٣٢.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٤٢٦٢/٦.

(٥) عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، دار الرائد العربي (بيروت،١٩٨٣م)، ١١٩/٢.

(٦) عبد العزيز الدوري: مقدمةفى التاريخ الاقتصادي العربي،ص٧٣،٧٦.كذلك محمد حسين: عصر تسلط الأتراك،رسالة ماجستير (فاس، ١٩٨٤م)، ص١٩٦-١٩٧.

الأوضاع الاقتصادية والسياسية القائمة، ورغم أهمية دورهم، لم يعتد بهم المؤرخون، ويأتي ذكرهم عرضًا في المصادر، وحين الحديث عن الخلل السياسي وتفشي المجاعات، ويحملهم المؤرخون المعاصرون مسئولية تفشي الفتن، والإخلال بالأمن وإضاعة الاستقرار [١].

وبديهي أن تتعرض حركاتهم للتشويه من قبل الحوليين، وأن ينعتوا بأوصاف تحقر من شأنهم مثل «أوباش»، «رعاع»، «عراة»، «باعة الطرق» [٢]، وحقيقة أمرهم – فيما أرى– أنهم مثلوا حركة اجتماعية ثورية تتواءم مع وضع العامة الذين عانوا من سوء الوضع الاقتصادي ومن ثم حاربوا التجار، ولم يكن العنفُ مَسْلَكُهم، وإنما الرفق بالضعفاء ومساعدة الفقراء وحماية النساء من مبادئهم، وهدفوا من حركاتهم إلى تغيير الأوضاع الاقتصادية السائدة آنذاك[٣].

ومن أشهر الحركات الاجتماعية في العصر العباسي الثاني والتي لعبت المرأة بالضرورة دورًا فيها ثورتي الزنج، والقرامطة [٤]، ولسنا بصدد تفصيل هذه الثورات ورصد أحداثها والإبانة عن نتائجها أو البحث عن أسبابها، وإنما نحاول أن نستشف دور المرأة فيها، فمن غير المقبول أن تتخذ هذه الثورات، تنظيماً سرياً في بداية أمرها، ولا يكون للمرأة دور فيها، وهي –كما أسلفت– الأقدر على التخفي، ونقل الرسائل بين الثوار، كما كان يتخذ من بيتها محزنًا لإخفاء السلاح، إذ أن الشبهة في ذلك قلما تحوم حول النساء، حتى أن أحد المؤرخين وصف الثورة بأنها تميزت بنضال المرأة والرجل[٥]، مما يؤكد مشاركة المرأة في الثورة ضد الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتدهورة بقصد التغيير

---

(١) محمد حسين: عصر تسلط الأتراك، ص١٩٨.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ٤٤٨/٨.

(٣) عبد العزيز الدوري: مقدمةفى التاريخ الاقتصادي العربي، ص٧٨.

(٤) عن ثورة الزنج= راجع الطبري: تاريخ الرسل، ٤١٠/٩، ٤٣٧، ٤٥٦،٤٧٢، ٦٥٤،٦٦١.كذلك المسعودي: مروج الذهب، ١٩٤،٢٠٧/٤، عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٧٣، شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني،دار المعارف(القاهرة،١٩٨٥م)، ص٢٦–٢٧. كذلك أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي،دار النهضة العربية (بيروت،١٩٧١م)، ص١٢٥، القرامطة: فرقة من الفرق الغالية في تاريخ الإسلام. عن ثورة القرامطة= راجع الطبري: تاريخ الرسل، ٢٣،١٥١/١٠. كذلك القرطبي: صلة تاريخ الرسل، ١٠/١١ وما بعدها، محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام (فأس،١٩٧٦م)، ص٨٢،٨٩، طه الولي: القرامطة (بيروت،١٩٨١م)، ص٢٥ وما بعدها، عارف تامر: القرامطة،دار الكتاب العربي (بيروت،بدون تاريخ)، ص٣٦ وما بعدها، سهيل زكار: أخبار القرامطة في الإحساء والشام والعراق واليمن، دار حسان (دمشق،١٩٨٢م)، ص٥ وما بعدها.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ١٠٢/١٠– ١٠٣،١٢٧.

والإصلاح.

وقد شاركت بعض النساء في القضاء على الحركات المعارضة إبان عهد الخليفة المنصور [1]، وسبقت الإشارة إلى أن العصر العباسي الأول تميز باستتباب الأمن والرخاء الاقتصادي، فشاركت المرأة السلطة الحاكمة في القضاء على المعارضة حرصًا منها على دوام الاستقرار والأمن، فضلاً عن رابطة الدم، إذ أن التي لعبت دورًا في القضاء على المعارضة أسماء ابنة الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بالمدينة، فعندما أعلن محمد بن عبد الله بن الحسن [2] ثورته على المنصور شاركت أسماء هذه بالحيلة في القضاء على ثورته، إذ دبرت حيلتها بالمشاركة مع مولى لها أثناء احتدام المعركة بين الثائرين وجند المنصور، وذلك برفع خمار أسود على مئذنة المسجد، وأشاعت بتمكين العباسيين من دخول المدينة، فانفضت جموع محمد بن عبد الله وحلت به الهزيمة [3].

صفوة القول، إن ثورات المعارضة في العصر العباسي عَبَّرَتْ عن روح السخط والاستياء الذي عانت منها العامة، واندلعت من أجل تصحيح أوضاع الفلاحين والمهنيين والحرفيين، وكل من حاق بهم الظلم الاجتماعي، وحتماً شاركت المرأة الرجل؛ لأنها عانت مثله من سوء الأوضاع الاقتصادية فدورها السياسي لا يستهان به،إذ شاركت في إنجاح الدعوة العباسية، ولم تترك فرصة للتدخل في شئون الدولة حتى اقتنصتها، وإن كان تدخلها بقدر ما سمحت لها الظروف.

---

(١) وفي عهد أبي جعفر المنصور يرد نص فيما يتعلق بمجالس النساء السرية وكانت سعيدة قد اتخذت للمسلمين سردابًا في دارها يجتمعون فيه بالليل= الشماخي: السير، ص١٠٨.

(٢) أحد العلويين الذين ثاروا على المنصور سنة(١٤٥هـ/٧٦٢م)، فكتب له المنصور أن يؤمنه في أهله وماله قبل أن يبعث له الجيوش، ونتيجة رفضه قمعت حركته وقتل في نفس العام= الطبري: تاريخ الرسل، ٥٦٦/٧.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٧٦/٢.

الفصل الثاني

دور المرأة الاقتصادي

المبحث الأول : أمــــلاك المـــــرأة

المبحث الثاني : المنشآت والنفقات التي قامت بها المرأة

المبحث الثالث : الأعمـال والمهن التي قـامت بها المـرأة

المبحث الأول: أملاك المـــرأة

لقد تمتعت المرأة في العصر العباسي بحريتها الاقتصادية مما ترتب عليه أن تكونت لديها ثروةُ طَآئِلَةُ من الأموال والضياع والحلي وغيرها.

لكن كيف حصلت هذه المرأة على هذه الأملاك؟ هل نتيجة الاستقرار والأمن النسبي الذي تمثل في العصر العباسي الأول؟ أم حصلت على هذه الثروة نتيجة تسلطها على الأمور لضعف بعض الخلفاء في العصر العباسي الثاني وتسلط العسكر التركي؟

لذلك لا بد أن يركز هذا المبحث على المحاور التالية:

١- أملاك المرأة الحرة في العصر العباسي الأول.

٢- أملاك الجواري في العصر العباسي الأول.

إن العصر العباسي الأول تميز بتعزيز سلطة الحاكم وإدارته المركزية، فقد أدرك الخلفاء العباسيون منذ توليهم السلطة أن القوة السياسية والحضارية لابدَّ أن تستند على أسس اقتصادية ثابتة، منها الهيمنة الكاملة على الطرق العالمية للمواصلات للتحكم في التجارة والإفادة منها، ونشر الأمن في أرجاء الدولة ، مما ترتب عليه أن تَكَوَّنَتْ لديهم نهضةُ اقتصادية شملت جميع مرافق الدولة من زراعة وصناعة وتجارة[١].

ونظراً لطبيعة أرض العراق الزراعية فقد اهتمت الدولة بذلك، فقام الخلفاء بتعمير الضياع وشق الأنهار وإنشاء السدود حتى زادت بذلك غلات أرض السواد[٢] وفاضت خزائن الدولة العباسية بالأموال وغيرها، والتي تدفقت بالتالي في أيدي الخلفاء والوزراء والنساء[٣]. وقد أدى هذا الاهتمام إلى تقلص حجم الإقطاعيات وتحول وضعية الأرض إلى ملكيات سلطانية (عباسية) وخراجية[٤]

---

(١) حسن أحمد محمود وزميله: العالم الإسلامي في العصر العباسي (القاهرة، ١٩٧٧م)، ص١٧٠.

(٢) ذكر ابن قدامة أن غلات السواد أيام المعتصم (مائة ألف وأربعة عشرة ألف ألف وأربعمائة ألف وسبعة وخمسين ألفًا وخمسين درهمًا)= قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة-تحقيق محمد الزبيدي (بغداد،١٩٨١م)، ص٢٤٩. كذلك حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي(القاهرة، ١٩٧٩م)، ٣٠٣/٢. كذلك جرجي زيدان:تاريخ التمدن، ٣٢٩/٩، عادل الألوسي: تجارة العراق مع إندونيسيا (بغداد، ١٩٨٤م)، ص٣٠.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٨/٣.كذلك الكتبي،محمد بن شاكر : فوات الوفيات- تحقيق إحسان عباس(بيروت،١٩٧٣م)، ٢١٧/٢، ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد : المقدمة(بيروت، ١٩٧٨م)، ص١٨١.

(٤) الخراج ما يوضع على الأرض أو محصولها من الضرائب=ينظر البلاذري، احمد بن يحي بن جابر: فتوح البلدان (بيروت، ١٩٨٣م)، ص٤٢٩ وما بعدها. كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ٣٢٩/١.

بعض هذه الضياع[1] التي آلت إلى بني العباس من الضياع الأموية بالتوارث والمصادرة وهي المعروفة بضياع «آل مروان»، أيضاً هذا الاهتمام من قبل الدولة بالقطاع الزراعي أدى إلى ازدهار الاقتصاد الزراعي الذي انعكس بدوره على الترف المركزي الذي وصل إلى حد الإسراف[2].

وهذا بالطبع انطبق أيضاً على مجالي الصناعة والتجارة وما توفر لهما من ظروف مادية ومعنوية مثل الاستقرار السياسي نسبياً والانفتاح الاقتصادي، كل ذلك ساعد على الاستقرار في الدولة وهذا الاستقرار تميزت به الدولة في العصر العباسي الأول وهذا ما تحدث به كَثْيِرُ من المؤرخين[3].

وبحكم هذا الاستقرار والقوة المالية للدولة أَصبح للنساء في الدولة وخاصة سَيِداتُ الْقَصْرِ العباسيِّ أملاكهن الخاصة.

ولعل من أبرز النساء اللاَّتي ظهرن في العصر العباسي الأول وأوسعهن شهرة وأملاكًا السيدة الخيزران[4]، إذ كانت من أغنى نساء عصرها حيث ملكت كثيرًا من الضياع واقتنت الجواهر، وربما كان دافعها إلى حب الثراء هو شعورها بالنقص في مكانتها الاجتماعية بين الهاشميات والحرائر من نساء عصرها في عهد زوجها وولديها الهادي والرشيد؛ فلذلك أخذت في حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها من الضياع التي تملكها في العام ١٦٠,٠٠,٠٠٠ درهم[5]، وبلغ من نفوذ السيدة الخيزران وكثرة أملاكها أنه كان لها كاتب خاص بها يطلعها على ما يتعلق بها من الأمور الاقتصادية وهو عمر بن مهران[6].

والحقيقة أنني لا أملك نصوص متكاملة عن أملاك سيدات العصر العباسي الأول اللَّهُمَّ إلا ما يذكرني عنها من خلال بعض الروايات التاريخية فقد ذكر عن مدى ثراء السيدة الخيزران أنها حينما حجت سنة (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) تصدقت بأموال كثيرة[7]؛ وقسمت على نساء مكة آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب، كما أنها قسمت

---

(١) عن هذه الضياع ينظر صبحي الصالح:النظم الإسلامية نشأتها وتطورها،دار الملايين(بيروت، ١٩٨٠م)، ص٣٩٢، كذلك جرجي زيدان: المرجع السابق، ٩/٣٧٧-٣٧٨.

(٢) حسن أحمد محمود وزميله: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢١٢.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٣١١ وما بعدها.كذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٥٩ وما بعدها.

(٤) السيوطي: المستظرف من أخبار الجواري (القاهرة،١٩٥٢م)، ص٥٤.كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ١/٣٧٩.

(٥) السيوطي: المستظرف، ص٥٤.كذلك ينظر شوقي ضيف: العصر العباسي، ص٤٥-٤٦.

(٦) هو عمر بن مهران، كان أحول في عينيه، مشوه الخلق، ولاه الرشيد ولاية مصر= عنه ينظر الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص٢١٨.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٨/٢٥٢.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/٦٨.

على النساء أيضًا كثيرًا من الملابس[١].

ولعل هذا يفيدني في إعطاء صورة عن مدى ثروة وبعض أملاك السيدة الخيزران، وقد يعود السبب في كثرة هذه الأملاك أن زوجها المهدي كان يلبي كل طلباتها وكذلك فعل ابنها الهادي من بعده، ويذكر أنها تركت يوم وفاتها أكثر من مليون درهم[٢].

ومن المرجح أن دور المرأة الاقتصادي في عهد الخليفة هارون الرشيد لا يقل أهمية عن دورها في عهدي المهدي والهادي، فقد امتاز عهد هارون الرشيد بالرخاء وتدفق الأموال، وهذا ما جعل نساء عصر الرشيد يملكن كثيراً من الأموال والجواهر[٣]، فقد كانت السيدة زبيدة زوجة الرشيد تمتلك كثيرًا من الضياع، والتي بلغ من كثرتها أن عينت لها وكيلاً خاصاً ليصرف أمورها، ولم تكتف بذلك بل أن كاتبها الخاص بها (داود) كان يمر على وكلائها لمحاسبتهم في الأمور المالية حتى أنه حبس أحد الوكلاء لحسابه عن ضياع وجبت عليه[٤]. وبالإضافة إلى أملاكها من الضياع اقتنت الكثير من الجواهر التي أهدى إليها الخليفة هارون الرشيد كثيرا منها فقد كانت ترصع خفافها بالجواهر وشمع العنبر؛ كما أنها اتخذت القباب وزينت جلاليبها بالذهب والفضة وألبستها من الوشي والديباج وأنواع من الحرير الأصفر والأحمر والأخضر والأزرق[٥].

وكانت السيدة زبيدة تسرف كثيراً على مقتنياتها الخاصة وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدلُّ على مدى اتساع أملاكها، وساعدها في ذلك الاستقرار -النسبي- وتدفق الأموال من كُلِّ حَدْبٍ وَصَوْبٍ في عهد زوجها، وكانت لا تسرف على شراء ملابسها، بل كان يصنع لها الرفيع من الوشي[٦]،حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف

---

(١) مؤلف مجهول: العيون والحدائق، ٦٨/٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٣٨/٢.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص١٥٧.

(٣) وصف ابن الطقطقى دولة الرشيد بقوله: «كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة، جبي الرشيد معظم الدنيا»= الفخري، ص١٩٥.

ومما يذكر أيضاً عن كثرة الأموال أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «اذهبي حيث شئت فإن خراجك آت إلي»= صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٩٠.

وذكر ابن خلدون: «أنه بلغ دخل بيت المال سنوياً في عهد الرشيد نحو سبعة آلاف وخمسمائة قنطار»= المقدمة، ص١٨١.

(٤) الجهشياري: الوزراء، ص١٦٥.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤-٣١٨.

(٦) الوشي: وهو قماش من الحرير الملون مثقل بالذهب كان يعمل باليمن والعراق ومصر= الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: فقه اللغة(بيروت، بدون تاريخ)، ص١٥٨.كذلك ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، دار صادر (بيروت، بدون تاريخ)، ٣٩٢/١٥.

دينار[1]، بالإضافة إلى ذلك فإنها كانت عندما تعتزم السفر إلى أي مكان فإنها تصحب معها كثيرًا من الخزائن المملوءة بالملابس والمجوهرات[2].

ومن المرجح أيضاً أن هذه الخزائن التي تأخذها معها لا بد أنها أيضًا تحتوي على كثير من العطايا والصدقات التي كانت تنفقها في مجالات الخير وعلى الفقراء والمساكين وخاصة في مواسم الحج؛ فقد ذكر عنها أنها قسمت في حجة واحدة مليوني دينار[3] وإن كان في ذلك مبالغة، إلا أنه دلالة على مدى ما حازت من أموال وامتلكت من ضياع.

ومن السيدات اللاَّتي عرف عنهنّ كثرة الأملاك السيدة «عُلَيَّةَ بِنْتِ المَهْديّ» (١٦٠-٢١٠هـ/ ٧٧٧- ٨٢٥م)،فكانت أيضاً كغيرها من سيدات البلاط العباسي تملك كثيراً من الضياع التي كان يديرها لها وكيل خاص بها يقال له سباع، وكانت السيدة عُلَيَّة على دراية كبيرة بالأمور الاقتصادية فكانت تحاسب وكيلها هذا عن كل صغيرة وكبيرة في شئونها الاقتصادية حتى أنه في أحد المرات خانها في أموالها فأمرت بحبسه[4].

أما عن مجوهرات السيدة عُلَيَّة، فقد كان لديها من الحلي والمجوهرات الشيء الكبير حتى أن معصمها لا يخلو من الأساور ولا جيدها من المخانق والقلائد، وعصائب رأسها كانت لا تخلو من الجواهر وتزين عصائب رأسها دائماً بالجواهر والأحجار الكريمة[5].

ومن نساء العصر العباسي الأول اللائي اشتهرن بالأملاك في عهد الرشيد أيضاً حمدونة بنت الرشيد، فقد عرف عنها أنها كانت تملك أموالاً وضياعاً كثيرة أسوة بسيدات العصر العباسي من اللاَّتي لهن صلة بالحكومة المركزية، فقد عينت لها كاتبًا يتولى الإشراف على شئونها المالية[6].

ومن المعلوم أيضاً عن سيدات العصر العباسي الأول من الطبقة الحاكمة أنهن كن يملكن بالإضافة إلى الضياع والمجوهرات والأموال عدداً من الرقيق المتمثل في الجواري

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، ٣١٧/٤-٣١٨.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٣٧/٨.
(٣) عبد المنعم ماجد: العصر العباسي، ص٢٢٤. كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٢٧/٢.
(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.
(٥) المصدر نفسه، ٣٦٤٧/٥.
(٦) الجهشياري: الوزراء، ص١٦٥.

والإماء اللاتي يقمن بقضاء الحوائج لسيداتهن[١] ولكن المصادر لم تخدمني كثيراً في هذا المضمار، فقد كان لريطة بنت السفاح جارية اسمها (عُتْبَة) تبعثها في شراء الرقيق لها[٢].

ولعل البعض يتساءل ماذا يفيد ذِكْرُ أملاك هؤلاء النساء في الحقبة موضوع الدراسة، ولكن يمكن القول أن من خلال ذكر أملاك هؤلاء السيدات أن نستشف من خلاله صورة الثراء والترف الذي عاشته هؤلاء النسوة في ظل الحكومة المركزية التي استطاعت أن توفر الاستقرار النسبي في تلك الحقبة.

ولقد تميز عصر المأمون أيضاً بالرخاء والترف؛ فقد ورد عند بعض المؤرخين[٣] مدى ما تملكه السيدة بُوران بنت الحسن[٤] زوجة المأمون من الأملاك عند ذكرهم لوصف حفلة زفافها إلى المأمون [٥]، وسوف يأتي ذكر تلك المجوهرات في حديثي عن حفلة زفافها إلى المأمون،ومن زوجات المأمون أيضاً اللاَّتي كن لديهن أملاك كثيرة السيدة أم عيسى بنت موسى الهادي فكانت تمتلك كثيراً من الجواهر التي أخذها منها الأمين عنوة عندما هاجم منزلها في أثناء الفتنة بينه وبين المأمون[٦].

ولا بد لي في مجال الحديث عن أملاك نساء القصور أن أتحدث عن أملاك الجواري التي لا بد أنها تقل أو تكثر حسب مكانة ومنزلة الجارية في القصر؛ وقد ساهم الخلفاء العباسيون كثيرًا في إثراء هؤلاء الجواري وخاصة من المجوهرات والضياع التي كان يهبها الخلفاء لهن.

ومن الجواري اللاَّتي اشتهرن بأملاكهن وكانت لهن ثروة طائلة الجارية (عريب) جارية المأمون، إذ بلغ غناها أنها كانت تغلف شعرها بستين مثقالاً مسكًا وعنبراً وتغسله من جمعة إلى جمعة[٧]، مستخدمة في ذلك كثيراً من العطور والطيب، واشتهرت أيضاً

---

(١) قال الجاحظ: «لم يزل للملوك الأشراف إماءٌ يختلفن في الحوائج، ويدخلن الدواوين، ونساءٌ يجلسْنَ للناس مثل خالصة جارية الخيزران، وعُتْبَة جارية ريطة ابنة أبى العباس، وسُكَّر وتركيَّة جاريتي أمِّ جعفر، ودقاق جارية العبَّاسة»= رسائل الجاحظ– تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة، ١٩٦٤)، ١٥٦/٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٣٢٨/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣٠/٤.كذلك ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب البغدادي: نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء– تحقيق مصطفى جواد (القاهرة، بدون تاريخ)، ص٦٧.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٧/١. كذلك القلقشندى، أبو العباس احمد بن على: مآثر الإنافة في معالم الخلافة (بيروت، ١٩٦٤م)، ٢١٢/١. كذلك ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف– تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة، ١٩٦٩م)، ص٣٩١.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ٦٠٧/٨.كذلك المسعودي: المصدر السابق، ٣٠/٤، عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى(القاهرة، ١٩٧٤م)، ص١٢٦.

(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٤٣٦/٢.

(٧) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبي ، ٧٨/٢١.

(بِدْعَـة) مـولاة عريـب بـالثراء أيضـاً حتـى قيـل أنـهـا تركـت بعد وفاتهـا مـالاً كثيـراً وجـواهر وضياعًا وعقارات[١]، ما ملكها رجل قط[٢].

ومـن المؤكـد أن ثـراء هـؤلاء الجـواري قـد جـاء نتيجـة لشـغف الخلفـاء العباسـيين بالغنــاء، ممــا ســبب فــي ثــرائهن مثــل المغنيــة (عريب)،(وحمدونة)،(ومحبوبــة) جاريــة المتوكـل،حتى وصـل ثمـن الجاريـة إلـى ١٠٠ ألـف دينـار، وبلـغ الثـراء حـده عنـد بعـض الجواري من أنهن كن يملكن بعض القرى والضياع أسوة بسيدات القصر العباسي، فقد كانت (خالصة) جارية المهدي تمتلك قرية يقال لها (تُرَبَة)[٣] وهي قرية عظيمة بها عيون جاريـة وزروع كثيـرة[٤]، كمـا تمتلـك كثيـرًا مـن الجـواهر ممـا سـبب سـخط الشـعراء وغيـرهم بسبب حصول مثل هؤلاء الجواري على هذه الأملاك[٥].

ولـم يتوقف الأمـر عنـد حـد الأمـلاك لهؤلاء الجـواري بـل إنـهـن تبـادلن الـهـدايا الثمينـة بينهن، وهذا دليل علـى مـدى الثـراء الـذي بلغتـه إبـان العصـر العباسـي الأول أيضًـا نتيجـة لتدفق الخيرات واستقرار الأمـن فـي الدولـة، فقد أهدت مؤنسـة جاريـة المـأمون إلـى متـيم الهاشمية يوم احتجمت قلادة في وسطها حبة كبيرة وعلى يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينهما من شذرات الذهب وباقي المخنقة قد طيب بغالية[٦].

ولا أستطيع أن أحدد أمـلاك نسـاء الطبقة الوسطى والعامة لأن أغلـب مـؤرخي تلـك الحقبـة موضـوع الدراسـة كـانوا يركـزون فقـط علـى أمـلاك الطبقـة الحاكمـة ومـن يتصـل بهـن من الجـواري والقهرمانـات وغيرهن.وممـا لا شـك فيـه أن أمـلاك المرأة فـي العصـر العباسـي الأول قد حصلت عليهـا نتيجـة الاستقرار –النسبي– واستتباب الأمـن؛ حتـى أن الأسـعار العالميـة أصـبحت تحـدد فـي بغـداد[٧] التـي تحولـت إلـى سـوق حـرة تُعْرَضُ فيهـا كَثْيِرُ مـن البضائع[٨].

وبمقارنـة أمـلاك المرأة فـي العصـر العباسـي الثـاني(٢٣٢–٣٣٤هـ/ ٨٤٦– /٩٤٥م) فـإن هـذه الأمـلاك لـم تختلـف فـي مقدارها مـن حيـث كثرتهـا أو قلتهـا، ولكـن الأمـر الـذي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ١٥٠/٦ .

(٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: أحكام النساء– تحقيق على بن محمد (بيروت، ١٩٨١م)، ص٤٤٩.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ٢١/٢.

(٤) ابن خرداذبة، أبو القاسم: المسالك والممالك (بغداد ، بدون تاريخ)، ص١٨٨.كذلك قدامة: الخراج، ص٨٢.

(٥) عبر أبو نواس عن سخطه بقوله: لَقَدْ ضَاعَ شِعْرِي عَلَى بَابِكُمْ... كَمَا ضَاعَ دُرُّ عَلَى خَالِصَهْ=البيروني: الجماهر، ص٥٨.

(٦) الأصفهاني: الأغاني، ٤٦/٤.

(٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٣٧١/٢.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ٩٩/١٠ (أورد قائمة بأسعار السلع). كذلك الألوسي: تجارة العراق، ص٢٦.

اختلف فيه هو كيفية الحصول على هذه الأملاك.ومما لا شك فيه أنها حصلت عليها عن طريق سيطرتها على مقاليد أمور الدولة بسبب الفوضى التي كانت تعم السلطة المركزية متمثلة في خلفائها الذين كانوا على درجة من الضعف؛ مما جعل أمور الدولة في يد الأتراك والنساء الذين أثروا من وراء ذلك الشيء الكثير[١].

وأذكر على سبيل المثال من نساء العصر العباسي الثاني اللاَّتي اشتهرن بكثرة أملاكهن السيدة (شجاع) أم المتوكل؛ فإنها كانت لديها من الأموال والضياع الشيء الكثير فعندما توفيت تركت كثيرًا من الأموال ما قيمته خمس وخمسون ألف دينار ؛ أما الجواهر فقد تركت ما قيمته ألف ألف دينار[٢]، وكذلك أيضاً السيدة قبيحة زوجة المتوكل فقد تحَدَّثَتْ كَثِيرٌ من المصادر عن أملاكها؛ إذ ذكر بعضهم أنها كانت لها أموالُ كثيرةُ تقدر بخمسمائة ألف دينار أحضرتها من بغداد بعد قتل أبنها المعتز[٣].كما أنها خوفًا على أملاكها ومجوهراتها من أن يأخذها الأتراك بعد أن حصلت الفتنة على أبنها وأرادوا أن يخلعوه حفرت سرداباً ووضعت فيه كل ما تملك من الأموال والجواهر؛ بعد أن أخرجتها من خزائنها علماً بأنها عرضت ابنها للقتل في ألف دينار وعندها هذه الأموال كُلُّها[٤].

وقد كانت السيدة أم المقتدر متسلطة على أمور الدولة وبالتالي فإنها كانت المسيطرة أيضاً على كل ما يرد إلى الدولة من الآفاق البعيدة من الأموال؛ فقد كونت لديها ثروة عظيمة لا تحصى من الأموال والمجوهرات[٥].

وفي هذا المجال لا أستطيع أن أحدد مقدار ثروتها بسبب أنها كانت تملك كل الدولة، أو بمعنى آخر هي المسيطرة على كل أمور الدولة في خلافة ابنها أي أنها في يدها كل أموال الدولة حتى أنها كانت تساهم بأموالها في خزينة الدولة نفسها عندما يحدث أي عجز في خزينة الدولة من الأموال، فقد ساهمت بأموالها؛ حيث قدمت مقدار خمسمائة

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٣٧٥/٢.

(٢) ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٩.

(٣) ذكر ابن الأثير عن أملاكها «إن الأتراك ظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، ومن جملتها دار تحت الأرض، وجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا في سفط قدر مكوك زمرد لم ير الناس مثله، وفي سفط آخر مقدار مَكُّوك من اللؤلؤ الكبار ،وفي سفط آخر كيلجة من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله»= الكامل، ٣٤٤/٥. كذلك البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص٦٨.

(٤) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص٦٨.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨هـ)، ٢٥٣/٦.

ألف دينار مساعدة منها على صد جيوش القرامطة عن الكوفة[1].

فلا عجب في ذلك إذا علمنا أنها كانت تسيطر وتمتلك كل مخازن الحنطة في الدولة[2] كما أنه يرتفع لها من ضياعها الكثيرة التي تملكها في كل عام ألف ألف دينار وبذلك فهي تتحكم في أسعار السلع الغذائية مما يسبب ثورات العامة وسخطهم من غلاء الأسعار [3].وكان كاتبها أبو يوسف عبد الرحمن بن محمد[4] يتولى الأشراف على أمورها المالية من أموال وضياع وغيرها ويبلغ من غناها أنهم وجدوا في تربة لها مبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار [5].

وشجعت الأوضاع السياسية الفوضوية التي سادت العصر العباسي الثاني النساء على التسلط في أمور الدولة مما أتاح لهن الحصول على ثروات طائلة من وراء ذلك وقد علمنا مدى الثراء الذي تمتعت به زوجات وأمهات الخلفاء.

ومما لا شك فيه أن قهرمانات العصر العباسي الثاني تمتعن أيضاً بهذا الثراء خاصة أنهن كن مسيطراتٍ على الأوضاع إبان فترات الفوضى والاضطراب التي سادت أغلب سنوات العصر العباسي الثاني خاصة أن أكثر رجالات الدولة كانوا يتقربون إلى هؤلاء القهرمانات بالأموال حتى يضمنوا البقاء في مناصبهم في الدولة وبدت هذه الظاهرة أكثر وضوحًا في عهد المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م).

ومن أشهر قهرمانات العصر العباسي الثاني نذكر فاطمة القهرمانة التي امتلكت أموالاً كثيرة إبان غضب الخليفة المقتدر عليها، فعندما صودرت أموالها أخذ منها مائتي ألف دينار [6].واغتنمت القهرمانة أم موسى هذا الوضع وكونت ثروة طائلة لم تخْصِهَا المصادر، ومما ساعدها في ذلك أنها كانت قابضة على أمور الدولة ونفقاتها[7] حتى أنها أنفقت الكثير من الأموال في زواج ابنة أختها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق[8]، كما أن أم المقتدر كانت تضع كل أمور الدولة المالية في يد هذه القهرمانة فقد

---

(١) ابن مسكويه، أبو على احمد بن محمد: تجارب الأمم (القاهرة، ١٩١٤م)،١٨١/١.كذلك ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٢٥٣/٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٦٣/٦. كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ٣٨٠/١.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ٢٥٣/٦. كذلك ابن كثير: البداية والنهاية، ١٧٥/١١، ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٩.

(٤) ابن مسكوية: تجارب الأمم، ١٦٤/١.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ١٦٣/٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١٨/١١.

(٧) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٨٤/١.كذلك ابن الأثير: الكامل، ١٧٢/٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ١٧٢/٦.

أرسلتها بهدية عظيمة مِنْ بنت الخال غريب لأزواجهن في موكب عظيم[1].وبلغ من كثرة أملاكها أنه لما قبض عليها المقتدر سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) أخذ منها أموالاً عظيمة وجواهر نفيسة، وكان حاصل ما حمل إلى بيت المال من جهتها ألف ألف دينار[2] حتى اضطر الوزير علي بن عيسى إلى عمل ديوان عرف بـ (ديوان المقبوضات عن أم موسى) [3].وعرف عن زيدان القهرمانة (أيام المقتدر) أنها أيضًا كانت مستبدة بالأمور. ولقد مَكَّنها استبدادها هذا من الثراء الفاحش سواء في الأموال أو المجوهرات حتى قيل أنها كانت تملك سبحة ثمينة[4]لم يرد مثلها وكان يضرب بها المثل بلغت قيمتها ثلاثمائة ألف دينار؛ فيقال سبحة زيدان[5] وعلى الرغم من كثرة ما تملك من الأملاك إلا أنه كان يضرب بشحها المثل[6].

فمن أعمالها أنها أنشأت بيمارَسْتان[7] في بغداد، وعهدت إلى أمهر الأطباء بإدارته،وقد بلغت نفقات هذا المستشفى في كل شهر ثمانمائة دينار[8] أما نفقته السنوية قيمتها سبعة آلاف دينار[9]، وقد شهدت عصر دولة أم المقتدر تطويراً كبيراً في النواحي الطبية من حيث بناء المستشفيات وتوفير الأطباء لها ومراقبة الأطباء حتى أن ابنها المقتدر أصدر قراراً (سنة ٣١٩هـ/٩٣١م) .بتحريم مهنة الطب على أي طبيب إلا من امتحنه رئيس أطباء بغداد"سنان بن ثابت بن قرة" وكتب له رخصة بمزاولة المهنة،وأمر سناناً بامتحانهم وان يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من المهنة، حتى بلغ عددهم في بغداد ثمانمائة ونيفا وستين رجلا سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره في

---

(١) فقد وصف ابن الأثير موكبها بقوله: «ركبت أم موسى القهرمانة بهدية أمرت أم المقتدر بتهيئتها وإهدائها عن بنات غريب الخال لأزواجهن بني بدر الحمامي؛ فسارت أم موسى في موكب عظيم فيه الفرسان والرجال وقيد بين يديها اثنا عشر فرساً بسروجها ولجامها منها ستة بحلية ذهب وستة بحلية فضة مع كل فرس خادم بجنبه سيوف ذهب وأربعون تختاً من فاخر الثياب ومائة ألف دينار»= الكامل، ١٦٦/٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٧٢/٦.

(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٨٤/١.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،٧٠/٦.

(٥)المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك صلاح المنجد: بين الخلفاء والخلعاء، ص١٥.

(٦) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص٥٨.

(٧)البيمارَسْتان=(بفتح الراء وسكون السين)كلمة فارسية مركبة من كلمتين(بيمار)بمعنى مريض أو مصاب (وستان)بمعنى مكان ،كانت البيمارستان في البداية مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحة وعقلية إلى أن حل بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين، حيث لا مكان لهم سواها. فمارستان إذاً هي مأوى المجانين=أحمد عيسى بك:تاريخ البيمارستان في الإسلام ،دار الرائد العربي (بيروت،١٩٨١م)، ص٤.

(٨) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس احمد:عيون الأنباء في طبقات الأطباء- تحقيق نزار رضا (بيروت، بدون تاريخ)، ص٣٠٢.

(٩) ابن الأثير: الكامل، ١٦٣/٦.

مهنة الطب والسبب في ذلك أن طبيباً أخطأ في علاج أحد المرضى فمات هذا المريض [١].

قصارى القول؛ إن المرأة في الحقبة موضوع الدراسة قد ملكت الكثير من الأموال والضياع وغيرها، وهذا ما ساعدها على القيام بكثير من المنشآت سواء المنشآت الخاصة أو في وجوه الخير.

---

(١) على حسين الشطشاط: الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحرانى،منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، ١٩٩٠م)، ص٣٦. كذلك جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجى (القاهرة، بدون تاريخ)، ص٥.

المبحث الثاني: المنشآت والنفقات التي قامت بها المرأة

كانت المرأة في العَصْرِ العباسي الأول تقوم على قدر كبير من الثراء الذي مَكَّنَها من أن تقوم بكثير من المنشآت. لكن سأجد إشكالية كيفية قيام هذه المرأة بالمنشآت في دولة تحكمها الأيدلوجية الإسلامية، ودولة ينادى فيها بعض الفقهاء وغيرهم بعزل المرأة عن بعض نواحي الحياة، ومن خلال هذا المبحث سنجيب علي التساؤلات التالية:

هل المرأة كانت تشرف بنفسها على هذه المنشآت (المشاريع) أم أنها تستعين بالوكلاء وغيرهم في القيام عنها بذلك؟وما نوع هذه المنشآت؟ وهل هي منشآت تقصد بها وجوه الخير أم منشآت تريد منها مكاسب تجارية أو بسبب الفتن والثورات؟

لذلك سوف يتركز هذا المبحث على المحاور التالية:-

١- المنشآت التي قامت بها المرأة.

٢- النفقات على هذه المنشآت.

٣- النفقات على مجالات أخرى.

لقد ساهمت المرأة في الحقبة موضوع الدراسة بدور اقتصادي إيجابي متمثلاً بما قامت به من منشآت وإصلاحات في مرافق الدولة، وإن دَلَّ هذا على شيء فإنما يَدُلُّ على مدى وعي المرأة وإدراك ما يعانيه النَّاس من ضيقٍ وفقرٍ في بعض المناطق أو يقصد إعطاء صورة جمالية لدولتها سواء قامت بها هي شخصيًا أو بتوجيه منها.

لقد كان لنساء العصر العباسي الأول اهتمام كبيرُ بالمنشآت العمرانية، حيث كانت مثلاً الخيزران[١] وراء جميع المنشآت وحركة الإصلاحات الاقتصادية التي قام بها المهدي.

ولا أدل على مدى اهتمام المرأة في العصر العباسي بالمنشآت العمرانية ما قامت به السيدة زبيدة من تنفيذ كثير من المشروعات الإصلاحية التي انتفع بها كثيرون؛ منها أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرَّاوِيَة[٢] عندهم بدينار[٣]. فقد أدركت ما يعانيه

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول (الإسكندرية، ١٣٩٨هـ)، ص٣٣٣.

(٢) الرَّوايَة:القربة الصغيرة التي تستخدم للماء= الفيروزآبادى:القاموس المحيط (القاهرة، ١٣٤٤هـ)، ٤٢٧/٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٤/٢.

أهلها من مشاق الحصول على الماء؛ فأمرت خازن أموالها (وكيلها) [١]؛ بإحضار المهندسين لتوصيل الماء إلى مكة مهما كلف هذا الأمر من المبالغ. ولذلك وفد على مكة أكفأ المهندسين والعمال؛ فأخذوا يصلون بين منابع الماء في الجبال معتمدين في ذلك على عين حنين، حتى وصل الماء إلى مكة[٢] وعرفت هذه العين بعين الشماش، وكان جملة ما أنفق على حفرها كما قيل مليون وسبعمائة دينار[٣]. كذلك كان لها الفضل في تحديد معالم الطريق بالأميال ليعرف الحجاج المسافات التي قطعوها[٤].

كما أنها أنشأت الكثير من المنشآت وخاصة الدينية في بغداد، والتي يعدها البعض من آثارها الجليلة؛ منها بناء مسجد عرف باسمها (مسجد زبيدة) [٥]، كما أنها قامت بإنشاء كثير من الاستراحات للحجاج التي تنسب إليها؛ فنسب إليها المحدث؛ وهو منزل في طريق مكة وعلى ستة أميال منها، فيه مقر وقباب متفرقة وفيه بركة وآبار ماؤها عذب[٦].

كما أنها قامت بإنشاء الكثير من البرك والآبار التي تنسب إليها أيضاً، مثل العُنابة؛ وهي بركة ماؤها ملح غليظ، وبركة أم مقعد وهي في طريق مكة بين المغيثة و العذيب والقنيعة[٧] و هي بركة بنت الثعلبية والمخزمية بطريق مكة، وأيضاً الزبيدية[٨] وهي بركة بين المغيثة والعذيب، وبها قصر ومسجد؛ قامت زبيدة بتعميرهما ومن الآبار التي ينتسب إليها الحسنى وهو بئر على ستة أميال من قرورى قرب معدن النقرة[٩].ولقد تحدث بعض المؤرخين والرحالة المؤرخين[١٠] عن هذه الآثار الجليلة التي تركتها السيدة

---

(١) وقالت له: «أعمل ولو كانت ضربة الفأس بدينار»= ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٤/٢.كذلك عفيفي: المرأة العربية، ص٣٣٢ ،حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ٤٣١/٢.

(٢)المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤. كذلك حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٣١/٢؛ عفيفي: المرأة العربية، ٣٣٣/٢.

(٣)المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤. كذلك ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٤/٢.

(٤)عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ٢٢٣/١.

(٥)عمركحالة: أعلام النساء، ٢٨/٢.

(٦)الحموي: معجم البلدان، ٦٠/٥.

(٧)المصدر نفسه، ١٥٩/٤، ٤١٠.

(٨)المصدر نفسه ، ١٢٣/٣.

(٩)المصدر نفسه، ٢٦٠/٢.

(١٠) ذكر المسعودي آثارها بقوله: «لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة، وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف» مروج الذهب، ٣١٦/٤.كذلك ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ٨٤/٢. وذكر ابن جبير آثارها بقوله: «وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي في بغداد ومكة هي آثار زبيدة ما انتدبت لذلك مدة حياتها فأقامت في هذه الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى في كل سنة ولولا آثارها في ذلك لما سلكت هذا الطريق» رحلة ابن جبير (بيروت،١٩٨١م)، ص١٦٥.

زبيدة والتي تدل على الكرم والإحسان التي تتمتع به هذه السيدة في عصر ازدهرت فيه الدولة العباسية اقتصاديًا وفكريًا.

ومما يؤكد أن السيدة زبيدة كانت تهتم بهذه المنشآت والإشراف عليها، أنها وفرت كل ما يسهل عملية الاتصال بالمناطق البعيدة، فلذلك هي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في نواحيها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها[١].ولم تتوقف السيدة زبيدة عن إرسال الكتب والرسائل عن طريق هذه الدواب التي تعتبر في ذلك الوقت وسيلة من وسائل المواصلات بل أنها اهتمت بهذه الوسيلة حتى تتمكن من سرعة إنجاز أعمالها [٢]كما أنها أمرت الرحالين الذين يقودون هذه الدواب أن يزيدوا في سير البُختيّة[٣] وكانت هي تقوم بالأشراف بنفسها على وسائل المواصلات هذه[٤].

وعُرف عن السيدة زبيدة أنها كثيرة النفقات في مواسم الحج فقد قيل أنها أعطت في حجة واحدة مليوني دينار[٥]، وقيل أيضاً أنها أنفقت على حجة لها في ستين يوماً أربعة وخمسين مليون دينار[٦].

وشجعت السيدة زبيدة رجالات الدولة بالإنعام عليهم مثل العلماء[٧] والأطباء، فقد خصصت للطبيب المشهور جبرائيل بن بختشيوع راتباً شهرياً قدره خمسون ألف درهم[٨] والمغنيين[٩] والقضاة[١٠] والشعراء[١١]، ومن الطريف ما يذكر عن الشعراء أن زبيدة كانت تصل الشاعر أبو العتاهية، ففي إحدى المرات تأخرت صلته فشكي الأمر برقعة سلمها إلى مسلم بن سعدان كاتب أم جعفر بها أبيات من الشعر يطلب فيها استمرار صلتها

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤.

(٢) المصدر نفس والجزء والصفحة .

(٣) البُختِيّة:جمع بخاتى، وهى الإبلُ الخراسانيَّة طويلة الأعناق=الفيروزآبادى: القاموس المحيط،١٣٥/١.كذلك ابن كثير: البداية والنهاية،٢٨٦/٦.

(٤) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: لطائف المعارف- تحقيق إبراهيم الابيارى (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص٢٠-٢١.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢١٤/٢.

(٦) الذهبي،شمس الدين محمد أحمد:سير أعلام النبلاء – تحقيق شعيب الأرنؤط (بيروت،١٩٨١م)،٢٤١/١٠. كذلك الجوزي:أحكام النساء، ص٤٤٧.

(٧) ابن الجوزي:أحكام النساء، ص٤٤٧.

(٨) عمركحالة:أعلام النساء، ٢٦/٢.

(٩) المصدر نفسه، ٢٥/٢.

(١٠) ابن طيفور،أبو الفضل احمد: بلاغات النساء (بيروت، ١٩٨٧م)، ص٢٢٢.

(١١) ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة (بيروت، ١٩٦٨م)، ص١٦٣.

له[1].

كما أنها كانت تنفق الكَثيرَ على تجميل قصرها، فهي قد اتخذت القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والديباج وأنواع الحرير[2].

ومن المعلوم أن المرأة في العصر العباسي في الحقبة موضوع الدراسة قد لعبت دوراً اقتصادياً مهماً في القيام ببعض المنشآت، ومما لا شك فيه أن هذه المنشآت كانت بحاجة إلى كثير من النفقات فمن المؤكد أن المرأة في العصر العباسي الأول قد أنفقت كثيرًا من الأموال سواء على هذه المنشآت أو على زينتها وما إلى غير ذلك من الإنفاق والعطايا للشعراء والمغنيين وغيرهم[3].

وَتُعَدَّ الخيزران مِنْ سَيداتِ الْعَصْرِ العَبَاسيِّ الأول التي اشتهرت بالإنفاق بالرغم من أن زوجها المهدي اتبع خطى المنصور في الإقلال من النفقات وذلك من ضمن سياسة ترسيخ قواعد الدولة[4]، فقد عُرِفَ عَنْهَا كَثْرَةُ الإنفاقِ في أبواب الخير والصدقات[5]، فعندما خرجت الخيزران (سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م) للحج قسمت بالمدينة أموالاً على الفقراء والمحتاجين، كما أنها قسمت أموالاً كثيرة على نفر من قريش والأنصار والأعيان، وقد يكون هذا الإنفاق من باب التقرب إلى هؤلاء خشية الفتن والثورات،ولم تقف السيدة الخيزران عند باب إعطاء الأموال بل أنها قامت بالإنفاق على تزويج كثيرٍ من الأيتام، الذين لا يجدون الأموال التي تعيينهم على نفقات الزواج[6].

ولم تَكّتَفِ بِذَلِكَ بَلْ إنها أَعْطَتْ كُلَّ قبيلةٍ مبالغَ معينةً من المال تستعين به على أمور حياتها[7]، وكما قلت حتى تكف بذلك آذاهم عن الثورة والتمرد على دولة زوجها المهدي، فالمرأة في العصر العباسي الأول استغلت دورها الاقتصادي بتوجيه من الرجل

---

(١) ورد في هذه الأبيات:

زعموا لي أن في ضرب السنة	**جدداً بيضاً وصفراً حسنه**
سككاً قد أحدثت لم أرها	**مثل ما كنت أرى كل سنة**

= ينظر ابن طيفور: تاريخ بغداد، ص١٦٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ٣٥١/١-٣٥٢.

(٤) من وصايا المنصور لابنه المهدي الخاصة بالنفقات ما نصه: «وإياكَ والأثرة والتبذير لأموال الرعية، وأعد الأموال واخزنها، فإن النوائب غير مأمونة»= ابن الأثير: الكامل، ٤٤/٥، كذلك جرجي زيدان:تاريخ التمدن، ٣٥١/١-٣٥٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧٢/٢.

(٦) مؤلف مجهول: العيون والحدائق، ٢٩١/٣.

(٧)المصدر نفسه والصفحة.

في نشر الاستقرار والأمن عن طريق العطايا والهبات وقمع الفتن والثورات.

والمرجح أن زوجات رجال الدولة وغيرهم كان لهن أيضاً دورُ لا يستهان به في المساهمة في منشآت الدولة؛ لكن المصادر قد ضنت علينا بذلك اللَّهم إلا ابن حوقل؛ إذ أورد في كتابه أن بَعْضَ نِسَاءِ بني العباس اشَتَرَكْنَ في شراءِ مراكب حتى يتغلبوا على خور عظيم كان يبتلع هذه السفن[١]، وهذا في حد ذاته يجعلني أجزم بدور المرأة الاقتصادي ويجعلني أحلل أسباب ذلك بأنه قد تكون هذه المراكب تحمل بضائع تخص هؤلاء النسوة سواء بضائع لاستعمالهن الخاص مثل الثياب والمجوهرات وأدوات الزينة، أم أن هذه البضائع قد تتاجر فيها هؤلاء النسوة بالبيع على نساء بغداد أو تصديرها إلى خارج بغداد أو يكون ذلك مُسَاهَمَةً مِنْهُنَّ في إصلاحِ هذا الخورِ[٢].

أَمَّا عن نساء الطبقة الوسطى والكُتَّاب والتُّجار فإن المصادر قد ضَنَّتْ بذكر قيامهن بأي من المنشآت في الدولة –وهذا حال أغلب المصادر فإنَّ المعلومات تكون أكثرَ ثراءٍ عن الطبقة الحاكمة وتكاد تكون نادرةً أو معدومةً عَنْ غَيْرِهَا مِنْ الطبقاتِ.

أما عن نفقات جواري العصر العباسي الأول فَلَمْ أَعْثُرْ في المصادر ما يشير إليها، لكن لا استبعد أن هؤلاء الجواري كُنَّ يُنْفِقْنَ الكثيرَ على زينتهن وملابسهن.

وصفوة القول، أن المرأة في العصر العباسي الأول قامت بدور اقتصادي لا بأس به في مجال المنشآت والإنفاق عليها وما النماذج القليلة التي ذكرتها إلا دليل على مشاركتها. هذا فإن دل على شيء فإنما يدل على وعي المرأة بأحوال دولتها الاقتصادية ومساعدتها على ذلك تدفق الخيرات من الآفاق البعيدة .

---

(١) وصف ابن حوقل هذا الخور بقوله:«وكان على ركن الأُبُلَّة في دجلة بين بدى نهرها خور عظيم الخطر، جسيم الضرر، دائم الخور، وكانت أكثر السفن تسلم من سائر الأماكن في البحر حتى ترده فيبتلعها وتغرق فيه، وكان يعرف بكرداب الأُبُلَّة وخورها؛ فاحتالت بعض نساء بني العباس بمراكب إشترتها، فأكثرت منها وأوسقتها بالحجارة، العظام وبلّغتها ذلك المكان فابتلعها،وقد تواخت مقدار فانسد المكان وزال الضرر»=صورة الأرض (بيروت، ١٩٧٩)، ص٢١٣، قال الأصمعي: «جنات الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأُبلة»= الحموي: معجم البلدان، ٧٧/١.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢١٣.

المبحث الثالث: الأعمال والمهن التي قامت بها المرأة

إن المرأة تشكل نصف المجتمع وهذه حقيقة متفق عليها؛ لذلك فإنها دائماً تقف إلى جانب الرجل سواء كان والدها، أو زوجها، أو ابنها، أو أخاها، في أي مجال يعمل فيه وإن لم يكن وقوفها هذا أحياناً سافراً للعيان.

فلذلك سأحاول إلقاء الضوء على أعمال ومهن المرأة في العصر العباسي الأول وسنبين إذا كان قيامها ببعض الأعمال والمهن جاء نتيجة ظروف فرضها عليها المجتمع والحياة التي تعيش فيها، أما أنها اتخذت بعض المهن كنوع من العمل الذي يحتاج إلى التخفي مثل التَّجَسُّسُ؛ فلذلك اقتضت دراسة هذا المبحث التركيز على المحاور الآتية:

١- أنواع المهن التي قامت بها المرأة وأسباب لجوئها إلى القيام بهذه المهن.

٢- المهن القديمة والمهن المستحدثة التي جاءت مع الوافدات للدولة.

إن المستوى الاقتصادي للمرأة في العصر العباسي الأول متفاوت حسب الطبقة التي تنتمي إليها، بيد أن المصادرلم تعطني صورة واضحة عن وضعيتها الاقتصادية إلا إشارات متناثرة حاولت تتبعها لمعرفة المستوى الاقتصادي للمرأة عند العامة، والدوافع التي جعلتها تلجأ إلى العمل، وأهم الأعمال التي قامت بها.

لقد عانت المرأة عند العامة من ضنك الحياة الاقتصادية؛ بالرغم من تدفق الخيرات والأموال من جميع الآفاق على الدولة العباسية، وبالرغم من حياة الترف التي كان يعيشها أصحاب الطبقة الحاكمة والأغنياء، وذلك بسبب ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة في بغداد؛ الأمر الذي كان غير محتمل بالنسبة لهؤلاء الذين عانوا من البؤس(١)، وهذا بالتالي ينعكس على وضعية المرأة عند العامة ويدل على التفاوت الاقتصادي بين الطبقات، والذي أدى إلى لجوء المرأة إلى الاشتغال ببعض المهن لرفع مستواها الاقتصادي.

ومن المهن التي زاولتها المرأة الغَزْل، وتعد هذه المهنة من المهن المريحة على مرِّ

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس (الكويت، ١٩٧٣م)، ٥٩٤/١. كذلك حسن أحمد محمود وزميله: العالم الإسلامي، ص٢٣٨.

العصور وخاصة في العصر العباسي الأول، فقد جاء رجل إلى الخليفة أبي جعفر المنصور يسأله المعونة لكثرة عياله من البنات لكن المنصور[١] لم يعطه أية مساعدة لأن لديه أربع بنات يعملن بالغزل، وهذا بالطبع يدر عليه كثيرًا من المال، وتعتبر مَهْنةُ الغزل من المَهْنِ التي يشجع علماء الدين عليها ويعتبرونها من لزوم آداب المرأة، ملازمتها مغزلها[٢].

كما جعل علماء الدين[٣] أيضاً الغزل من المهن التي تعد أرباحها حلالاً يجوز للمرأة أن تحج بها إذا شاءت[٤]، وفي هذا دلالة على أن المرأة كانت تقصد من وراء اتخاذها مهنة ما أن تحفظ بذلك ماء وجهها من التَّسَوُّل ، أو أن تعمل ببعض الأعمال المشينة كالبغاء مثلاً.

ولقد لجأت المرأة إلى مهنة الغزل بخاصة لأنها تعتبر من أفضل المهن للنساء المتعففات، فقد كان واصل بن عطاء[٥] يلازم الغزالين، ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته عليهن[٦]، ولكن بعض النسوة كن يتذمرن من هذه المهنة خاصة اللواتي يعملنّ في قصور الخلفاء[٧]. لكن مهنة الغزل لا تقوم بها المرأة الحرة كمهنة وهذا متعارف عليه، وربما زاولت المرأة الحرة الغزل في منزلها لأن الغزل كان يعتبر ملهاة للمرأة وأداة للهوها؛ فقد ورد في أمثال العرب: «نعم لهو الحرة المغزل»، فهي بذلك لا تزاول الغزل كمهنة ترفعاً وابتعاداً عن العمل الشاق[٨].

ومن المعلوم أن مجتمع بلاد ما بين النهرين مجتمع زراعي وهذا أمر لا تشك فيه؛ لذلك أطلق على أرض العراق (أرض السواد)، ومن ثم لزِاماً على المرأة في بغداد أن تقوم

---

(١) رد المنصور على الرجل قائلاً: أنت أيسر العرب، أربع مغازل يدرن في بيتك= الطبري: تاريخ الرسل، ٧٥/٨. كذلك ابن الأثير: الكامل، ٤٨/٥، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ٣٥٢/١.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين (القاهرة ، بدون تاريخ)، ٧٥/٤.

(٣) جاءت امرأة إلى أحمد بن حنبل وقالت له:«يا أبا عبد الله أنا امرأة أغزل بالليل في السراج، فربما طفئ السراج، فأغزل في القمر، فعلي أن أبين غزل القمر من غزل السراج»=البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٦/١٤.

(٤) السيوطي:المستظرف من أخبار الجواري، ص٢١.

(٥) واصل بن عطاء،هو رأس المعتزلة،ومن أئمة البلغاء المتكلمين،لم يكن غزالاً،وإنما لقب بذلك لأنه كان يتردد على دكاكين الغزالين= ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١١/٦.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٠/٦.

(٧) كانت مجموعة من النساء يغزلن في قصور المنصور، فقالت إحداهن:«لو أن الأمير نظر إلينا، واطلع على حالنا، لأغنانا عن الغزل= ابن كثير: البداية والنهاية، ٧٨/١٠.

(٨) الألوسي، السيد محمد شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (بيروت، بدون تاريخ)، ٣١٠/١.

بالزراعة إلى جانب الرجل، وهي فعالية اقتصادية أساسية في مجتمع زراعي[١].

وترتبط مهنة الغزل بتربية الماشية وهي أيضاً فعالية اقتصادية قائمة بذاتها؛ لتستفيد من وبر الماشية وبيعه لمن هم يقومون بالغزل، وقد تحصل بعض النساء على رؤوس من الماشية من صداقهن عند الزواج[٢].

وقد يكون إسهامُ المرأةِ في مهنة الزِّراعة وتَرْبية الماشية لَهُ وجهين: أحدهما بهدف مشاطرة رب الأسرة العمل ومعاونته في ذلك، والآخر أنها أرادت من ذلك الارتزاق، كأن تعمل بأجر تبيع وتشتري في المحاصيل الزراعية ومن الماشية خاصة إذا لم يكن لديها عائل، كما أن غزل الصوف والوبر من الأعمال التي لا يحبذ المجتمع العربي أن يقوم بها الرجل؛ إذ أنها لا تليق به، فتقوم بذلك المرأة[٣].

واتخذت المرأة التجميل كمهنة في عصر انتشرت فيه وسائل الزينة خاصة الزينة التي جاءت بها الوافدات من الجواري. فعملت النساء ماشطات ويطلق على من تقوم بهذه المهنة «الماشِطَة»، فكانت نساء بغداد أبان العصر العباسي الأول يستعن بالماشطة للقيام بتصفيف شعورهن وهي من المهن المحرمة ولا يجوز أن تحج من وراء هذا الكسب، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن هذه الماشطة، ربما تقوم بجميع وسائل التزيين من تنميص[٤] وتزجيج[٥] وغيرها، وهي من وسائل الزينة التي نهى عنها الإسلام فلم يُجِزْ أحمد بن حنبل لامرأة جاءت تسأله أن تحُجَّ بالمال الذي جمعته من « التمشيط »[٦].

ووجدت من النساء غير الماشطات التي عملت في مهنة التجميل كالمُتَفَلِّجاتِ[٧] والمتنمصات[٨] والمتزججات[٩] والمتوشمات[١٠] كل حسب اختصاصه، وقد تزور هؤلاء

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٧٦.كذلك جرجي زيدان: تاريخ التمدن،٣٣٦/١، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٣٠٥/١، صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٨٨- ٣٨٩.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٣٠٥/١.

(٣) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٤) تنميص الحواجب: نتف ما بها من شعيرات كثيرة= الطاهر احمد الزاوي:مختار القاموس،الدار العربية للكتاب (بدون مكان،١٩٨١م)، ص٦٢٠.

(٥) تزجيج الحواجب: ترقيقها=ابن منظور: لسان العرب، ٢٨٥/٢.

(٦) قائلاً لها: «أنه لا يجوز أن تحج من التمشيط وأنه ليس هاهنا أحل من الغزل»= السيوطي: المستظرف من أخبار الجواري، ص٢١.

(٧) المتفلجات: النسوة اللآتي يجعلن بين أسنانهن فجوات تزيد من الحسن والجمال=ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٣٣٩.

(٨) المصدر نفسه والصفحة.

(٩) الجاحظ: المحاسن والأضداد (بيروت، ١٩٦٩م)، ص١٨٢.

(١٠) المتوشمات: النسوة اللاتي يقمن برسم الوشم على أجسادهن= ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٦١/١. كذلك زكية العلي: التزين والحلي في العصر العباسي(بغداد، ١٩٧٦م)، ص٣٥.

النساء في بيوتهن، وإنما الغالب أن وسائل الزينة هذه كانت منتشرة بين الجواري اللأَّتي كن يردن من وراء ذلك أن يلفتن نظر العشاق إليهن، أو أنهن يردن أن يصلن إلى مرتبة ما في المجتمع، خاصة إذا ما احتواها رجل يتمتع بالمكانة الاجتماعية من ترف وثراء كما فعلت محبوبة[١] جارية المتوكل، والأمثلة على ذلك كثيرة سوف نناقشها في فصل الجواري، ولقد ابتعدت كثيرُ من الحرائر عن التزين بهذه الوسائل من الزينة؛ لأن ذلك سيعرضها للاستهزاء ممن هن في مقامها[٢].

واتخذت بعضهن الخط والكتابة كمهنة أيضاً، ولا شك أن عدد هؤلاء الكاتبات كان قليلاً؛ لأن طبيعة المجتمع اقتضت ذلك فلم تكن هناك مدارس يترددن عليها وبالتالي لم تكن ثمة حاجة أن تتعلم النساء القراءة والكتابة، لكن ضروب الزينة التي جاءت بها الوافدات من الجواري مثل الكتابة على العصائب[٣]، والملابس والمناديل[٤] والأدوات[٥] كُلِّهَا تتطلب وجود مثل هؤلاء الخطاطات والكاتبات، وقد ورد ذكر الكثير ممن استحسن خطهن عند الصولي (م:سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م) [٦].

ومما يؤكد أن هؤلاء عملن بمهنة الخط والكتابة أن أُعْجِبَ كَثْيرُ من الخلفاء بخطهن، فقد أعجب الخليفة المأمون بخط إحدى الجواري عندما رآها تخط خطاً حسناً [٧]كما كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاً[٨]، وورد ذكر الأدوات التي تستخدمها هؤلاء الكاتبات من المداد والورق، والقلم والسكين في وصف أحدهم لجاريته، كما أن مهنة الخط والكتابة من المهن التي تعتبر ذات مظهر ثقافي[٩].

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج على: الإماء الشواعر (بيروت،١٩٨٤م)، ص١١١. كذلك المسعودي: مروج الذهب، ١٢٥/٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٨.

(٣) الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحاق: الموشي والمظرف والظرفاء (القاهرة، ١٩٥٣م)، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢١٩ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٤٣ وما بعدها.

(٦) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أدب الكتاب (بيروت، بدون تاريخ)، ص٥٠.

(٧) من شعره في ذلك:

وَزَادَتْ لَدَنيا حُظوةً حين أطْرقت — وَفي إِصْبعَيها أسمَرُ اللَّونِ أهَيفُ

أصمُ سَميعٌ ساكنٌ متحرّكٌ — يَنالُ جَسيماتِ المُنى وهو أَعْجَفُ

= ابن عبد ربه الاندلسى: العقد الفريد (بيروت، ١٩٨٣م)، ١٩٨/٤.

(٨) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٨٩. كذلك السيوطي: المستظرف، ص٥١.

(٩) فقد ذكر أحمد بن صالح هذه الأدوات في وصف الجارية بقوله: «كأن خطها أشكال صورتها؛ وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلبها بعض أناملها وكأن بيانها سحر مقلتها، وكأن سكينها سيف لحاظها، وكأن مقطعها قلب عاشقها»= الصولي: أدب الكتاب، ص٤٨. كذلك الأصفهاني، الرغب : محاضرات الأدباء- تهذيب إبراهيم زيدان (بيروت، ١٩٨٦)، ص٤٧.

ومن المهن التي عملت المرأة بها، الحْجَامَة[1]، ولقد استغلت بعض النساء هذه المهنة في التجسس ونقل الأخبار، كما أن بعض الخلفاء وغيرهم استعانوا بهؤلاء الحجامات في معرفة الأحوال والأخبار في الدولة لأنهن أقدر على الدخول إلى البيوت،كما جعل الخلفاء لهؤلاء الحجامات رواتب شهرية تجري عليهن من الدولة[2]،وكذلك اتخذت المرأة من الرقيق في العصر العباسي تجارةً مربحةً وهي هنا من المهن التي تْدرُّ على من يقومون بها الأموال الطائلة،ومن أشهر من قام بهذه التجارة النخاسون [3] الذين لعبوا دورًا كبيرًا في تنشيط هذه التجارة،فقد وجد في بغداد سوق خاص لبيع الرقيق سُمِيَ الشارع الذي يقع فيه بشارع الرقيق[4].

والمرأة هنا اتخِذَتْ كسلعة بالبيع والشراء عن طريق تجارة الرقيق سواء الرقيق الأبيض الذي يقصد من ورائه تعليمهن الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية، أو كمحظيات للخلفاء وغيرهم من كبار الدولة، أو الرقيق الأسود الذي كان يتخذ لخدمة الحرائر في البيوت،وكان هؤلاء الرقيق على أنواع ويجلبون من مناطق شتى كالسند والهند وتركيا وصقلية وغيرها[5].

وكانت نساء الطبقة العليا وأعيان الدولة يرسلن من ينوب عنهن في شراء هؤلاء الرقيق،فقد بعثت ريطة بنت السفاح جاريتها عتبة في شراء رقيق لها من سوق الرقيق[6].

ومن المرجح أن النساء لم يقمن بهذه التجارة، ومما يؤكد ذلك أن المصادر لم تتطرق إلى اشتراك النساء في هذه المهنة. لذلك اختص بها النَّخاسون ومن يتصل بهم، ومن المؤكد أن هؤلاء الرقيق (الجواري) قد قمن ببعض المهن التي تناسبهن، فقد اتخذت الجواري البغاء كمهنة يسترزقن من ورائها،وكانت لهن أمكانهن الخاصة والمعروفة بهن[7]،

---

(١) الْحِجَامَةُ: احتجم طلب الحجامة، وقد احتجمت من الدم= ينظر ابن منظور: لسان العرب ،١١٦/١٢. والحجامة هي جذب الدم من العروق الرقاق المبثوثة في اللحم بواسطة وضع كأس أو كؤوس على المكان المراد علاجه من جسم الإنسان=على حسين الشطشاط: تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن ٣-٧هـ/٩-١٣هـ)،منشورات جامعة قاريونس(بنغازي، ١٩٩٩)، ٤٢٣/١،٤٢٥.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص١٤٨.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٥٣٤/٨.

(٤) الحموي:معجم البلدان، ٤٢٠/٢.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي(بيروت، بدون تاريخ) ٨٣/١.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص١٥٣.كذلك ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩٥-٩٦، الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص٢٨٣ وما بعدها، الألوسي:تجارة العراق، ص٢٣٨، عبد العزيز الدوري:مقدمة في التاريخ، ص٦٩ وما بعدها.

(٦) المسعودي: مروج الذهب، ٣٢٨/٣.

(٧) ذكر الجاحظ أن لهن زيهن الخاص بهن، ولذواتِ الرَّايات زيّ=البيان والتبيين(القاهرة، ١٩٧٥م)، ٩٦/٣.

بيد أن مجتمع بغداد كان ينظر إلى هذه المهنة نظرة احتقار واستهزاء، لذلك كنَّ يتعرضن للعقاب إذا حاولن تجاوز حدودهن[١].

وعملت بعض الجواري كساقيات في الحانات،وكن يتفنن في إبراز زينتهن ومفاتنهن من حيث تصفيف شعورهن وملابسهن وحليهن،محاولة منهن في جذب الرواد إلى هذه الحانات ولقد تغزل أَكْثَرُ شعراءِ العصر العباسي الأول بجمال هؤلاء الساقيات[٢].

وهناك الكثير من المهن التي قامت بها النساء، مثل عملهن مولدات للنساء (القابلات)[٣]، وواسيات وهذه المهنة أليق أن تقوم بها النساء دون الرجال، أو غاسلات[٤] للموتى من النساء خاصة أنه لا يجوز في الإسلام أن يقوم الرجل بغسل المرأة الميتة، أو أنهن عملن كممرضات أو طبيبات لعلاج النساء[٥]، أو كخبازات في بيوت الأغنياء والأعيان[٦]، أو كنائحات على الموتى[٧].

بالإضافة إلى أن المرأة لا بد أنها شاركت زوجها في مهنته كمساعدة، فقد وجد في بغداد كثير من البزازين[٨] والعطارين وكانت هناك بعض النساء اللاتي عملنّ بالعطارة[٩]، إما لأنهن كن يستخدمن العطر بكثرة أو لأنهُنَّ يعملن في مهنة العطارة[١٠]. ومن المؤكد أن المرأة كانت ذات فعالية اقتصادية من حيث كونها حافزًا للتُّجَّار والصُّنَّاع في جلب ما تحتاج إليه هذه المرأة من الضرورات والكماليات[١١]، فلذلك ازدهرت التجارة في بغداد بسبب موقعها التجاري الذي ساعد على نمو التجارة[١٢].

---

(١) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٢) قال أبو نواس متغزلاً في الساقية:

في كفِّ ساقيةٍ، ناهيكَ ساقيةً ... في حسنٍ قدٍّ وفي ظرفٍ وفي أدبِ

= ينظر ديوان أبي نواس– تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي (بيروت، ١٩٨٢م)، ص٧٢.

(٣) القابلات:مفردها قابلة، وهى المرأة التي تساعد الحامل عند الولادة وهى المُولِدة= على حسين الشطشاط: تاريخ الجراحة، ٧٣٥/٢.

(٤) السيد سابق:فقه السنة (بيروت، بدون تاريخ)، ٥١٦/١.

(٥) ذكر عن متطبب يدعى أبو الحسن (سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م) أنه جاءته امرأة لتتعالج عنده فقال لها: «أنا كحال، وهاهنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات»= الطبري: تاريخ الرسل، ١٠٠/١٠.

(٦) ابن الجوزي:المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،٦٩/١٠.

(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٥٦١٢/٨.

(٨) البزازين:تجار البَزُّ، وهو نوع من الأقمشة= ابن الجوزي:المنتظم، ٦٩/١٠.

(٩) الثعالبي:لطائف المعارف، ص٢٣٦.كذلك المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن، ١٩٠٦م)، ص١٢٨.

(١٠) كانت جمرة العطارة، عطارة أبي جعفر المنصور وأهل بيته= الطبري:تاريخ الرسل، ١٠٤/٨.

(١١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ، ص٦٧ وما بعدها.

(١٢) الطبري: تاريخ الرسل، ٦١٨/٧.

ومما لا شك فيه أن هذا النشاط التجاري الذي أصبح مظهراً من مظاهر الأبهة في العصر العباسي الأول قد دفع بسيدات الطبقة الوسطى وزوجات التجار والكُتَّاب إلى العمل في هذا المجال وإن لم تتطرق المصادر لذكر ذلك كثيراً بيد أن ابن حوقل ذكر أن النساء اشتركن في ردم خور الأُبُلة بالحجارة لتسلم السفن من السقوط فيه،وهذه الحادثة في حد ذاتها تؤكد لنا أن النساء اشتركنّ بالتجارة سواء في جلب البضائع من الآفاق البعيدة أم تصدير سلع بغداد إلى العالم الخارجي، ومما لا شك فيه أن بعض هؤلاء النساء قد يتخذن من بيوتهن ما يشبه الدكاكين يبعن فيها هذه البضائع[١].

ومجمل القول، أن المرأة قامت ببعض المهن حتى تستطيع أن ترفع من مستواها المعيشي،خاصة في الأوقات التي تصاب فيها الدولة بالإضطرابات وغلاء الأسعار نتيجة لتحكم الطبقة الحاكمة في الثروات والخيرات التي ترد إلى الدولة.

صفوة القول، إن المرأةَ في العصر العباسي الأول تمتعت بحريتها الاقتصادية من تصرف في أموالِها وهذا ما ينص عليه الشَّرْعُ الإسلاميُّ،ولقد مَكَّنهَا ذلك من أنها كانت لديها أملاك خاصة بها وبالتالي قامت بالمساهمة في تعمير الدولة عن طريق بعض المنشآت التي قامت بها حتى ولو كانت هذه المنشآت في سبيل الخير.

واتسمت المرأة أيضاً بالنفقات التي كانت تنفقها على هذه المشاريع أو على شئونها الخاصة، لكن ذلك ينطبق على النساء من طبقة الحكام والتجار وغيرهم من أعيان البلاد، لكن تركز هذه الأموال عند هذه الطبقة كان له آثاره السلبية على الأوضاع الاقتصادية مما ترتب عليه الثورات والفتنة في الدولة.

أما المرأة في الطبقة العامة فقد كانت تلجأ إلى العمل في أي مهنة من المهن حتى تستطيع أن تساهم في توفير ما تحتاجه في حياتها المعيشية،وهذه الأمور التي جعلتها تلجأ إلى القيام ببعض المهن الوضيعة نتيجة لتذبذب الأوضاع الاقتصادية أحيانًا في بلاط الدولة العباسية.

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢١٣. وكذلك سليمان العسكري: التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي(القاهرة، ١٩٧٢م)، ص٩١.

الفصل الثالث

دور المرأة الاجتماعي

المبحث الأول: - دور الحرائر الاجتماعي

المبحث الثاني: - دور الجواري الاجتماعي

المبحث الثالث: - الـــزينـــة

المبحث الأول: - دور الحرائر الاجتماعي

إن المفهومَ الأساسيَّ للحياة الإجتماعية للعلاقات القائمة بين أفراد المجتمع مُتَمَثِلُ في العلاقة بين الرجل والمرأة، لكونهما العنصرين الأساسيين في تكوين المجتمع، وانعكاس ذلك على الأسرة التي لابد وأن تتأسس بالزواج وما يترتب عليه من إجراءات لإتمامه، حتى تتكون بذلك الأسرة التي هي الخلية الأساسية في المجتمع.

ثم إن هذه الأسرة قد تستمر أو لا تستمر حسب العلاقات القائمة بين أفرادها والتي لا بد أن تكون المرأة هي العنصر المدبر لهذه الأسرة في جميع أطوار حياتها سواء كانت أُمَّاً أم أختاً أم ابنة، ومعرفة ذلك اقتضت تقسيم هذه الدراسة إلى المحاور الآتية:

١- الزواج من خطبة ومهر وصداق وحفلات زواج وتعدد زوجات، وطلاق وغيرها.

٢- دور المرأة داخل الأسرة كأم وزوجة، وأخت، وابنة.

تستند العلاقة بين الرجل والمرأة إلى عوامل تشريحية وفسيولوجية وما تتفرع عنه من فروق بين الطرفين تؤدي بطبيعة الحال إلى جَعْلِ كُلٍّ منهما مهيأً للعلاقة الزوجية؛ ولأن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة هي أساس المجتمع، فلا بد إذاً من استمرار هذه العلاقة عن طريق الزواج الذي حثَّ عليه الدين الإسلامي بما جاء في الآيات الكريمة[١]، والأحاديث النبوية[٢]، كما أن المؤرخين[٣] والفقهاء[٤] يذكرون أن للزواج فوائِداً كثيرةً.

ولما كان الزواج يسير على خُطَى منتظمة وشبه متعارف عليها في المجتمعات العربية من الخطبة والمهر وحفلة الزواج؛ إلا أن النظرات والمواقف في الزواج تختلف وتتباين حسب طبيعة المجتمع إلى ذلك، وقد اختلفت المواقف وتباينت في العصر العباسي بالنسبة للزواج بين مؤيد ومعارض، وأمسى لكل وجهة نظره في إبداء الأسباب للإقدام على الزواج أو العزوف عنه وهذا بالتأكيد يعود إلى وجود الجواري بكثرة، ويسر

---

(١) قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هَبِ لنَا منِ أزواجنا وَذِريِاتنا قرة أعين﴾ سورة الفرقان، الآية ٧٤، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أنَّ ينَكِحنَ أزواجَهُنَّ﴾ سورة البقرة، الآية ٢٣٠.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يامعشر الشباب مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَر وَأحْصَنُ للفَرْج**» =الالبانى،محمد ناصر:غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، منشورات المكتب الاسلامى (بيروت، ١٤٠٥هـ)، ١/١٤٠.

(٣) ذكر الجاحظ: «أن النساء حرث الرجال»=رسائل، ٢/١٤١.

(٤) ذكر الإمام الغزالي فوائد الزواج قائلاً: «أن للزواج خمسة فوائد وهي الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن»= إحياء علوم الدين، ٤/٦٨٨.

نيلهن، فلم يعد الرجل بحاجة إلى اتخاذ المرأة كزوجة، ونقل إلينا أحد مؤرخي العصر[١] ، هذه الصورة الاجتماعية، من خلاف موقف المعارضين لفكرة الزواجَ من انه همٌّ وغلٌّ وتكلفة في المهر وغلاء في المعيشة، فعند هؤلاء المتعة في اتخاذ السراري بالتسري [٢].

ويقدم الفريق الآخر الذي ينادي بالزواج من الحرائر حجته ويؤكدها بالدليل، فهم يفضلون الزواج بالحرائر على التسري بالجواري؛ لأن هؤلاء الجواري تداولتهن أيدي النخاسين، ونودي عليهن في أسواق النخاسة[٣].

ورغم اختلاف المواقف وتباين النظرات بالنسبة للزواج، فإن المرأة الحرة في العصر العباسي الأول احتفظت بمكانتها عند الرجل، ولا أدل من ذلك من أن العباسيين جعلوا النسب أمرًا لا بد منه، عندما تريد الحرة الزواج فلا يجوز لها أن تتزوج بمن هو غير كفء لها، لذلك أقام البيت العباسي الدنيا ولم يقعدها على زواج العباسة أخت الرشيد من جعفر البرمكي، بل إن بعض المؤرخين[٤] والدارسين[٥] جعلوا من ذلك سبباً مباشراً لنكبة البرامكة على الرغم من وجود أسباب أخرى لنكبتهم. ومن المؤكد أن خلفاء العصر العباسي الأول حافظوا على مكانة الحرائر الاجتماعية فيما يتعلق بمسألة النسب عند الزواج، وليس أدل على ذلك ما فعله أبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني عندما تقدم إليه خاطباً عمته آمنة بنت علي[٦]، وكذلك ما فعله الهادي مع علي بن الحسين بن علي وكان يلقب بالجزري[٧]، وقد تزوج من رقية بنت عمرو العثمانية وكانت تحت المهدي[٨] وحِرْص العباسيين على النسب، وتوخي حسن المنبت والمنشأ، فذلك سيرًا على سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن تأثيره على تنشئة الأبناء ولذلك زَوَّجَ الخليفةُ

---

(١) ذكر الجاحظ هذه الصورة بقوله: «من أراد قلة المئونة، وخفتاً لنفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر»= المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٢) ومن أقوالهم: «السرور باتخاذ السراري»، وأيضًا: «عجبت لمن استمتع بالسراري، كيف يتزوج المهائر»= الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٣) ومن أقوالهم في ذلك: «الجواري كخبز السوق، والحرائر كخبز الدور»= الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣٠، وقولهم: «لا خير في بنات الكفر وقد نودي عليهن في الأسواق ومرت عليهن أيدي العشاق»، «لا تفترش من تداولتها أيدي النخاسين، ووقع ثمنها في الموازين»= الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل، ٨ /٢٨٧ وما بعدها.كذلك ابن الأثير: الكامل، ١١٤/٥.

(٥) يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر (عمان، ١٩٦٨م)، ص٦٩.

(٦) وهدده قائلاً له: «ألست الذي كتبت إلي تخطب عمتي آمنة بنت علي، وتزعم أنك من ولد سليط بن عبد الله»= اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٦٧/٢.كذلك الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود: الأخبار الطوال – تحقيق عبد المنعم عامر (بغداد، ١٩٥٩م)،ص٣٨١، العبادي: التاريخ العباسي والفاطمي، ص٤٩.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ٨١/٥.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٢١٩/٨.

(٨) قال الهادي له: «أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين»= الطبري: تاريخ الرسل، ٢١٩/٨.

المأمونُ ابنَتَهُ أم حبيبة من على محمد بن الرضي[1].

لقد اختصت المرأة في العصر العباسي الأول بمقاييس جمالية وردت عند مؤرخي العصر وشعرائه أمثال أبي نواس، ومسلم بن الوليد، والعباس بن الأحنف، وغيرهم من شعراء الغزل، ومما لا شك فيه أن مقاييس الجمال هذه لم تظل مطابقة للنموذج الجمالي العربي الخالص بل زاحمته نماذج أخرى من الجمال الذي جاء متمثلاً في جواري[2] العصر العباسي الأول على اختلاف جنسياتهن[3].

ولقد نشطت الدعوة من قبل الفقهاء بعزل الحرائر البغداديات، خوفاً عليهن من التأثر بالجواري، لذلك لم يتسن للخاطب أن يرى عروسه؛ على الرغم من أن الإسلام أباح ذلك[4] وربما أراد الرجل في العصر العباسي الأول أن يحافظ على حرائره من الجواري فكان الرجال يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري[5]، ومن المؤكد أنه تم اختيار الرجل لعروسه عن طريق الخاطبة التي لم تمدني المصادر بدورها، والمرجح أن دور الخاطبة لا بد أن يكون موجوداً في مجتمع تحكمه الأيديولوجية الإسلامية، أو أن تتم الخطبة عن طريق ذهاب الرجل مع أهله لبيت عروسه أو من ينوب عنه، والرجل يعطي الموافقة على الزواج بنفسه، أما المرأة وليها هو الذي يعطى موافقتها على الزواج[6].

ومعلوم أنه إذا ما اتفقت الأسرتان على إتمام الزواج، فإنهم يتفقون بعد ذلك على المهر والصداق وتختلف قيمتهما حسب المكانة الاجتماعية لكل من الطرفين، ولقد حاول الكثير من الدارسين التفرقة بين المهر والصداق، فالمهر في الأصل العوض الذي يدفعه الرجل لأهل المرأة، أما الصداق فالعوض الذي يدفعه الرجل لزوجته[7]، لكن من المؤكد

---

(١) قال المأمون: «إنما أحببت أن أكون جدًا لامرئ والده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب»= اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٤٥٤/٢.

(٢) الوشاء: الموشي، ص١٦٣ وما بعدها.

(٣)الجهشياري: الوزراء، ص٢٨٣.

(٤) البخاري،محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري (بيروت، بدون تاريخ)، ١٨/٧.كذلك العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل: فتح الباري بشرح صحيح البخاري(القاهرة، ١٩٧٨م)، ٢١٦/١٩.

(٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام،٨١/١.كذلك السيد عبد العزيز سالم:العصر العباسي الأول، ص٣٣٥.

(٦) البخاري: صحيح البخاري،١٩/٧.كذلك العسقلاني: فتح الباري،٢١٩/١٩، موريس جودفروا : النظم الإسلامية، نقله إلى العربية فيصل السامر– صالح الشماع،دار النشر للجامعيين(بيروت،١٩٦١م) ص١٤٩.كذلك السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص٣٣٥.

(٧) القرطبي، أبو عبد الله بن محمد الأنصاري:الجامع لأحكام القرآن(بيروت، ١٩٦٥م)، ٢٣/٥.كذلك ينظر محمد عقلة: نظام الأسرة في الإسلام، مكتبة الرسالة (الأردن، ١٩٧٣م)، ٥٧/٢ وما بعدها، ليلى حسن سعد الدين: المرأة في الإسلام بنتاً–زوجة–وأماً،دار الفكر (عمان، ١٩٨٤م)، ص٨٥.

أن المهر والصداق معاً تستحق به الحرائر من النساء[١] وهو حق لهن[٢].

وهذا التفاوت يصور جانباً من جوانب المجتمع العباسي، وقد تجلى إسراف خلفاء العصر العباسي الأول في الإنفاق على المهر والصداق، فقد أمهر الخليفة المهدي أسماء أخت الخيزران ألف ألف درهم[٣]، وأمهر الرشيد السيدة زبيدة خمسين ألف درهم، ووهب إليها كثيراً من الحلي والجواهر[٤] وهذا يعكس صورة الثراء والترف الذي كانت تعيشه المرأة في العصر العباسي الأول، والذي أدى إلى كثرة أملاكها، وأمهر الخليفة المأمون بُوران بنت الحسن بن سهل سنة (٢١٠هـ/ ٨٢٥م)[٥]، مائة ألف دينار وخمسين مليون درهم[٦]، مما يؤكد مغالاة العباسيين في المهور، ويعكس الثراء الذي حازته نساء بغداد من الطبقة الحاكمة، وأدى إلى كثرة أملاكها.

ومما لا شك فيه أن المهور عند طبقة رجال الدين والتجار تفاوتت حسب الثراء والمكانة الاجتماعية لهم، أما مهور المرأة عند العامة فلا بد أن تكون أقل بسبب وضعها الاقتصادي والمعيشي، والذي لم يرد عنه تفصيل عند مؤرخي العصر، سوى ما ذكره البعض من أن خلفاء العصر العباسي وغيرهم من رجال الدولة مدوا يد العون لطالبي الزواج والذي أستطيع أن أستشف من خلاله قيمة المهر والصداق عند العامة. فقد ساعد معن بن زائدة على عهد المنصور أحد الشباب على الزواج؛ فَزَوَّجَةُ إحْداهُنَّ على عشرة آلاف درهم[٧].

كما أن الفضل بن يحيي البرمكي أعطى شاباً سأله المساعدة على الصداق، فأعطاه أربعة آلاف درهم للصداق الذي عقده على نفسه، وهذا ما يؤكد لنا أن الثروة تركزت عند أصحاب الطبقة الحاكمة الذين تمتعوا بالثراء والترف الذي عمَّ العصر العباسي الأول، أما العامة فكانت تعاني من ضعف الأوضاع الاقتصادية، لكن ذلك لم يمنعها من الزواج

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٣/٥.

(٢) لقوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صَدُقَاتهِِنَّ نحْلَةً﴾ سورة النساء،الآية ٤ .

(٣) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٨.

(٤) الشابشتي،أبو الحسن على بن محمد: الديارات– تحقيق كوركيس عواد (بغداد، ١٩٦٦م)، ص١٥٧.

(٥) واسمها خديجة وبوران لقبها= عنها راجع ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٧/١.كذلك ابن قتيبة: المعارف، ص٣٩١، القلقشندي: مآثر الإنافة، ٢١٢/١، الطبري: تاريخ الرسل، ٥٦٦/٨، ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٦٧.

(٦) الشابشتي: الديارات، ص١٥٧.كذلك ابن خلدون: المقدمة، ص١٧٣.

(٧) ذكر الطبري: «أن ابن الأزهر سأل معن بن زائدة في عهد المنصور ثلاث حوائج منها أنه كان يعشق امرأة من أهل بيته يقال لها زهراء، وكانت إذا ذكر لها قالت بأي شيء يتزوجني؟ أَبِجِبَّتِهِ الصوف، أم بكسائه، فزوجه إياها على عشرة آلاف درهم، وأمهرها من عنده»= الطبري: تاريخ الرسل، ٦٦/٨–٦٧.

وتقديم الصداق بقدر استطاعتها[١].

ونستفيد من حفلات الزواج الذي ذكرها المؤرخون في العصر العباسي الأول من تصوير جانبٍ آخر من جوانب المجتمع البغدادي؛ إذ توضح لنا مدى مكانة المرأة وتقديرها في المجتمع،حيث اهتم العباسيون بحفلات الزواج اهتماماً كبيراً، وأسرفوا في الإنفاق عليها، ونقل لنا بعض المؤرخين المعاصرين[٢] صورة لبعض هذه الحفلات التي تجلى فيها إسراف الخلفاء العباسيين وبدأ ذلك في عهد المهدي؛ لأن الخلفاء الذين سبقوه، قتروا في النفقات، لإقامة صَرْحِ الدولة وترسيخ قواعدها، فقد أقام هذا الخليفة وليمة لم يسبقه إليها من المسلمين أحد عند زواج ابنه هارون من السيدة زبيدة عام (١٥٩هـ/٧٧٦م) بدار محمد بن سليمان[٣]، كما وهب العروس الكثير من الجواهر والحلي، حتى أنها لم تستطع المشي من كثرة ما عليها من المجوهرات[٤].

وبلغ من إسرافه أنه وهب الناس أواني الذهب مملوءة بالفضة، وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك[٥]، وبلغت نفقات الزواج خمسين ألف ألف درهم [٦]، ويقال أن نفقات هذا الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ٣٨٨,٠٠٠ دينارًا، وأكدت السيدة زبيدة أن نفقات زواجها تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم[٧].

وبُوران بنت الحسن بن سهل تمتعت بمكانة اجتماعية، واقترن بها المأمون لمكانة أبيها عنده[٨]، وأسهب المؤرخون في وصف حفلة زواجها من الخليفة المأمون ونفقات هذا الزواج[٩]، فقد نثر والدها الحسن بن سهل من الأموال ما لم ينثر ملك قط في جاهلية أو إسلام[١٠]، وقيل أن دار الطبخ استمرت في التحضير ليوم وليمة العرس عام كامل،

---

(١) الجهشياري: الوزراء، ص١٩٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٥٩/٨، ٥٦٦ .كذلك المسعودي: مروج، ٣٠/٤.

(٣)ابن كثير: البداية والنهاية، ٢٢٢/١٠ .كذلك البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ – تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت،١٩٨١م)، ١٥٣/١.

(٤) الشابشتي: الديارات، ص١٥٧.

(٥)المصدر نفسه والصفحة.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٤/٢.

(٧) الشابشتي: الديارات، ص١٥٨ .كذلك حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٤٢/٢.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٧/١.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل، ٥٦٦/٨ .كذلك المسعودي: مروج، ٤٠/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٧/١ وما بعدها، ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة، ص١١٣.

(١٠) المسعودي: مروج، ٣٠/٤.

وكان ينقل من الجريد مائة وأربعين بغلاً ثلاث مرات كل يوم[١] وقيل عن دعوة الحسن بن سهل لزواج ابنته بوران أنها دعوة السلام[٢]، فقد نثر على القواد الهاشميين بنادق المسك، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جواري، ونثر على الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر[٣]، وأوقد بين يدي المأمون في تلك الليلة شموع العنبر[٤]، كما أنفق الحسن بن سهل على قواد المأمون وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه طول فترة أقامتهم عنده[٥].

وبلغ الإسراف حده في هذا الزواج عند زفاف بوران إلى المأمون، إذ جلست على حصير من ذهب ونثرت عليها جدتها ألفًا وثلاثمائة درة، فأعجب المأمون بذلك[٦]، حتى أنه منح الحسن بن سهل خراج إقليم فارس وكور الأهواز لسنة كاملة[٧]، فضلاً عن خراج إقليم فم الصلح[٨]، وأسهب خطباء وشعراء العصر العباسي الأول في وصف هذا الزواج[٩]، والراجح أن حفلات الزواج عند طبقة التجار وكبار الدولة وعند العامة كانت أقل قدراً، وتتفاوت حسب المكانة الاقتصادية والاجتماعية لكل فئة من طبقات التي تشكل المجتمع العباسي، وإن لم يرد عن المؤرخين ما يعطينا صورة عن حفلاتهم.

ومعلوم أن انتشار ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع البغدادي إبان العصر العباسي

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص١٧٣.كذلك عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٢٦.

(٢) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٠.

(٣) المسعودي:مروج الذهب، ٣٠/٤.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل، ٦٠٧/٨.كذلك ابن الأثير:الكامل، ٢١١/٥، جابر الشكري: الطيب والعطور، مجلة المورد،العدد ٤ (بغداد، ١٩٨٥م)، ص٧٤.

(٥) ذكر الثعالبي، قال المبرد: «سمعن الحسن بن رجاء كنا نجري أيام مقام المأمون عند الحسن بن سهل على ستة وثلاثين ألف فلاح، وعندما نفذ الحطب أوقدنا الخيش المغمور بالزيت تحت القدور»= لطائف المعارف، ص١٢٠-١٢١.كذلك اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٤٥٩/٢.

(٦) حينما علق على ذلك بقول أبي نواس:

كـأنَّ صُـغرى وكُبـرى مـن فواقِعِهـا ... حصـباءُ دُرٍّ علــى أرضٍ مــن الـذهبِ

= ينظر: ديوان أبي نواس، ص٧٢.كذلك ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٨/١.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل، ٦٠٧/٨.

(٨) فم الصلح: نهر كبير بواسط وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون وفيه بنى المأمون لبوران= الحموي: معجم البلدان، ٢٧٦/٤.

(٩) ومن أطرف ما قيل، قول محمد بن حازم الباهلي الذي نشأ بالبصرة وسكن بغداد، فأكثر الهجاء ولم يمدح إلا المأمون:

بـــارك الله للحَسَـــنْ ... وَلبُـــورَانَ فـــي الِخَـــتَنْ

يـــاابن هـــارون قـــد ظَفَـــرْتَ ... ولكـــن ببنـــت مـــن

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٨/١.

الأول رغم اتسام حفلات الزواج بطابع البذخ والتكاليف الباهظة، حقيقة اتخذ الرجل أكثر من زوجة في العصور السابقة[1]،ولكن بالرغم من أن التعدد وما ملكه الرجال من النساء ملك اليمين مسموحًا به في الإسلام، فإنه لم يكن قاعدة عامة، إذ اكتفى البعض بزوجة واحدة لتناسب ذلك مع ظروفه المادية، أو بسبب مكانة زوجته عنده، فقد اشترط السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) لزوجته أم سلمة[2] أن لا يتزوج عليها، ولا يتسرى[3] بالرغم من أن المحيطين به حثوه على الزواج بغيرها[4]، كذلك اشترط المنصور لزوجته بنت منصور الحميرية، أن لا يتزوج ولا يتسرى عليها وكتب بذلك كتاباً[5].

ودعا البعض[6] إلى التحرر من تعدد الزوجات لما ينجم عنه من أضرار وبذلك أستطيع القول أن المجتمع العباسي استطاع التحكم في هذا الكم الهائل من النساء، لكن المؤكد أن صورة الزوجة الواحدة لم تبق كما هي بل برز من ينادي بالتعدد، خاصة أنهم اعتقدوا بضرورة نظام تعدد الزوجات عند الحاجة، ولقد أورد مؤيدو التعدد وجهات نظرهم في ذلك[7] وترتب على ذلك انتشار ظاهرة تعدد الزوجات سواء من الحرائر أو من السراري اللاَّتي يصبحن أمهات أولاد بعد إنجابهن للأبناء. ومعلوم أن المرأة هي العنصر الثاني في الزواج، فلذلك كان لها تأثيرها في المجتمع، فقد ترتب على ظاهرة تعدد الزوجات أن تعددت أمهات أولاد الخلفاء، مما سبب الصراع والنزاع بين هؤلاء الأبناء الذي انعكس بدوره على المجتمع العباسي في بغداد[8].

فقد تعددت زوجات أبي جعفر المنصور، فأنجب من أروى بنت منصور الحميرية[9]

---

(١)غوستاف لوبون:حضارة العرب –ترجمة عادل زعيتر (القاهرة، ١٩٥٦م)، ص٣٩٧ وما بعدها.

(٢) هي ابنة يعقوب بن سلمة بن عبد الله تزوجها عبد العزيز بن الوليد فهلك عنها ثم تزوجها السفاح= ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ص١١٤.

(٣)ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٤/٥.كذلك زينب فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار المعرفة(بيروت، بدون تاريخ)، ص٥٨.

(٤) فقد رغب خالد صفوان السفاح في الزواج بقوله: «وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستظراف الجواري فمنهن الطويلة الغيداء، والبيضة البيضاء، ولو رأيت السمراء اللعساء من مولدات البصرة والكوفة وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنًا ومنظرًا حسنًا»= البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٣٩.كذلك صلاح الدين المنجد: جمال المرأة عند العرب، دار الكتاب الجديد(بيروت، ١٩٦٩)، ص٥٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ٨٦/٨، المسعودي:مروج، ٢٧٥/٣، الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٧.

(٦) ذكر الجاحظ ذلك: «لا تتزوج اثنتين فتقع بين جمرتين، ولا تتزوج ثلاثًا فتقع بين أثافي، ولا تتزوج أربعاً فيهدمنك ويفلسنك»= المحاسن والأضداد، ص١٣٠.

(٧) بقولهم:«لا تتزوج واحدة فتحيض إذا ما حاضت، وتنفس إذا أنفست وتعود إذا عادت، وتمرض إذا مرضت»= الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٠-١٣١.

(٨) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٣٩٧.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل، ١٠٢/٨.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٧/٥.

المهدي وجعفر، ومن فاطمة بنت محمد[١] سليمان، وعيسى ويعقوب، ثم تزوج أم ولد رومية يقال لها قالي الفراشة، فولدت له صالح المسكين، ومن أبنائه أيضاً العالية، أمها امرأة من بني أمية، والقاسم وأمه تعرف بأم القاسم، وجعفر الأصغر أمه أم ولد كردية[٢]، ومن زوجات المهدي ريطة بنت السفاح وهي من الحرائر، والجارية رحيم التي ولدت له العباسة، والخيزران ولدت له موسى وهارون[٣] والبانومة[٤].

وتزوج الرشيد بعدد من الزوجات ومن زوجاته زبيدة ابنة أبي جعفر المنصور التي ولدت له محمد الأمين[٥] ثم مراجل التي أنجبت عبد الله المأمون[٦]، ومارِدة أم المعتصم[٧]، ونادر التي ولدت صالحاً، وشجاع أم خديجة ولبابة، وسريرة التي ولدت محمداً، وبربرية والدة أبا عيسى والقاسم وسكينة، والعباسة بنت الغطريف ابنة خاله، ومات الرشيد عن أربع مهائر (حرائر) هن أم جعفر، وأم محمد، والعباسة بنت سليمان ابن المنصور والجوشية بنت عبد الله العثمانية[٨].

ومعلوم أن تعدد الزوجات في العصر العباسي الأول سبب النزاع بين أبناء الخليفة الواحد من أجل السلطة، ونجم ذلك عن أن أَغْلَبَ أُمهَّاتِ الخلفاءِ غَيْرُ عربيات وذلك لتزوج هؤلاء الخلفاء من نساء أجنبيات دون المبالاة بأصولهن حتى أصبح البلاط العباسي يعج بهؤلاء الأبناء من الأمهات غير العربيات فيما عدا ثلاثة منهم فقط أمهاتهن حرائر وهم السفاح وأمه ريطة[٩] بنت الحارث بن كعب، والمهدي أمه أم موسى[١٠] بنت منصور، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر المنصور[١١].

وكما أن الطلاق وجد في كل العصور، وللطلاق أسبابه منها طبيعة المجتمع، ولكن

---

(١)المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك ابن سعد،محمد بن سعد البصري:الطبقات الكبرى(بيروت، بدون تاريخ) ٣١٣/٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ١٠٢/٨.

(٣)ابن عبد ربه الأندلسي: المصدر السابق، ١١٥/٥.

(٤)المصدر نفسه، ١٨٦/٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ١٣١/٥.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٧/٥، محمد الخضري بك: الدولة العباسية محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية الكبرى(القاهرة، ١٩٧٠م)، ص١٣٨.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٦٠/٨.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٧/٥.

(٧)المصدر نفسه، ٣٦٠/٨.

(٨)المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك ابن الأثير: الكامل، ١٣١/٥، ابن حزم، أبو محمد الاندلسي: جمهرة أنساب العرب– تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة، ١٩٧١م)، ص٢٣.

(٩) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٤.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٤/٥.

(١٠)المصدر نفسه والصفحة.كذلك حسن إبراهيم حسن: التاريخ السياسي، ٤٢٣/٢.

(١١) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٠٩/٨.كذلك ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٣.

أسباب الطلاق في العصر العباسي الأول ظلت غَيْرَ واضحةٍ لأن مؤرخي العصر لم يهتموا بذلك، وإنما انصب اهتمامهم على أخبار الخلفاء، وأن أورد البعض إشارات عابرة حاولت تتبعها لأعطي صورة عن أسباب طلاق المرأة في عصر تدفقت فيه الخيرات وكثرت الجواري اللاتي لا بد أنهن أحد أسباب وقوع الطلاق، مثلما حدث مع أبي دلامة عندما أراد أن يتخلص من زوجته العجوز فطلب من الخيزران أن تهبه جارية من جواريها، فوعدته بتحقيق مطلبه[١].

وساعد على تشويه هذه الصورة أن الرجل في العصر العباسي الأول لم يكن يرى زوجته قبل الزواج، ومن ثم كانت الإماءُ أَكْثَرَ حظوةٍ عند الرجل؛ لأنه قبل أن يملك الأمة تأمل فيها كل شيء، وأما المرأة الحرة فإنما يستشار في جمالها النساء، والنساء قد لا يبصرن من جمال المرأة إلا ظاهره والذي قد لا يوافق ميول ورغبات الرجل، فيؤدي ذلك إلى الطلاق[٢]، وقد يكون من دواعي الطلاق سوء سلوك أحد الزوجين نتيجة إهمال الرجل لزوجته الحرة وإقباله على الجواري، ومن طريف ما يذكر عن الطلاق في العصر العباسي الأول أن الرجل أحياناً قد يلجأ إلى تطليق زوجاته كُلِّهِنَ مَرْةً واحدةً [٣].

ولمَ يقف الأمر عند حد الطلاق بل أن المرأة المطلقة والأرملة في العصر العباسي الأول نُظر إليها نظرة ملؤها الشك والريبة في معظم الأحيان؛ فعزف الرجال عن الزواج من المطلقات مما حدا بأحد مؤرخي[٤] العصر إلى انتقادهم وكثيراً ما تعرض أبناء المرأة المطلقة والأرملة للسخرية إذا تزوجت أمهم بعد طلاقها أو وفاة زوجها من رجل آخر[٥].

الواقع أن صورة المرأة الحرة في المجتمع العباسي ظلت من ناحية الزواج، كما هي محتفظة بمكانتها الاجتماعية من حيث العرف والتقاليد الاجتماعية الموروثة، ولم تتأثر بالتقاليد المجلوبة، وساهم الرجل كثيرًا في حفظ هذه المكانة.

وقد أثر وجود الجواري على قيد الحياة الأسرية في مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول؛ إذ كان من الصعب على الرجل التوفيق بين زوجاته من الحرائر والجواري

---

(١) الألوسي: نهاية الأرب، ٤٥/٤ .كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٣٩٨/١.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ١٨٠/٢.

(٣) روى الأصمعي للرشيد: «أن رجلاً طلق في يوم واحد خمسة نسوة، قال الرشيد: إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة، فكيف طلق خمسًا...؟ قال أربع زوجاته، والخامسة أحد جاراته عندما دخلت عليه وأخذت توبخه على فعلته»= ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٨/٦.

(٤) ذكر الجاحظ: «أن الرجال يعافون المرأة الحرة إذا فارقت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار واللوم، بالرغم من أننا نجد في المقابل أنهم يتحظون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالي»= رسائل،١٨٥/٢.

(٥) حدث في عهد المعتصم أن امتحن رجل كاتباً فسأله عن صديق تزوج أمه هل تكتب إليه التهنئة أم تعزية فقال: هو إلى التعزية أقرب=آدم متز: الحضارة الإسلامية، ١٨٠/٢.

والحظيات[١] وأبنائهن، وحاولت بعض الحرائر المحافظة على العلاقات الأسرية أمام هذا التيار الجارف، وبرزت منهن من عبرت صراحة عن حُبِّهِنَ لأزواجهن، وهذه السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد تُعَبِّرُ صراحة عن اشتياقها لزوجها ومحاولتها استمالته للحضور إلى بغداد بعد أن طال غيابه في الرقة[٢]، وكان الرشيد يطيب له المقام فيها وطال بقاؤه بها مرة، فطلبت السيدة زبيدة من أحد الشعراء[٣] أن يقل شعراً يحبب فيه بغداد إلى أمير المؤمنين[٤] وعاد الرشيد بعد أن وصلته أبيات الشعر، فوهبت زبيدة للشاعر جوهرة ثمينة[٥].

وسعت الزوجة في العصر العباسي الأول إلى جذب الزوج إلى بيته إذا ما رأت منه عزوفًا وميلاً إلى الحظيات والجواري حتى إذا اضطرت إلى أن تشكوه لأقاربه، فقد شكت زبيدة هارون الرشيد إلى أهله وعمومته عندما رأت منه تعلقه بالجارية (دنانير)، فعاتبوه على ذلك[٦]، وشكته زبيدة أيضاً إلى أخته عُلَيَّة بنت المهدي التي تصرفت بحكمة تنم عن ذكاء ورجاحة عقل، إذ طلبت من زبيدة أن ترسل لها جواري تلبسهن ألوان الثياب، فخرجن هؤلاء الجواري وهن زهاء ألفي جارية عليهن غرائب الثياب يغنين في لحن واحد، فاستحسن الرشيد ذلك[٧].

ومعلوم أن الخلافاتِ الزوجيةِ أَمْرُ لاُ بَّد منه في الحياة الأسرية، وإن حاولت المرأةُ في العصر العباسي الأول القضاء على هذه الخلافات ولكنها كغيرها من النساء تحدث بينها وبين زوجها الخصومات والمشاجرات، فقد وقع بين المهدي والخيزران خلافات كثيرة بالرغم من منزلتها عنده[٨]، كما وقع الخلاف بين هارون الرشيد وزوجته السيدة زبيدة فَتَهَاجَرَا[٩].

---

(١) المسعودي:مروج الذهب، ٣١٨/٤.كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية، ١٣٢/٢.

(٢) الرقة: مدينة على نهر الفرات= الحموي: معجم البلدان، ٥٨/٣- ٥٩.

(٣) الشاعر: هو منصور النمري كان يعزي إلى الرشيد بالخؤولة من جهة نثيلة النمرية أم العباس بن عبد المطلب، ويكنى أبو الفضل= ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٢٤١ وما بعدها.كذلك الكتبي: فوات الوفيات، ١٦٤/٤.

(٤) من هذه الأبيات:

ماذا ببغداد من طيب أفانين	**ومن عجائب للدنيا وللدين**
إذا الصبا نفحت والليل معتكر	**فحرشت بين أغصان الرياحين**

=ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٢٤٦.

(٥)المصدر نفسه والصفحة.كذلك الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٥١/١.

(٦) رد الرشيد عليهم قائلاً: «مالي في الجارية أرب وإنما أربي في غناها»= الأصفهاني: الأغاني، ٦٨١٧/١٠.كذلك زينب فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص١٩٣.

(٧) الأصفهاني:الأغاني، ٣٦٣٦/٥.

(٨) قالت الخيزران للمهدي في إحدى هذه المشاجرات: «ما رأيت منك خيراً منذ عرفتك يا قشاش يا كناس»= الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ١٤/ ٤٣١.كذلك ابن كثير:البداية والنهاية، ١٥٣/١٠، رمزية الأطرقجي: الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول،رسالة دكتوراه (القاهرة،١٩٧٢)، ص٢٥٨.

(٩) ابن خلكان: وفيات، ٣١٥/٢.

ورغم وجود هذه الخلافات الزوجية فإن المرأة قامت بدور كبير في إنهائها كما كافأت كل من يسعى بينها وبين زوجها بالصلح، فقد كافأت الخيزران أحدهم بألفي دينار وأثواب وهدايا عندما أصلح بينها وبين الخليفة المهدي(١)، كذلك كافأت زبيدة أحد الشعراء(٢)، عندما علمت أنه هو السبب في عودة الرشيد إليها بعد خلاف وقع بينهما، خاصة أن الرشيد –رغم كثرة الجواري في قصره– كان يجد زبيدة وجدًا كبيرًا وشديدًا(٣)، كما أنها كافأت القاضي أبي يوسف(٤) عندما أوحى إلى الرشيد بإهداء الجواهر التي بين يديه إلى السيدة زبيدة لأنها تستحقها أكثر من غيرها، خوفًا أن يهديها الرشيد إلى بعض جواريه، كذلك كافأت الأصمعي(٥) عندما استطاع أن يبعد الرشيد عن الجارية (عنان) التي كان الرشيد شديد التعلق بها(٦).

ومعلوم أن الزوجة في اشتياقها وخلافاتها هي الزوجة لا تختلف باختلاف الطبقات أو حسب التفاوت الاقتصادي فالعواطف لا تحكمها طبقية، وإن أغفل المؤرخون نساء الطبقتين الوسطى والعامة، سوى ما ارتبط بالخلفاء محور اهتمام المؤرخين، فأعطونا صورة عن هؤلاء، ومدى اشتياق الزوجة لزوجها حين غيابه، وتعبيرها عن ذلك بالقصائد والأشعار، فقد كان الرشيد يمر ليلاً عندما سمع البارعة بنت عوف بن سهم تبكي زوجها الغائب منذ خمس سنوات في جيش المسلمين في اليمن، فطلب الرشيد إعادته(٧).

ومن المؤكد أن الزوجة من الطبقة الوسطى أو العامة أدت دورها حسب ما توفر لها من الظروف الاجتماعية والمعيشية محافظة بذلك على حياتها الزوجية من تأثير الوافدات (الجواري)، وليس أدل على ذلك ما عَبَّرَ عنه أحمد بن حنبل أحد فقهاء العصر العباسي الأول من أنه عاش مع زوجته أم صالح ثلاثين سنة على وفاق تام فما اختلفت معه في

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤١٣/١٤ .كذلك ابن كثير: المصدر السابق، ١٥٣/١٠.

(٢) كافأت زبيدة الشاعر داود بن رزين بمائة ألف درهم لقوله هذه الأبيات:

زمن طيب يوم مطير	**هذه روضة وهذا غدير**
إنما أم جعفر جنة الخلد	**رضاها، والسخط منها السعير**
فاعتذر يا خليفة الله في	**الأرض إليها، وترك ذات كبير**

= ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٥/٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٨/٨.

(٤) ابن طيفور: بلاغات النساء، ص٢٢٢.

(٥) شوه الأصمعي صورة الجارية عنان للرشيد بقوله أفيسر أمير المؤمنين أن يجامع الفرزدق= الجراح،أبو عبد الله محمد: الورقة – تحقيق عبد الوهاب عزام–عبد الستار احمد فراج (القاهرة،١٩٥٣م)، ص٣٩.

(٦) الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص٢٣.

(٧) ومن شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجه حبيب	**بعد فقدانيه إفراط الجزع**
قد برى شوقي إليه أعظمي	**وبلى قلبي هواه وفزع**

=ابن الجوزية: أخبار النساء، ص٢٥٠.

كلمة[١]، كذلك ما عبر عنه أحد شعراء العصر العباسي مسلم بن الوليد[٢] عند وفاة زوجته في قصائده التي أبانت عمق حزنه على زوجته، فقد كانت له زوجة من أهله تكفيه أمره، فعندما توفيت جزع عليها جزعاً شديداً وتنسك مدة طويلة، وامتنع عن الشراب[٣].

ونجم عن وجود مثل هؤلاء الزوجات وجود أزواجَ عبَّروا صَرَاحَةً عَنْ حُبِّهم لزوجاتهم، فقد أحب الخليفة المهدي زوجته الخيزران ولم يَعْصِّ لها أمراً وإنما حرص على رضائها وتنفيذ كُلِّ رغباتها، كما اشتاق إليها عندما كان يبتعد عنها فيرسل إليها بالقصائد والأشعار[٤]، كما عَبَّرَ الرشيدُ صراحة عن حبه لزوجاته بالقصائد والأشعار أيضاً[٥]، فقد بَلَغَ من حرص الرشيد على أهل بيته وحرمه أنه أوكل إلى يحيى بن خالد البرمكي بالنظر في قصر الحريم وإغلاق أبواب القصر ليلاً، وأخذ المفاتيح معه عند انصرافه إلى بيته[٦].

وحظيت المرأة عند الطبقة الوسطى والعامة أيضاً بحب زوجها وتقديره لها، فعادة ما تقف الزوجة منهم إلى جانب زوجها تحثه على كسب الرزق وتدبير أموره المالية وتربي أولاده، وتحفظ منزله، ومن ثم حرص رجال الطبقة الوسطى والعامة على زوجاتهم وصانوهن، وعادة ما كان الرجل لا يذكر أسماء نسائه أمام الغرباء وإنما يعبر عن ذلك بمعنى آخر مثل «أهلي»[٧]، أو «الحرة» حرصاً عليهن من أية شائبة تمس شرفهن وكرامتهن[٨].

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٨/١٤.

(٢) هو مسلم بن الوليد يلقب: بصريع الغواني، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ في الكوفة= عنه ينظر الأصفهاني: الأغاني، ٧٢٦٣/١١ وما بعدها.

(٣) من رثائه لها:

بكاء وكأس كيف يتفقان	**سبيلاهما في القلب مختلفان**
غدت والثرى أولى بها من وليها	**إلى منزل ناء لعينك داني**

=الأصفهاني: الأغاني، ٧٣٠١/١١.

(٤) كتب إليها وهو بمكة:

نحن في غاية السرور	**ولكن ليس إلا بكم يتم السرور**
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي	**إنكم غيب ونحن حضور**

= ابن كثير: البداية والنهاية، ١٦٣/١٠.كذلك القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله: المجالس وانس الجالس- تحقيق محمد مرسى الخولى (بيروت، بدون تاريخ)، ٨١٩/١.

(٥) كتب قائلاً:

سلامٌ على النازح المغتربْ	**تحيَّةَ صبٍّ به مكتئبْ**

= الشابشتي: الديارات، ص٢٢٥.

(٦) ابن خلكان: وفيات، ٣٣٢/١.

(٧) الجهشياري: الوزراء، ص١٨٣.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل، ٨٤/٨.

أما عن دور المرأة كأم في الأسرة لا يقل أهمية عن دورها كزوجة، والأم دائمًا هي الأم في كل زمان ومكان لها مكانتها واحترامها من قبل أبنائها، وعليها تقع مسئولية تنشئتهم وتربيتهم، والأم في العصر العباسي الأول لعبت دوراً كبيراً في حياة أبنائها خاصة الأم الحرة فقد كان أبناؤها يتفاخرون بنسبهم إليها(١)، ومن أكثر الأبناء الذين كان لأمهاتهم المنزلة العالية في المجتمع العباسي الخليفة الأمين،كما افتخرت الأمهات بأبنائهن من الخلفاء، فَقَدْ هَنَّأَ كَثْيرُ مِنَ الشُّعراء ومنهم مروان بن أبي حفصة(٢) السيدة زبيدة عندما ولدت ابنها الأمين(٣).

وربما يعود السبب في مدح الشعراء وغيرهم للأمين وأمه زبيدة لكونه آخر الخلفاء العباسيين الثلاثة الذي ولدته حرة(٤)، أما الخلفاء من بعده فأمهاتهم جواري في الأصل ولعلهم أرادوا بذلك أن تشب الأبناء وقد رضعوا من لبن حسبما ما يقال له تأثيره من حيث الأخلاق الحميدة فضلاً عن الصفات الحسنة التي تتمتع بها الحرائر أو لتحقيق مصلحة، بالتقرب إلى القصر عندما يصبحون أُخْوَةً في الرضاعة، يوضح ذلك ما حدث عندما صرف الرشيد الفضل بن يحيى عن الأعمال التي يتقلدها سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م، فشخص إليه ومعه أمه زبيدة بنت جعفر، فرضي عنه وأقره مع الأمين لحضانته(٥).

ومعلوم أن أغلب أمهات الخلفاء أجنبيات؛ لذلك فإن صورة الأم الحرة لم تبق كما هي مع وجود مثل هؤلاء الأمهات اللاتي أصبح وجودهن ظاهرة اجتماعية عانى منها المجتمع البغدادي، ومن المؤكد أن المرأة كأم تنفق على أبنائها، وليس أدل على ذلك مما فعلته الخيزران عندما حدث الصراع بين ولديها الرشيد والهادي فأرسلت عاتكة ظئر

---

(١) قال أبي نواس في ذلك:

أن الخلافة لم تزل — تزهو وتغمر بالأمين

مهدية خير النساء — كذا ابنها خير البنين

= ديوان أبي نواس، ص٤١١.

(٢) مروان بن أبي حفصة (١٠٥-١٨٢هـ) كان جده أبي حفصة من سبي اصطخر، وكان يتقرب إلى العباسيين بهجاء العلويين، طلباً للمال، وهو أول شاعر أعطى مائة ألف درهم، أعطاها له المهدي عن قصيدة له في مائة بيت، فأعطاه عن كل بيت ألف= عنه ينظر التنوخي: الفرج بعد الشدة - تحقيق عبود الشايجى (بيروت،١٩٧٨م)، ٣٧٧/١. كذلك الأصفهاني: الأغاني، ٣٥٣٥/٥ وما بعدها.

(٣) قال مروان بن أبي حفصة:

لله درُّكِ يا عقيلةَ جعفرٍ — ماذا وَلَدْتِ من العُلا والسُّؤددِ

إنَّ الخلافةَ قد تبّينَ نورها — للناظرين على جبينِ محمّدِ

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٥/٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل، ٣٥٩/٨.

(٥) الجهشياري: الوزراء، ص٢٢٧.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٨٢/٥.

الرشيد إلى يحيى بن خالد البرمكي لإنهاء الخلاف بينهما[١]، وإن أبانت هذه الحادثة عن تناقض شخصية الخيزران التي أقدمت على قتل ابنها الهادي بعد ذلك وهذا ما سوف أناقشه فيما بعد، وأشفقت السيدة زبيدة على ابنها الوحيد (الأمين) فكانت توصي مأدبه الكسائي بالرفق به[٢]، وتوسطت لدى الرشيد، ليرفق به ويوليه ولاية العهد[٣].

وجزعت السيدة زبيدة عندما أحيط بابنها الأمين، قد حلت عليه باكية بكاء شديدًا، ولكنه هون عليها الأمر[٤]، وعندما قتل أخذت ترثيه بكثير من القصائد[٥]، حزناً عليه وهذا نابع من عاطفة الأمومة الجياشة التي حاول المأمون أن يخفف منه[٦]، وبلغت شفقة بعض الأمهات وحبهن لأبنائهن حد تشجيعهم على فعل الرذيلة، ووضح ذلك في الأمهات الأجنبيات، فقد كانت أم جعفر البرمكي ترسل إليه كل يوم جمعة جارية عذراء[٧].

وبادل الأبناء أمهاتهم عاطفتهن نحوهم، فكثيرًا ما لجَأْوا إلى أُمَّهَاتِهِم عندما يحيط بهم مكروه، فقد اعتذر الهادي لأمه الخيزران على الرغم من أنها السبب في موته عندما حضرته الوفاة[٨] ومات وهو قابض على يدها واضعًا لها على صدره، بالرغم من أنها حلفت ألا تكلمه عندما شدد عليها وهددها بعد أن رأى المواكب الكثيرة تلجأ إلى دارها، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة[٩].

وعلى الرغم من وجود مثل هذه المشاعر النبيلة والعاطفة الجياشة التي تربط الأمهات بالأبناء، إلا أنه وجد من الأمهات، من تفيض قلوبهن قسوة لدرجة وصلت بهن إلى الإقدام على إبعاد أبنائهن أو تعريضهم للقتل في سبيل مصلحة أو هدف ما بتدبير الوسائل والحيل للتخلص منهم وقصة الخيزران مع ابنها الهادي خَيْرُ دَلْيلٍ على ذلك، وقد

---

(١) قائلة له:«تقول لك السيدة: الله الله في ابني لا تقتله، فبكاؤه أحب إلي من الدنيا بجميع ما فيها»= الطبري: تاريخ الرسل، ٢١٠/٨.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٨٩/٢.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ٣٦٣/٣.كذلك البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٥٧٥.

(٤) قائلا لها:«مه، أنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقدَت التيجان، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع»= المسعودي: مروج الذهب، ٤٠٤/٣.

(٥) المصدر نفسه، ٤٢٣/٣.

(٦) ردت عليه قائلة: «إن ولد أخا دينك جدير أن أجزع عليه»=ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين (القاهرة، بدون تاريخ)، ص٩٨.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٣٣/١.

(٨) قائلاً لها: «قد كنت أمرتك بأشياء، ونهيتك عن أشياء مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات التسرع من يدك، ولم أكن بك عاقًا بل كنت صائنًا وبارًا واصلاً»=المسعودي: مروج الذهب،٣٤٣/٣.كذلك علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، مكتبة النهضة المصرية(القاهرة،١٩٨١م)، ص٧١.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٥/٨.

أورد مُعْظَمُ المؤرخين قِصَـةَ تدبيرها لقتل ابنها الهادي، بأن أرسلت إليه بعض الجواري اللاَّتي وضعن على وجهه بساط، وجلست عليه حتى مات[١]، وبلغ من قسوة هذه السيدة أنها لم تجزع عندما أخبرتها جاريتها خالصة بموته بل قيل أنها وزعت مبلغًا من المال على جواريها ابتهاجًا بموته[٢].

ولم تَكْتَفِ بذلك بل أنها أرسلت الرَّسُلَ لتخبر بموته، ولتهيئ الخلافة لابنها الرشيد[٣]؛ لأنها ما أقدمت على فعلتها بالتخلص من الهادي، إلا من أجل أن تكون الخلافة خالصة للرشيد، فقد عجلت بمقتل الهادي عندما علمت بعزمه على إخراج أخيه هارون من ولاية العهد[٤]، ومن ناحية أخرى يعلل البعض أن سبب قتلها للهادي أنها كانت صاحبة الأمر والنهي في عهد زوجها المهدي[٥]، فنهاها الهادي وأراد غل يدها، لكونه غيورًا على أسرته[٦] متأثراً بالتقاليد الموروثة، ويعلل فريق آخر سبب فعلتها أن الهادي حاول قتلها بأن أرسل بأرز مسمومة[٧]، فلم تأكل منها لأن جاريتها خالصة حذرتها من ذلك، فأطعموها كلبًا، فسقط لحمه ومات من حينه[٨]، ويؤكد ذلك أن العداء كان قائمًا بين الهادي وأمه الخيزران بسبب السلطة.

وكما وقفت قبيحة أم المعتز من ولدها موقفًا يعبر عن قسوتها وفقدانها مشاعر الأمومة بأن تعطيه المال عندما ثار عليه الجنود مطالبين بأرزاقهم[٩]، إذ كان عاجزًا عن دفع المال لهم بسبب خلو خزينة الدولة من الأموال، لتركز الثروة في يدها، فأنكرت ما تملك من المال، حتى ثار عليه الجنود وقبضوا عليه ثم عذبوه، فغرزوا الدبابيس في جسده بعد أن أصلوه بحرارة الشمس، حتى أنه كان يرفع رجلاً ويضع الأخرى من شدة الحرارة[١].

---

(١) المصدر نفسه، ٢٠٦/٨.كذلك ابن الطقطقى:الفخري،ص١٩١،القلقشندي:مآثر الأنافة، ١٩٠/١.
وقيل أن سبب موته قصبة دخلت في جوفه=ينظر المسعودي:مروج الذهب، ٣٤٢/٣.كذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٨٠.

(٢) قالت الخيزران بعد أن أخبرتها خالصة بموت الهادي: «إن مات موسى فقد بقى هارون»= الطبري: تاريخ ، ٨ /٢١٣.

(٣) قالت ليحيى بن خالد البرمكي: «إن الرجل صائر إلى ما به فاستعد لما تبقى»= الطبري: تاريخ الرسل، ٢١٢/٨.كذلك الجهشياري: الوزراء،ص١٧٤، شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ٤٢٦/١، فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، دار الإرشاد (بيروت، ١٩٧٠م)، ص٤٢.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، ٣٤٢/٣.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٧٩/٥.

(٥) ابن الطقطقى: الفخري، ص١٩١.

(٦) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك،ص٣٥.كذلك ابن الطقطقى: الفخري، ص١٩١،
فكان يهددها بقوله: «ما للنساء والكلام في أمر الرجال»= الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٧/٨.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٠٦/٨.كذلك البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٥٥٣.

(٨) المصدر نفسه، ٢٠٦/٨.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٨٩/٥.

(٩) المسعودي: مروج الذهب، ١٧٨/٣. كذلك ابن الأثير: الكامل، ٣٤١/٥.

الحرارة[١]. ورغم ما حاق بابنها من عذاب أمامها لم يَرِقْ له قلبها، وَفَضَّلَتْ عليه المال.

والغريب في هذين المثالين أن كلاً من الخيزران وقبيحة قد عرضتا ابنهما للقتل، والغالب على الظن، أنهما أرادتا من وراء ذلك السيطرة على أمور الدولة هذا الأمر الذي لم يكن له وجود في العصر الأموي ولكن توفرت له كل الأسباب في العصر العباسي بسبب وجود هذا الكم الهائل من الجواري اللاتي اكتظت بهن القصور في بغداد، فهن أقدر من الحرائر وعلى عِلمْ بالدسائس وتدبير المؤامرات، وحرصهن على المنصب والجاه والمال، بسبب تنشئتهن.

ويجب أن ننوه بأنه وإن وجدت مثل هذه الأمثلة لبعض الأمهات اللاَّتي تميزن بالقسوة، فإن صورة الأم ظلت مقدسة عند أبنائها محتفظة بمكانتها في العصر العباسي الأول، وظهر ذلك أيضاً في حزن الأبناء على أمهاتهم بعد وفاتهن؛ فقد جزع الخليفة الرشيد عند وفاة أمه الخيزران حتى أنه سار حافياً آخذاً بقوائم النعش[٢]، ووزع الأموال على الفقراء والمساكين صدقة عنها، فليس من شك في مكانة الأم عند أبنائها سواء من الخلفاء أو كبار رجال الدولة أو العامة[٣].

أما حفلات كبار رجال الدولة، فإنه لا شك أن البذخ والترف كان طابعاً مميزاً لها، أما حفلات العامة، فبدت أكثر أبهة من وضعية أصحابها؛ لأن العامة يحاولون أن يظهروا من الغنى أكثر مما عندهم؛ فلذلك يمكن أن يستأجروا الزينة وأدوات الفرش لهذه المناسبة[٤].

أما دور مكانة المرأة كابنة في الأسرة، ونظرة المجتمع إليها، فأبانت المعلومات التي أوردتها المصادر، تباين وجهات النظر، ففريق يرى أن البنات أحق بالشفقة والرحمة، بينما يرى فريق آخر أنهن غل في أعناق الآباء، وليس من شك في أنها نظرة تقليدية تمتد جذورها إلى الجاهلية، رغم أن الإسلام نهى عن ذلك كما جاء في القرآن الكريم من الآيات[٥]، وقد يعود السبب في كراهية إنجاب البنات بين أهل بغداد، أن مدينتهم عجت بالحريم، حتى بلغن من الكثرة أن أصبحن ثلث السكان، ناهيك عن خوف الآباء من تيار التفسخ والتحلل الذي أصبح ظاهرة في المجتمع البغدادي، بسبب كثرة الجواري

---

(١) الطبري:تاريخ الرسل، ٣٨٩/٩.كذلك المسعودي:مروج الذهب، ١٧٨/٣،السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦٠، ابن الطقطقى: الفخري، ص٢٤٣، ابن الأثير: الكامل، ٣٤١/٥.

(٢)المسعودي: مروج الذهب، ٣٤٨/٣.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٨٧/٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٣٨/٨.

(٤)آدم متز: الحضارة، ٣٠١/٢.

(٥) قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشر أحدُهُم بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسودًا وَهُوَ كَظيمٌ ﴾ سورة النحل، الآية ٥٨.

وسلوكهن[١].

لكن بالرغم من اختلاف وجهات النظر برزت من البنات من حظيت بمحبة واحترام آبائهن، فكان الخليفة المهدي معجباً بابنته البانوقة، التي كانت سمراء حسنة القد[٢]، وبلغ من مكانتها الأثيرة لديه، أنه كان لا يطيق فراقها، حتى أنه كان يلبسها ملابس الغلمان ويصحبها معه في جولاته فتسير إلى جانبه مع صاحب الشرطة[٣]، وكأن المهدي يتحدى بذلك نظرة المجتمع التقليدية التي تنادي بعزل المرأة، خاصة أن البانوقة كانت تسير وهي متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان[٤]، وكشف المهدي عن تعلقه بها حين فتح أبواب قصره للتعزية بوفاتها، فجلس للناس يقبل تعازيهم، وأمر أن لا يحجب عنه أحد منهم[٥]، فأكثر الناس في التعازي بموتها[٦]، وكذلك فعل الخليفة المأمون عندما فتح أبواب قصره للتعزية بوفاة ابنته بالرغم من وجود من يرى أن موت البنات من المكرمات[٧].

وحرص كثير من مجتمع بغداد على احترام البنات وصون شرفهن، ولم يقتصر على بنات الطبقة الحاكمة، وإنما حظيت بنات الطبقات الأخرى بالحب والاحترام، وسعى البعض في تزويجهن حفاظاً على عفافهن[٨]، وحرص الآباء على صون بناتهم والدفاع عنهن في مواجهة من يحاول التعرض لهن بما يمس شرفهن، فقد قام عمارة بن حيوك بضرب موسى الهادي وهو ولي عهد عندما راسل ابنته التي أخبرت والدها فدبر الوالد حيلة وانتقم منه بضربه عشرين ضربة خفيفة[٩]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق الصلة التي تجمع البنات بآبائهن[١٠].

ويأتي دور المرأة كأخت في الأسرة، فنجد أنه لم يكن يقل أهمية عن دور الأم والزوجة والابنة، كما تبوأت مكانة عالية وحظيت بالحرص عليها، كذلك اختلفت النظرة

---

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارةالاسلامية، ص١٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ١٨٦/٨.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٧٣/٥.
(٣)المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٤)ابن الأثير: الكامل، ٧٣/٥.
(٥)الطبري:المصدر السابق، ١٨٦/٨.
(٦)الجاحظ: البيان والتبيين، ٧٤/٢. كذلك ابن الأثير: المصدر السابق، ٧٦/٥.
(٧) عزى إبراهيم بن المهدي، المأمون في وفاة ابنته بقوله: «موت البنات من المكرمات»= ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة، ص١٠٥.
(٨) عندما مات عيسى بن نهيك سأل المنصور عما خلف من البنات فقيل له ستًا؛ فأمر لكل من البنات بثلاثين ألف دينار وسعى في تزويجهن بأكفاء= الطبري: تاريخ الرسل، ٨٤/٨.كذلك ابن الأثير: الكامل،٤٨/٥، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ٣٥٢/١.
(٩) قائلا لها اتخذناك ولي عهد فينا أو محلاً في نسائنا= الجهشياري: الوزراء، ص١٤٧.
(١٠) كذلك الجهشياري: الوزراء، ص٢٤٥. كذلك البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٥٦١.

إلى الأخت وتباينت، فمن الرجال فريق رأى أن المرأة سبب للمنازعات والنكبات، ولا بد من عزلها عن مجتمع الرجال، فقد أقام مجتمع بغداد الدنيا ولم يقعدها عندما تزوج جعفر البرمكي العباسة أخت الرشيد خفية(١)، واعتقد فريق أن ذلك كان السبب الرئيسي لنكبة البرامكة.

فقد أوردت المصادر أن الرشيد أحب مجالسة أخته العباسة، ولم يكن يطيق فراقها، وجعفر البرمكي دوماً في مجلس الرشيد، فرأى الرشيد أن يعقد لجعفر عليها حتى يحل له النظر إليها، ويكون ذلك كل نصيبيهما من الزواج، وما لبث الرشيد أن علم بنكث جعفر للعهد، فغضب عليه وقتله، وغضب على البرامكة(٢)، وربما أراد الرشيد من وراء ذلك إن صح القول بأنها أحد أسباب نكبتهم -لأن الأسباب عديدة- أن يصور كرامة أخته بزواجها بمن هو كفء لها.

وحظيت الأخت بمكانة عالية من الاحترام والتقدير، إذا ما حازت خاصة مستوى ثقافي عالٍ، مثل السيدة عُلَيَّة بنت المهدي، فكان الرشيد يحب الجلوس إليها ويستمع إلى غنائها(٣)، ويصحبها في أسفاره(٤)، وكانت عُلَيَّة تبادل أخاها الرشيدَ هذا الود والاحترام وتقول فيه الأشعار(٥) التي تفيض بحب الأخت لأخيها، ثم عافت النبيذ وتركت الغناء بعد وفاة الرشيد حزنًا عليه(٦)، واشتهرت ريطة بنت المهدي بحب الرياضة، وشجعها أخوها على ذلك، فكان إذا لوى العمود الحديدي رمى به إلى أخته؛ فتعيده إلى شكله الأول بذراعيها(٧).

أما عن دور الأخت في الطبقات الأخرى فإنني لم أحصل على ما يفيد ذلك إلا أن قصة ليلى بنت طريف خير دليل على وقوف المرأة كأخت إلى جانبها أخيها إذا ما حلت به المحَن؛ فقد خاضت ليلى غمار الحرب ولبست الدرع وشهرت سفيها في وجه الأعداء،

---

(١) الطبري:تاريخ الرسل، ٢٩٤/٨.كذلك المسعودي:مروج، ٣٨٤/٣ ابن الأثير: الكامل، ١١٤/٥،.

(٢) ينظر الطبري: المصدر نفسه، ٢٩٤/٨-٢٩٥.كذلك المسعودي:مروج، ٣٨٤/٣، ابن الأثير: الكامل، ٥/١١٤-١١٥، ابن تغري بردي: النجوم، ١١٥/٢.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ٣٦٤٦/٥.

(٥) من شعرها في أخيها:

تَفْـدِيك أُخْتُـكَ قَـدْ حَبـوت بِنِعْمَـةٍ	**لسَـنْا نَعُـدُّ لَهـا الزَّمـانُ عَـديلاَ**
إلاَّ الخُلــوُدَ وَذاك قُرِبُــكَ سَــيِّدي	**لاَزال قُرْبُـــكَ والبَقـــاءُ طَـــوِيلاَ**

= الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٤٥/٥.

(٦) المصدر نفسه ،٣٦٤٨/٥.

(٧) المصدر نفسه ،٥٢٥٥/٧.

ثأرًا لأخيها الذي مات أثناء المعركة وجزعت ليلى عليه ورثته بقصائد [1] سأذكرها في الحديث عن دور المرأة الثقافي. ولم يحظ دور المرأة كأخت في الأسرة بالنسبة للعامة باهتمام المؤرخين، ومن ثم خلت المصادر من المعلومات للأسباب التي سبق ذكرها، ولكن مما لا شك فيه أن المرأة الأخت ظلت في حماية وليها الذي صان كرامتها وحفظ شَرَفَهَا.

مجمل القول، أن المرأة نقشت دوراً اجتماعياً بارزاً بالرغم من وجود تلك النظرة التي يشوبها الشَّكُ نحوها والمناداة بعزلها، وبرزت من النساء من فرضن نفسهن على الحياة الاجتماعية في أسرهن سواء كن أمهات أو زوجات أو غيرهن، واستطعن الاحتفاظ بمكانتهن الاجتماعية رغم شيوع التسري في المجتمع البغدادي، وسهولة نيل الجواري.

المبحث الثاني: دور الجواري الاجتماعي

معلوم أن القرآن نزل والرِّق بين الأمم شائع حتى ألفته كَثْيرُ من النفوس، ومن ثم لم يُحَرِّم الإسلام الرِّق، وفي ذات الوقت حرص على التدرج في القضاء عليه؛ فأباح الإسلام للرجل التسري بمن شاء من الإماء دون أن يحدد، بهدف عدم القضاء على النظام القائم دفعة واحدة، وإحداث طفرة بتغيير نظام الرق من اتخاذ الجواري[2].

استند العباسيون على ذلك، وتوسعوا في جلب الجواري حتى اكتظت بهن القصور ودور الأعيان ورجال الدولة، وحاز أفراد من الطبقة الوسطى[3] المزيد من الجواري سواء للخدمة أو للتسري، كذلك أتيح لبعض العامة إبان العصر العباسي الأول بخاصة، أن يملكوا أعدادًا لا بأس بها من الجواري، فمعلوم أن بعض العامة حققوا حياة معيشية رغدة آنذاك، مما مكنهم من اتخاذ الجواري، خاصة من الجواري المطمومات (الغلاميات)[4]، اللاتي تشبهن بالغلمان في لباسهن؛ إذ يساعدهم ذلك على القيام بالأعمال المسندة إليهن.

وتعددت مصادر جلب الجواري، فجلبت الجواري السود من الشواطئ الشرقية لإفريقيا والهند وكذلك من بلاد المغرب[5]، أما البيض من التركيات فجلبن من سمرقند

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٦١/٨.كذلك الأصفهاني: المصدر السابق، ٤٢٦٢/٦، ابن كثير:البداية والنهاية، ١٧٣/١٠.

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٩٠.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة- تحقيق عبود الشايجى(بيروت،١٩٧١م)، ٣٦/١.

(٤) يذكر المسعود بقوله: «اتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات»= مروج الذهب، ٣١٨/٤.

(٥) ابن خرداذبة:المسالك، ص١٥٣.كذلك ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩٤، الألوسي: تجارة العراق، ص٢٣٨.

التي عدت من أكبر مصادر الرقيق الأبيض فيما وراء النهر[١]، وجلبت الصقليات من وسط أوروبا وشرقيها عبر ألمانيا ثم إلى الأندلس وإيطاليا وفرنسا، وكان اليهود من أكبر تجار الرقيق في أوروبا[٢]، وَقَدِمَتْ بَعْضُ الجواري من أوروبا إلى الشرق عن الطريق المسار بمدينة براغ وبولونيا وروسيا[٣]، وتأكيداً لتعدد مصادر الرقيق وكثرة عددهم في العصر العباسي الأول ما ذكره البعض بأنه كان يرد إلى الرشيد ألف رأس من الرقيق من خراسان، ومائة رأس من جيلان[٤].

ودرت تجارة الرقيق من الجواري الأرباح الطائلة على القائمين بها، ولعب النخاسون دوراً كبيراً في رواج هذه التجارة، وفيها تقع المساومات والمشاورات بالثمن، ويحتاج البائع والمشتري فيها أن ينظر إلى ما يريد أن يبتاعه، وذلك من المشروط في جميع البياعات، ومعلوم أن تجارة الرقيق ليس فيها كيل ولا وزن، وإنما ميزانها الحُسْنُ والْقُبْحُ[٥]، ويجوز مصافحة الجواري، ووضع اليد عليهن للنظر، ما لم يكن في ذلك ما حرمه الشرع، وعد ذلك من آداب سوق الرقيق[٦].

وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد، لما حازت من مكانة تجارية عالمية فضلاً عن كونها عاصمة الخلافة العباسية، وأطلق على أحد شوارعها «دار الرقيق»[٧]، وعادة ما يجتمع باعة الرقيق في «باب النخاسين»، والواقع آنذاك في بداية شارع الكرخ[٨]، وعرف تاجر الرقيق باسم «النخاس»، وذم البعض العمل بهذه الحرفة، بينما استحسنها الآخرون، واستخدم النخاسون الحيلة في إبراز محاسن جواريهم، وإخفاء عيوبهم، لذلك عينت الحكومات الإسلامية عاملاً ليشرف على أسواق الرقيق، ويكشف عن أساليب تحايل النخاسين، وأطلق عليه «قيم الرقيق»[٩].

---

(١) ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٣.كذلك الجهشياري: الوزراء، ص٢٨٣، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٨٥، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ،٣٩٩/٢.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٣٠٠/١-٣٠١.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٨٥/١، سهام الفريح: الجواري والشعر في العصر العباسي الأول (الكويت،١٩٨٠م)، ص٢١.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك، ص٩٢.كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٣٠١/٢.

(٤) الجهشياري: الوزراء، ص٢٨٦،٢٨٣.

(٥) الجاحظ: رسائل، ١٦١/٢-١٦٢.

(٦) المصدر نفسه، ١٦٣/٢.كذلك محمد عويس: المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ،دار الثقافة (القاهرة،١٩٧٠م)، ص١٩٠،١٨٨.

(٧) الحموي: معجم البلدان، ٤٢٠/٢.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٨٣/١، مدور نخلة: حضارة الإسلام في دار السلام (القاهرة، ١٩٣٧م)، ص١٢٠.

(٨) المصدر نفسه، ٤٤٨/٤، الألوسي: تجارة العراق، ص٢٣٨.

(٩) الأصفهاني: الأغاني، ٢٣ /٤.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٨٤/١.

وأورد ابن بطلان في رسالته[١] بعضاً من أساليب النخاسين لزيادة جمال الجواري أو إخفاء العيوب، منها جعل العين الزرقاء كحلاء، وأن النخاسين حَمَّروا الخدودَ المصفرةَ، وَغَيَّروا لونَ الشَّعرَ الأشقرِ إلى حالك السواد، كما جعدوا الشعور السبطة، وأذهبوا آثار الجدري والنمش[٢]، ومن ثم حرص المشترون في سوق الرقيق على توخي الحذر عند شراء الجواري، وأبان عن حقيقة هذا التحايل ما تعارف النخاسون عليه، «بأن ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة»[٣].

ومن أشهر النخاسين ببغداد في العصر العباسي الأول، أبو الخطاب النخاس الذي اشتهرت من جواريه «ذات الخال»، التي هام بها إبراهيم الموصلي بعد أن هواها[٤]، وقصد الشعراء النخاس إسماعيل القراطيسي[٥]، ليقولوا الشعر في جواريه، ومن هؤلاء أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد، واشتهر نخاس آخر في الكرخ، وكان يكنى أبو عمير[٦]، بجواريه القيان اللاَّتي عرفن عنهن الظرف والأدب حتى قصده كَثْيرُ من الشعراء والعاشقين للنظر إلى جواريه والشرب معهن، أما النخاس يحيى بن نفيس فكان صاحب قيان أجادت بعضهن فن الغناء، فغشاه الناس لسماع غناء جواريه[٧].

وحاز بعض هؤلاء النخاسين دوراً خاصة بهم، ليست من أجل بيع القيان وسماع غنائهن، وإنما للمجون والخلاعة عرفت بـ«دور القيان» ومن أشهر هذه الدور دار ابن رامين[٨]، إذ كان بها مجموعة من الجواري اللاَّتي أتى بهن من الحجاز، واشتهرن بالغناء والمجون ومنادمة الرجال، ومن أشهرهن سلامة الزرقاء وربيحة وسعدة، ولم تكن دار ابن

---

(١) ابن بطلان طبيب نصراني مشهور عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري= الزركلي: الأعلام، ١٩١/٧.

(٢) ابن بطلان، أبو الحسن المختار: شري الرقيق وتقليب العبيد– تحقيق عبد السلام هارون، ضمن نوادر المخطوطات(القاهرة،١٩٧٣م)، ٣٥٥/٤.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٣٠١/١–٣٠٣.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٦١٧٧/٩.

(٥) هو إسماعيل بن معمر الكوفي، مولى الأشاعثة، وألفه الشعراء، وقال فيه أبو العتاهية شعرًا= الأصفهاني: الأغاني، ١٩٤/٢٣.

(٦) قال فيه عبد الله البواب:

لو تشكى أبو عمير قليلاً	**لأتيناه من طريق العياده**
فقضينا من العيادة حقًا	**ونظرنا في مقلتي عباده**

=الأصفهاني: الأغاني، ٤/٢٣.

(٧) قال أحد الشعراء في جواري ابن نفيس:

شاقني الزائراتُ قصر نفيسٍ	**مثقلات الإعجاز قب البطون**

=الأصفهاني: الأغاني، ٥٣٠٣/٨.

(٨) هو عبد الملك مولى عبد الملك بن بشر، كان أكبر مقين في الكوفة=ينظر الاصفهانى :الاغانى، ١٥٠/٤.

رزيق بن منيح مولى عيسى بن موسى بأقل شهرة من دار ابن رامين، وكثيراً ما اجتمع عنده أشراف الكوفة لسماع غناء جواريه والاستمتاع بمجونهن[1].

ولعل السبب في زيادة شهرة هؤلاء النخاسين وفود الشعراء والأدباء إليهن، ونظمهم الشعر بجواريهم، وليس من شك في أن ذلك أسهم في النهضة الأدبية ببغداد، ودفع بها إلى التقدم حتى بلغت قدراً كبيراً من الثراء في مجالات الفنون المختلفة مثل الشعر والغناء وغيرها، وجذبت شهرة هذه الدور الفتيان، فارتادها الشبان للشرب والسماع والاستمتاع بالنظر إلى الجواري، وعادة يهب هؤلاء الزائرون العطايا والأموال إلى هؤلاء النخاسين[2].

وعمل النخاسون على الاستفادة من جواريهم بإرسالهن لإحياء بعض الحفلات العامة، مثلما فعل أبو النضير، إذ كانت بعض جواريه يغنين ويخرجن إلى جلة أهل البصرة[3]،وفي الواقع لم يكن عرض الجواري وبيعها حكرًا على النخاسين، وإنما أتت بعضهن إلى سوق النخاسة بمحض إرادتها لتعرض نفسها؛ لعلها تصادف حظًا، بأن يشتريها مندوبو الخلفاء، فتعيش في القصور، وتتمتع بحياة الترف والنعيم هناك.

ونجم عن اختلاف المميزات التي امتاز بها كُلُّ جِنْسٍ أنَّ أكثرَ العباسيون ورعاياهم من الميسورين من اقتناء الجواري، واختلفت أثمان الجواري نسبة إلى مميزاتها وحسب الحاجة إليها من جمال أو رخامة صوت وحسن أداء للغناء، ومن ثم شروهن الخلفاء والأمراء ورجال الدولة، وأفراد من الطبقة الوسطى وبعض العامة بأثمان باهظة، فقد اشترى المهدي جارية حسنة التي كانت تقرض الشعر بألف درهم [4]، ودفع الرشيد مثلها ثمنًا لجاريته عنان [5]، وقيل أن ثمنها ارتفع بعد موت مولاها، فبيعت بمائتي ألف درهم [6]، ودفع الرشيد سبعين ألف درهم ثمنًا لجاريته «ذات الخال»[7]، وعندما اشترى «بذل»[8] المغنية دفع عشرين ألف درهم، والغالب على الظن، ارتفاع أثمان الجواري في العصر العباسي الثاني، حتى قيل أن ثمن الجارية الجميلة بلغ ألف دينار وأكثر [9].

ولعل السبب في ارتفاع ثمن الجواري إبان العصر العباسي بعامة، الإقبال المتزايد

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، ٥٣٤٢/٨.كذلك سهام الفريح: الجواري والشعر، ص٣١.

(٢) الجاحظ:رسائل، ١٧٧/٢.كذلك فايد العمروسي: الجواري والمغنيات، ص٤٥.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ١٥٥/٢٣.

(٤) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١٦٦/٥.كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٢٦٤/١.

(٥) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٤٧.

(٦)المصدر نفسه والصفحة.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٤٥.

(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٦١٧٨/٩.

(٨) المصدر نفسه، ٦٣٥١/٩.

(٩) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص٨٣.

علـى شـرائهن فضـلاً عـن تعلـيمهن الغنـاء؛ لأن العـرب لـم يكونـوا يعلمـون الغنـاء سـوى للجواري، ويرجع فضل تعليم الجواري الغناء إلى إبراهيم الموصلي وابن إسحاق[١]، فمن الثابت أن إبراهيم الموصلي كان من أكبر تجار الجواري وأنشطهم حتى أنه أسس شركة لتجارة الجواري، وتعليمهن الغناء، من أجل أن يرتفع ثمنهن. وكان شريكه في ذلك يزيد حوراء[٢]، وحققا من وراء ذلك ربحًا كبيراً اقتسماه فيما بينهما[٣].

وعادة ما يرتفع سعر الجارية أو يقل بعد وفاة سيدها، أو عندما يستغني عنها سيدها في حياته ويبيعها؛ فقد اشترى المهدي «مكنونة»[٤] بمائة ألف درهم ، ،وسبق له شراء «بصبص»، وهو ولي للعهد، من أبيه سرًا بسبعة عشر ألف دينار، وقيل أنها ولدت له بعد ذلك عُلَيَّة بنت المهدي[٥]،وكما بيعت «عريب» جارية المأمون بعد وفاته، واشتراها المعتصم بمائة ألف درهم[٦] ومما لا شك فيه أن بيع مثل هؤلاء الجواري تم في دور القيان أو دور أصحابهن، وليس في أسواق النخاسة، كالجواري رخيصات الثمن اللاَّتي لا تخلو منهن بيوت العامة.

لقد أثر تواجد هذه الأعداد الهائلة من الجواري وعلو أثمانهن على المجتمع البغدادي، إذ أولع الرجال في العصر العباسي الأول وخاصة الخلفاء باقتناء الجواري، حتى اكتظت بهِنَّ القصور بقدر لم يعرف قبلاً، وبلغ تأثيرهن إلى حد أن تعلق بهن بعض الخلفاء، وَيْعَدُّ هارون الرشيد على رأس قائمة الخلفاء العباسيين الذين فضلوا الجواري وتعلقوا ببعضهن، حتى ارتبط اسمه بهن، فمعلوم ولعه «بدنانير»[٧] مولدة يحيى بن خالد البرمكي حتى أنه كثيرًا ما كان يقضي جُلَّ وقته عندها لكثيرة شغفه بها وبلغ إعجابه بها أن أهداها عقدًا قيمته ثلاثون ألف دينار، ولم يستطع الرشيد إخفاء هواه حتى شكته زوجته

---

(١) ذكر الأصفهاني عن لسان إسحاق الموصلي: «لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود، وأول من علم الجواري المثمنات أبي، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن»= الأغاني، ١٨١٤/٣.

(٢) وهو رجل من أهل المدينة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مناف، وكني أبو خالد وهو مغن محسن كثير الصناعة، من طبقة ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وقدم على المهدي العباسي في خلافته فغناه، وكان حسن الصوت حلو الشمائل= الأصفهاني: الأغاني، ١٠٩٧/٢.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ١٠٩٧/٢.كذلك كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص١٩١.

(٤) السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء- تحقيق عبد اللطيف عاشور (القاهرة،١٩٨٦)، ص٨٦.

(٥) الأصفهاني: الأغاني، ٥٠٣١/٨.

(٦) السيوطي: المستظرف، ص٣٥.كذلك ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٥٥.

(٧) دنانير كانت من المولدات، ومن أحسن الناس وجهًا وظرفًا وحسنًا وأدباً، وأكثرهن رواية للشعر= ينظر الأصفهاني: الأغاني، ٦٨١٧/١٠.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٢٨-٢٩.

زبيدة من جراء ذلك إلى أهله وعمومته الذين فاتحوه في الأمر وعاتبوه[١].

وأولع الرشيد أيضاً بثلاث من الجواري في آن هن (سحر وضياء وخنث)، وكان الفضل بن الربيع أهداهن إليه، وعرف الشعراء ولع الرشيد بالجواري، فنظموا الشعر فيهن تقربًا إليه[٢].

بل أن الرشيد قال شعراً في جواريه[٣]، مما يؤكد تأثيرهن عليه. والغالب على الظن أن ارتباط اسم الرشيد بكثير من الجواري نجم عن كثرة عددهن في العصر العباسي، فضلاً عن حرص بعضهن على ربط اسمهن باسم الخليفة، ولم يقف شغف الرشيد بالجواري عند حد التعلق بجواريه، فقد ذكرت المصادر أنه شغف بجارية أخيه الهادي التي تدعى «هيلانة»[٤]، وأَبَانَ ذَلِكَ جَزَعُهُ عليها بعد وفاتها، وإعطاءَه للعباس بن الأحنف عشرة آلاف درهم عن كل بيت من القصيدة التي رثاها بها[٥].

ولم يكن تأثير الجواري على خلفاء العصر العباسي الأول وقفاً على الرشيد، وإنما كان لهن أثر متفاوت على الخلفاء الآخرين، وبلغ من شدة تعلق هؤلاء الخلفاء ببعض الجواري، أنهم شاركوهن في أعيادهن، إذ قيل أن المأمون شارك الجواري في يوم الشعانين[٦]، وكانت بين يديه عشرون وصيفة تزين بثياب غالية، وفي أعناقهن الصلبان الذهبية، وفي أيدهم الخوص والزيتون.

فطن المحيطون بالخلفاء من أمراء وقواد وغيرهم إلى شغف الخلفاء بالجواري وحب

---

(١) الأصفهاني: المصدر نفسه، ٦٨١٧/١٠.

(٢) من شعر أحدهم:

إنَّ سِحْراً وضياءً وخنُثْ	**هُنَّ سِحرٌ ضياءٌ وخنثْ**
أخذتْ سِحْرُ ولا ذَنْبَ لها	**ثُلُثَي قلبي وترباها الثُّلُثْ**

= ينظر: الجراح: الورقة، ص١٧.كذلك عفيفي: المرأة العربية، ص٤٣.

(٣) من ذلك قوله:

إنني وزّعت حبي طائعاً	**بين سِحْر وضياء وخنُث**

= الشابشتي: الديارات، ص٢٢٧.

(٤) سميت بهذا لكثرة قولها: «هي الآن»، إذا استعجلت أحدًا في أمر تأخر به، وقيل أنها عملت أول أمرها قيمة للمنصور، ثم ملكها يحيى بن خالد الذي وهبها بدوره للرشيد، فغلبت عليه طوال سنين ثلاث أقامتها عنده، وإليها ينسب حوض هيلانة، إذ هي التي أمرت بحفره وجعلته سبيلاً، وكانت وفاتها سنة ١٧٣هـ= راجع: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٩٧/١.كذلك الشابشتي: الديارات، ص٢٢٦-٢٢٧، السيوطي: المستظرف، ص٧١، ابن الفقيه، أبوبكر أحمد بن محمد : كتاب البلدان (موسكو، ١٩٦٨م)، ص٣١.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ٣٢٠/٢.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٧٢،ابن كثير: البداية والنهاية، ١/١٦٥،الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٩٧/١.

(٦) يوم الشعانين: أحد أعياد النصارى= آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢٨٤/١.

اقتنائهن، وعملاً على مرضاتهم، أكثروا من إهداء الجواري لهم، ومن ثم أسهموا في تزويد قصور الخلفاء بهذا الكم الهائل من الجواري، فقد أُهْدَيِ البعضُ المنصورَ مائة بكر حين وفاة زوجته أم موسى الحميرية[١]، وأُهْدِيَ الرَّشيدُ عدداً كبيراً من الجواري، يؤكد ذلك أنه عندما احتفل بأحد هؤلاء الجواري، حضر الحفل من جواريه للغناء أكثر من ألفي جارية، في أحسن زي من الثياب والجواهر[٢].

احتاج هذا العدد الكبير من الجواري في قصور الخلفاء إلى إشراف وإدارة، فعين أبو جعفر المنصور للجواري فيما عرف بلقب «قيم الجواري»[٣]، وقيل أنه اشترى جارية تدعى أم علي، وجعلها قيمًا في داره[٤]، وفي عهد الرشيد أشرف مسرور الخادم على السراري والقيان في قصر الخليفة[٥]، ونجم عن مخالطة الخلفاء بالجواري أن الأول لم يجدوا حرجًا في الجلوس إلى جواريهم، وتبادل الحديث معهن، والتغزل بجمالهن ومفاتنهن[٦].

ولم يجد الخلفاء العباسيون حرجًا من الزواج بالأجنبيات من الجواري غير مبالين بأصولهن، وأمسين أمهات لأولادهم، مما سبب كثيراً من الاضطراب في العصر العباسي، وغلب ذلك على خلفاء العصر العباسي حتى أنه لم يكن سوى ثلاثة منهم فقط من أمهات حرائر، وهم السفاح وأمه ريطة بنت الحارث[٧]، والمهدي وأمه أم موسى بنت منصور الحميرية[٨]، والأمين وأمه زبيدة بنت جعفر المنصور[٩].

أما بقية الخلفاء فأمهاتهم لسن عربيات، فأم المنصور «سلامة»[١٠]، وأم الهادي وهارون «الخيزران»[١١] وأم المأمون «مراجل» التي توفيت إثر ولادته[١٢]، وأم المعتصم «ماردة»[١٣]، وأم الواثق «قراطيس»[١٤] وأم المتوكل «شجاع»، وأم المعتز «قبيحة» وأم

---

(١) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٧.
(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ١٥١/٥.
(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٤/٢٣.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي:العقد الفريد، ١١٤/٥.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ٢١٧/١.
(٥) مدور نخلة: حضارة الإسلام، ص١٢١.
(٦) الطبري: تاريخ الرسل، ١٨٤/٨.
(٧) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٤.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٤/٥.
(٨)المصدر نفسه والصفحة.كذلك حسن إبراهيم حسن: التاريخ السياسي، ٤٣٣/٢.
(٩)الطبري: تاريخ الرسل، ٣٥٩/٨. كذلك ابن حزم: جمهرة، ص٢٣.
(١٠)المصدر نفسه، ١٠٢/٨. الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٤.
(١١) ابن حزم: جمهرة، ص٢٣.كذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢٥٤/١.
(١٢)المصدر نفسه والصفحة.كذلك ابن الأثير: الكامل، ١٣١/٥.
(١٣) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٤.
(١٤) ابن حزم:جمهرة، ص٢٣.

المستعين «مخارق»[1]، وهذه أسماء أطلقت عليهن كنوع من الأضداد لإضفاء الجمال عليهن، حتى قيل أن السرورَ كُلَّهُ يحدث باتخاذ الجواري[2]، كما أن الزواج بالجواري يكون أَقَلَّ تكلفة وقيوداً من الزواج بالحرائر[3]، وقد غلبن على الخلفاء بعد أن أصبحن أمهات أولاد، وتدخلن في شئون الدولة، مما سبب الكثير من الاضطراب، الذي اتضح بصورة سافرة في العصر العباسي الثاني[4].

معلوم أن خلفاء العصر العباسي الأول لم يكونوا على شاكلة واحدة، فقد اكتفى بعض الخلفاء بزوجة واحدة، مثل السفاح الذي اقتصر على زوجته أم سلمة[5]، والمنصور الذي اشترط لزوجته أم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، وَدَوَّنَ هذا الشرط كتابة، وواضح أن هاتين الزوجتين من الحرائر[6]،

ومن ثم يمكن القول أن الحرائر احتفظن بمكانتهن الاجتماعية في العصر العباسي الأول، رغم اقتحام الجواري قصور الخلفاء، ويتضح ذلك من امتلاك سيدة القصر من الحرائر للعديد من الجواري اللاَّتي يقمن بأداء الخدمات لها، فقد امتلكت ريطة بنت العباس عددًا من الجواري منهن عتبة التي أرسلتها مع عبد الله بن مالك لشراء الرقيق للعتق[7]، وملك زبيدة الكثير من الجواري حتى أنه كان في قصرها زهاء ألفا جاريةٍ يحفظن القرآن[8]، مما يبين عدم صواب الشائع بأن العصر العباسي كان كُلُّهُ تحللٍ ومجونٍ؛ لأن بعض الجواري تأثرن بسلوك سيداتهن الحرائر.

وسبقت الإشارة إلى أن بعض أفراد الطبقة الوسطى اقتنوا الجواري كما أنهم تبادلوا إهداءَها فيما بينهم، وإن اقتصر ذلك على المناسبات وحدها، إذ أوردت المصادر أن الحسن بن سهل وزع رقاعاً فيها أسماء جوار[9]، أثناء الاحتفال الذي أقيم لزواج ابنته بوران والخليفة المأمون، وكذلك ملكت نساء الطبقة الوسطى عددًا من الجواري، فقد اكتظ

---

(١) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٤.

(٢) قال مسلمة بن مسلمة: «عجيب لمن استمتع بالسراري، كيف يتزوج المهائر، والسرور كله باتخاذ الجواري»= الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٣) ذكر الجاحظ أن: «من محاسن التزوج من الإماء، أنهن أقل تكلفة، وأقل مئونة، كما عندهنّ حسن الخدمة، وارتفاع الحشمة»= المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٤) حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية في العصر العباسي (الرياض، ١٩٨٤م)، ص٣١-٣٢.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧٥/٣.كذلك زينب فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص٥٨.

(٦) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٧.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١١٤/٥.

(٧) الجاحظ: رسائل، ١٥٦/٢.كذلك المسعودي: مروج الذهب، ٣٢٨/٣.

(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٤١/١.

(٩)المسعودي: مروج، ٣٠/٤.كذلك ابن خلكان: وفيات، ٢٨٧/١؛يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص٢٦١.

قصر والدة جعفر بن يحيى البرمكي بالجواري[١]، وتهادت نساء بغداد الجواري فيما بينهن، فقد أهدت أسماء بنت داود إلى أسماء بنت المنصور عشر وصائف في آن واحد[٢].

وتواجد الجواري في قصور الخلفاء وبيوت الطبقة الوسطى حتى قيام علاقة بينهن وبين الحرائر، وأثرت عدة عوامل على هذه العلاقة، خاصة إذا ما كانت الجارية سرية لزوج المرأة الحرة، وأُمَّاً لأولاده وأهم هذه العوامل بطبيعة الحال، الغيرة التي يزيد من استعارها أن يفضل الزوج الجارية على زوجته، وكثيراً ما حدث ذلك في العصر العباسي، إذ حازت بعض الجواري مكانًا أثيراً لدى الرجال، وانعكس ذلك على نفسية المرأة الحرة، وانتهى إلى وجود خلافات بين الجواري والحرائر، وذهب بعض اللغويين إلى تسمية الجواري بالسرائر بسبب الغيرة، فقال إن السرية الأمة التي يتسراها صاحبها منسوبة على غير قياس إلى السر، وهو الإخفاء؛ لأن الرجل يسترها عن زوجته[٣].

وخفف غيرة المرأة الحرة من الجارية التي شاركتها زوجها – فيما يبدو – أن الأولى كانت في الغالب سيدة القصر أو البيت، وإن لم تحز قلب زوجها، والغالب على الظن أن سيادتها للقصر لم تغنها وتقضي كُلْيَّةً على غيرتها، فقد بلغ من غيرة السيدة زبيدة من «دنانير» الجارية التي تعلق بها قلب هارون الرشيد، أن شكته إلى أهله وأبناء عمومته[٤]، وعندما لم يثنه عتابهم له، لجأت زبيدة إلى الحيلة لتصرفه عن دنانير أو تخفف من شغفه بها، فأهدته عشر جوار من جواريها، كان منهن «ماردة» أم المعتصم، و«مراجل» أم المأمون.

ترك تدفق هذا العدد الكبير من القيان وتعدد أجناسهن بصماته واضحة على المجتمع العباسي، وعمق انتشار وسائل الترف والبذخ والخلاعة من هذا الأثر، وبان ذلك في مناداة الكثيرين بعزل الحرائر وحجبهن عن المجتمع – رغم أن عزل الحريم عادة فارسية بحتة– حفاظًا على مكانة المرأة الحرة وصوناً لكرامتها، إذ كان الرجال يغارون على الحرائر[٥]، ويعافون المرأة الحرة إذا نكحت زوجاً واحداً، ونتيجة لانتشار التهتك والمجون الذي مارسته بعض الجواري، شدد الرجال في الحجاب على المرأة الحرة[٦]،

(١) الجهشياري: الوزراء، ص٢٤١.
(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٣٨.
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٨١/١.
(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٦٨٢٠/١٠.
(٥) الجاحظ: رسائل، ص١٥٨.
(٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص٩٨.

وتفشت ظاهرة الشكوى من عدم الثقة بالنساء لدرجة أن اعتقد البعض أنه لم يعد هناك امرأة محصنة[١]، ووصف آخرون الجواري بأنهن كخبز السوق، دلالة على سهولة نيلهن[٢].

ومن ثم يمكنني القول أن مقارنة المرأة الحرة بالجارية فيه إجحاف بالأولى التي احتفظت بمكانة اجتماعية وكرامة مصانة في ظل التقاليد السائدة آنذاك إلى جانب ما حث عليه الدين الإسلامي الحنيف.

وتعدى تأثير الجواري خلفاء العصر العباسي وحرائره إلى الشعراء، لدرجة أن ارتبط أسماء بعض الجواري بمشاهير شعراء العصر العباسي الأول، الذين لم يجدوا حرجاً في الإفصاح عن حبهم وعشقهم للجواري، وصدق بعضهم في عاطفته، وأشهر آخرون حبهم ابتغاء مصلحة، مثل التقرب إلى البلاط العباسي أو الحصول على الشهرة والمال، وأفاد ذلك النهضة الأدبية الشعرية بخاصة، إذ كانت الجواري ملهمات للشعراء في قرض الشعر، وإن نجم عن ذلك أن اصطبغ العصر العباسي بسمة العشق والغزل[٣].

فمعلوم أن أبا نواس هام حباً في جنان[٤]، جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، والتي اشتهرت بجمالها وظرفها، ومعرفتها الأخبار والأدب فضلاً عن رواية الشعر[٥]، ولم يصدق أبو نواس في حبه لامرأة سواها[٦]، وبلغ من هيامه بها أنه عزم على الحج عندما علم بذهابها لتأدية تلك الفريضة، كما أحب العباس بن الأحنف «فوز»[٧]، واشتهر أبو العتاهية بعشقه للجارية «عتبة»[٨].

ارتبط اسم عتبة بأبي العتاهية، إذ قال فيها الكثير من الشعر، وأمطرها قصائد من الغزل، وصدته مرات ولم يرتدع، وعندما ضاقت به شكته للخليفة المهدي الذي أمر بحبسه وضربه مائة سوط، وحتمًا نال هذا العقاب بسبب منزلته الاجتماعية ومكانته

---

(١) قيل أن مطيع بن إياس مر باثنين يتحدثان، فسألهما عما يخوضا فيه، فأجاباه: قذف المحصنات، فرد عليهما: أو في الأرض محصنة تقذفانها= الأصفهاني: الأغاني، ٤٧٩٨/٧.

(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢٣٠.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٧٧١٣/١١

(٤) المصدر نفسه، ٧٦٩٧،٧٧١٣/١١.كذلك ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء–تحقيق أحمد محمود (بيروت،١٩٧٧م)، ١٩٣/٢–١٩٤، المرزبان،الإمام أبى عبيد الله: معجم الشعراء (بيروت،١٩٨٢م)، ص٢١٨، ابن النديم، أبو الفرج محمد الوراق: الفهرست (الدوحة، ١٩٨٥م)، ص٣٤، الآمدي، أبو القاسم الحسن: المؤتلف والمختلف (بيروت،١٩٨٢م)،ص٩٤.

(٥) الأصفهاني:الأغاني، ٧٦٩٧/١١.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١٠٠/١.

(٦) المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك زينب فواز: الدر المنثور،ص١٢٦.

(٧) المصدر نفسه، ٦٣٤٢/٩.كذلك ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٧٩٦/٢.

(٨) المصدر نفسه ، ١٢٧٩/٢.كذلك ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٢٢٧، ٢٣٤.

السياسية، ظل أبو العتاهية في حبه هائماً، واستعان بأصدقائه كي يتوسطوا له لدى المهدي لعله يعتقها فيتزوجها(١)، ورغم ذلك يشكك البعض في صدق عاطفته نحو عتبة، إذ تذكر بعض الروايات أن عتبة طلبت من الخليفة المهدي إعطاءَه بعض المال لتعرف حقيقة مطلبه، فأمر له المهدي بمائة ألف دينار، وحين ذهب لتسلمها أعطى مائة ألف درهم فقط، حينذاك علمت عتبة حقيقة مبتغاه، وأن المال هدفه، وبلغ المهدي حيلة عتبة، فأدرك المهدي أن جاريته أعرف بنفسية عاشقها(٢).

من المعلوم تعدد جنسيات الجواري، ومعلوم أيضاً حرصهن على إرضاء غرائز الرجال دون صدق في الود، وذلك بحكم تربيتها في دور القيان وتدريبها على ذلك، وعدم وجود تقاليد تحكمها وأسرة تحميها، ثم تخرجها على أيدي النخاسين، ومن ثم انتشرت أنواع جديدة في مجتمع بغداد لم تكن معروفة قبلاً، مثل أساليب الخلاعة والمجون، وازدياد أخريات مثل شعر الغزل، وَعَبَّرَ مؤرخو العصر العباسي ومفكروه(٣) عن عدم صدق مشاعر الجواري، وحرصهن على كسب المال من وراء التظاهر بعشق الرجال أو قضاء حاجاتهم.

واتصفت بالوفاء والإخلاص الجارية «سكن»(٤)، وزادت عليه رضاها بالمستوى المعيشي الذي انحط عند سيدها، فعندما تدهورت الأمور المالية لسيدها محمود الوراق عرضها للبيع، وتنافس الناس على شرائها، وعرض أحدهم مائة ألف درهم، فانخرطت في البكاء، ورفضت أن تباع، وفضلت البقاء مع سيدها على رغم حياة الفاقة التي تنتظرهما، حينذاك كافأها الوراق بالعتق، ومنحها داره التي لا يملك سواها(٥).

وصفوة القول، أن الجواري تركت أثراً واضحاً على مجتمع بغداد، وأن تأثيرهن على الخلفاء والشعراء والحرائر لا يمكن إنكاره، كما أن الظروف التي تربين فيها تركت آثارها على أخلاقهم وطبائعهم، وتركن بدورهن بصماتهن على المجتمع في بغداد.

---

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٢٢٨.
(٢) ابن المعتز: المصدر السابق ، ص٢٣١.
(٣) الوشاء: الموشي، ص١٥٣.كذلك الجاحظ: رسائل، ١٧١/٢.
(٤) عنها ينظر: ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٣٦٦.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٣٢.
(٥)المصدر نفسه والصفحة.

المبحث الثالث: الـزينة

إن المجتمع العباسي الأول مجتمع ترف وحضارة وثراء، وانعكس ذلك بالضرورة على الذوق العام في جميع جوانب الحياة، وخاصة عند أفراد الطبقة الحاكمة والطبقة الوسطى، وبان أثره على حياتهم الخاصة، ومنها الزينة التي يتصدى هذا المبحث لدراستها.

ومعلوم أيضاً أن ينعكس ذلك على المرأة التي خلقت للتزين، ولاختلاف عناصر المجتمع العباسي الأول وأجناسه، اختلفت ضروب الزينة من عنصر إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى. لذا اقتضت دراسة هذا الفصل تقصي النقاط التالية:

١- زينة المرأة في العصر العباسي الأول، وتشمل اللباس الداخلي والخارجي، وزينة الشعر والوجه والقدم، كذلك أنواع الطيب والحلي.

٢- التطور في وسائل الزينة.

٣- مدى تقبل المجتمع العباسي لضروب الزينة خاصة التي جاءت بها الجواري.

أضحت بغدادُ عاصمةَ العالم الإسلامي، وحرص الخلفاء على جعلها أهم مركز في حركة التجارة العالمية؛ لذلك وفدت إليها التيارات الحضارية، وكان أقواها أثراً التيار الفارسي والتقاليد الفارسية، إذ ترك آثاره الواضحة في العصر العباسي الأول، وتجلى بصورة أكثر وضوحاً في الأزياء خاصة كما أكد بعض الباحثين(١)، وبانت أولى صوره في لباس البلاط الرسمي للدولة العباسية، فتعددت أشكاله وألوانه، وانعكس ذلك بدوره على لباس النساء، فكان لكل طبقة من النساء زيهن الخاص بهن(٢).

وساعد على تطور الأزياء وجود مصانع النسيج التي عرفت باسم «طراز»(٣)، والتي أشرفت عليها ما أطلق عليه «صاحب الطراز»(٤)، وأعان على صناعة هذه الملابس تواجد الأدوات المطلوبة مثل المِنْسَجُ(٥)، والقصبتان(١)، والمخيط(٢)،

---

(١)السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص٣١٧ وما بعدها.كذلك شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص٤٩-٥٠،حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٢٧/٢، صبيحة رشدي: الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية (بغداد، ١٩٨١م)، ص١٧.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ٣ /٢٣٤.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٦٧.كذلك عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١١١، والطراز كلمة فارسية تعني الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة= ابن منظور :لسان العرب، ٣٦٨/٥.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٦٧.

(٥) المنسَجُ : هو الخشبة التي يَلُفُّ عليها الحائكُ الثوب= ابن منظور: لسان العرب، ٦٨٤/١١.

والمغزل[٣]، واستخدام هذه الأدوات في صناعة الملابس وحياكتها احتاج إلى فن لم يغفله ابن خلدون[٤]، فشرح في مقدمته كيفية حياكة المنسوجات، واختصاص ذلك بالعمران الحضري، ومن ثم بات استخدام مثل هذه الأدوات دلالة على التطور الحضاري الذي بلغ مداه في العصر العباسي الأول.

وسايرت ملابس النساء هذا التطور؛ لأنهن أكثر مبالغة من الرجال في هذا المجال، وحرصهن على التأنق والفخامة، وساهمت نساء بغداد في تطوير هذه الأزياء، وزخرت المصادر التاريخية بأسمائهن مثل السيدة زبيدة[٥]، والسيدة عُلَيَّة بنت المهدي[٦]، كما ساهمت بعض الجواري في عملية التطوير مثل متيم الهاشمية[٧]، وساعدت حياة الترف والبذخ زمن العباسيين على تطور الأزياء، إذ تدفقت الخيرات على الدولة العباسية من حركة الفتوحات، واستثمرت الأموال بسبب الاستقرار وانتشار الأمن الذي شمل الدولة[٨].

ونتيجة للتطور والتنوع في الملابس وازدياد الطلب عليها وجدت مصانع في العراق، واختصت كل منطقة بصناعة أنواع معينة من الملابس، فاشتهرت بغداد بصناعة الوشي[٩]، ونوع آخر من القماش عرف بها، وسمى بسقلاطون بغداد[١٠]، وهو حرير موشي بالذهب، واشتهرت الأنبار بصناعة العباءات[١١]، أما الكوفة، فحازت شهرة صناعة المناديل الحريرية التي تلبس على الرأس وعرفت باسم «الكوفية»[١٢].

ونسبت الأزياء المجلوبة إلى بغداد إلى مناطق صناعتها، فورد إليها أنواع مختلفة من

=

(١) القصبتان، يجمع بينهما حبل يعلق في طرفه حديد أو حجر، يلحق بهما خيط يسمى البريد، لذهابه ومجيئه= صلاح الدين العبيدي: أصحاب الحرف في العصر العباسي،مجلة المأثورات،العدد٣ (الدوحة، ١٩٨٦م)، ص٨٥.

(٢) عبارة عن العود الذي يخيط به الحائك الثوب= ابن منظور: لسان العرب، ٢٨٢/٧.

(٣) ويستخدم للحصول على الخيوط اللازمة للنسيج= ابن منظور: لسان العرب، ٤٩١/١١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص٤١١.كذلك الألوسي: بلوغ الأرب، ٤٠٦/٣.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤.

(٦) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.كذلك ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٨.

(٧) المصدر نفسه، ٢٧٤٢/٤.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٦٢، فايد العمروسي: الجواري والمغنيات، ص٢٠٧، عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص٣١٦.

(٨) ابن خلدون:المقدمة، ص٤١١.

(٩) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٧/٤.كذلك عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١١٤، الألوسي: تجارة العراق، ص٢٤٣.

(١٠) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢٣٦.كذلك الألوسي: تجارة العراق، ص٢٤٣.

(١١) الحموي: معجم البلدان، ٢٥٨/١.

(١٢) المصدر نفسه، ٤٩٠/٤.

الملابس، مثل الثياب المعينية من سجستان[١]، والأبريسم من جرجان[٢]، والأكسية من جيلان[٣]، والأردية الطبرية من طبرستان[٤]، وترد إليها من نيسابور الثياب الحفية[٥]، والتَّاخُتْج[٦]، والرَّاخُتْجُ [٧]، والمصمت[٨]، وأثر وجود هذه الأنواع المتعددة من الأقمشة على استخدام النساء للأزياء المختلفة، فضلاً عن استحداث أزياء جديدة، ومن تلك الأزياء ما هو للبدن أو الرأس وغيرها، فمن ملابس البدن لنساء بغداد الأتب[٩] والصدار[١٠]، وتستعملها المرأة في أوقات الخلوة، والمجسد[١١]، وهو قميص ذو أكمام ضيقة يغطي ثلاثة أرباع الذراع، ويصنع من القماش الخفيف من خيوط القطن أو الحرير، ويعد من لباس المرأة الداخلي؛ إذ ترتديه المرأة في الخلوة أو الوضع، وارتدت نساء بغداد السراويل التي عدت من لِبَاسِهِن، وحثهم الدين الإسلامي على ارتدائها[١٢].

وشاركت جواري العصر العباسي الأول الحرائر لباسهن، وإن أضفن عليه بعض اللمسات التي تناسب طبيعتهن، والابتذال الذي يمارسنه، فقد لبست الجواري السراويل، ولكنهن زينها بالنقوش والكتابة، وشاع بينهم استخدام السراويل البيض المذيلة والفضافضة والمنتفخة، أما الراقصات من الجواري، فإنها أضافت إلى سراويلها الغلالة[١٣]، والتكة الخضراء[١٤]، والغلالة اختصت بلبسها الجواري من دون الحرائر، ويبدو أنها لباس شفاف

(١) الجهشياري: الوزراء، ص٢٨٣.
(٢) الحموي: معجم البلدان، ١١٩/٢.كذلك ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٠.
(٣) المصدر نفسه، ٢١٠/٢.
(٤)المصدر نفسه، ١٣/٤.
(٥) الحفية: الثياب الخفيفة، ولعها مشتقة من الحفاء وهو رقة القدم=ابن سيدة: المخصص، ٤٣٥/٣.
(٦) التاختج:فارسية–وهي ضرب من الحرير أو الكتان يصنع في نيسابور=محمد أبو رحمة: هارون الرشيد(القاهرة، ١٩٩٣م)، ص٢٨.كذلك الوشاء: الموشى،٥٦/١.
(٧) الراختج: فارسية– راخته بمعنى اللباس=محمد أبو رحمة: هارون الرشيد، ص٢٨.
(٨) المصمت: الثوب الذي لا يخالط لونه أي لون، وجميع خيوطه من الأبريسم=ابن منظور: لسان، ٥٤/٢.
(٩) الأتب: قميص غير مخيط الجانبين= ابن منظور: لسان، ٢٠٥/١،وصفه ابن سيدة بأنه:«ثوب تشقه المرأة وتلقيه في عنقها من غير كمين ولا جيب»= المخصص، ٣٠٥/٤.كذلك رينهارت دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب– ترجمة أكرم فاضل (بغداد، ١٩٧١م)، ص٢٨.
(١٠) الصدار: قميص صغير يلي الجسد= ابن منظور: لسان، ٤٤٧/٤.كذلك ابن سيدة: المخصص، ٣٩/٤.
(١١) المجسد: هو المشبع عصفرًا وزعفرانا= ابن منظور: لسان، ١٢١/٤، أو هو الثوب الذي يلي جسد المرأة = ابن سيدة: المخصص، ٣٠٧/٤.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية في العصر العباسي،دار الرشيد،(بغداد،١٩٨٠)، ص٢٢٣
(١٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يرحم الله المتسرولات من النساء**»= ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٢٨٩.

وربما أصل السروال فارسي؛ لأن كلمة سروال تعني شلوار بالفارسية= رينهارت دوزي: المعجم، ص١٦٩، عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية،ص١١٧.
(١٣) الغلالة: لباس يلي الجسد مباشرة= ابن منظور: لسان العرب، ٥٠٢/١١.كذلك الوشاء: الموشي، ص١٦١.
(١٤) التكة: شريط يربط به السروال= الوشاء: الموشي، ص١٦٤.

رقيق تستخدمه الجواري خاصة في مناسبات اللهو وأوقات الشراب والخلوات، فيكشف عن مفاتن جسدهن، ويبدو أن هذه الملابس اتخذت من الأقمشة الرقيقة؛ لارتفاع درجة الحرارة في بغداد إبان فصل الصيف(١).

ولباس المرأة الحرة في بغداد للبدن من الخارج عرف باسم البريم(٢)، لتشد به لباسها، وهو أحد أنواع الزنار على شكل حبل مفتول به لونان، ومطرز بالأحجار الكريمة، وارتدت نساء الطبقة الراقية من الحرائر الوشاح(٣)، وهو عبارة عن منطقة عريضة من الجلد المزركش بالأحجار الكريمة(٤)، والاختلاف بينه وبين البريم أن الأول من لونين بينما الثاني لون واحد(٥)، ويعزى ابتكار المناطق الذهبية إلى السيدة زبيدة(٦)؛ لأن الحرائر تميزن بالحشمة والوقار، ارتدين الجلاليب(٧)، والأردية عند خروجهن من المنزل، أو حضور حلقات الوعظ الدينية أو مجالس القضاة(٨)، وتأسياً على ذلك يمكن الرد على القائلين بأن العصر العباسي الأول كله تفسخ وتحلل، وإنما اقتصر التفسخ والتحلل على بعض الجواري المجبولات على ذلك.

واتخذت الجواري لباس خارجي يتناسب مع طبيعة أخلاقهن، واختصوا به وحدهن من دون الحرائر، مثل لبس القباء(٩)، للمناسبات الخاصة مثل الرقص، ويؤكد ذلك أن الجارية عريب(١٠) لبسته على عهد الأمين، وألبسته السيدة زبيدة(١١) لجواريها حتى تصرف ولدها الأمين عن شغفه بالخدم، واتخذ القباء –في الغالب الأعم– من الأقمشة الحريرية غالية الثمن(١٢)، حتى يسهل على الراقصة التحرك به ويضفي عليها جمالاً، وتزين الأقبية

---

(١) المقريزي،تقي الدين أبى العباس: المواعظ والاعتبارفى بذكر الخطط والآثار (بيروت،بدون تاريخ)، ٢٨/١.

(٢) رينهارت دوزي: المعجم، ص٦٤.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية، ص٦٩٧.

(٣) الوشاح: ينسج من أديم عريض ويرصع بالجواهر، وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها= ابن منظور: لسان العرب، ٦٣٢/٢.

(٤) رينهارت دوزي: المعجم، ص٣٤٦.

(٥)المرجع نفسه، ص٣٤٦.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية، ص٢٢٧.

(٦) المسعودي: مروج الذهب، ٣١٨/٤.

(٧) الجلباب: ثوب تغطي به المرأة صدرها وظهرها= ابن سيدة: المخصص، ص٣٩.

(٨) الوشاء: الموشي، ص١٦٣.كذلك ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٠.

(٩) رينهارت دوزي: المعجم، ص٢٨٥.

(١٠) إذ قالت: «كنت لمحمد الأمين وصيفة، ألبس قباء ومنطقة»= الشابشتي: الديارات، ص١٦٥.كذلك آدم متز: الحضارة، ١٣٤/٢.

(١١) المسعودي: مروج، ٣١٨/٤.كذلك آدم متز: الحضارة، ١٣٤/٢.

(١٢)رينهارت دوزي: المعجم، ص٢٩١،٢٨٥.كذلك محمود إبراهيم: المرأة في إنتاج المصور المسلم (القاهرة، ١٩٨٣م)، ص٣٢.

عادة بالأشعار، وقد شارك الرجال النساء لبس القباء[١].

أما لباس المرأة عند أهل الذمة، فيعد الزنار[٢] من أهمها، إذ كان على المرأة الذمية أن تشد زناراً فوق الإزار وتحته، وفرض عليهن هذا اللباس ليميزن عن المسلمات[٣]، وطورت المرأة الذمية في الزنار، مثلما فعلت الجارية متيم[٤]، عندما عقدت في طرف إزارها زناراً وخيط أبرسيم ثم جعلته في رأسها، فيثبت الإزار، حينذاك قلدتها الجواري في ذلك، وزينت نساء أهل الذمة زنانيرهن بكتابة الأشعار عليها[٥].

واختصت نساء الطبقة العامة بلباسهن الذي يتناسب مع وضعهن الاجتماعي، ومنه النطاق[٦]، وهو ثوب تشده المرأة بحبل من وسطها ثم ترسل أعلاه على أسفله، ويلبس خاصة وقت العمل[٧]، ولبسن كذلك السراويل البيض الشائعة بينهن، ولبست فقيرات الطبقة العامة المدرعة، وهي نوع من أنواع الجيب وتكون من الصوف، أو يلبسن الأسمال[٨].

وتدل ألوان الملابس على التمايز الطبقي آنذاك، فابتعدت الحرائر عن لبس الملابس المصبوغة والمرشوشة، وذات اللون الواحد كالأبيض والأزرق، والأسود (المسوح) ؛ لأنها من لباس الحداد، والمريض (بالأمراض الجلدية) والمهجورات وابتعدت الحرائر أيضاً عن لبس الأحمر المورد؛ لأنها من لباس النساء النبطيات والإماء المتقينات[٩].

واستعملت سيدات بغداد الخفاف لباساً للقدم، فاتخذت السيدة عُلَيَّة والخيزران زوجة المهدي الخفاف[١٠] المرصعة بالجواهر المصنوعة من الجلد الرقيق[١١]، وكذلك استعملته السيدة زبيدة[١٢]، واستخدمت النساء الطيوب لتعطير خفافهن مثل شمع العنبر[١٣].

---

(١) ذكر الجاحظ: «أن أصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب، فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس القباء»= البيان والتبيين، ٣/١١٥.
(٢) رينهارت دوزي: المعجم، ص١٦٢.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦٢.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية، ص٣٠٤.
(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٤/٢٧٤٢.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٦٢.
(٥) الوشاء: الموشي، ص١٦٤، ٢٢٦.
(٦) ابن سيدة: المخصص، ١/٣٧.
(٧) رينهارت دوزي: المعجم، ص٣٤٠.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية، ص٣٠٨.
(٨) صبيحة رشيد: الملابس العربية، ص٢٧.
(٩) الوشاء: الموشي، ص١٦٤.
(١٠) يذكر الجاحظ أن الخفاف من أصل فارسي، وكانت العرب تلج بذكر النعال، والفرس تلج بذكر الخفاف= البيان والتبيين، ٣/١٠٦.
(١١) صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية الإسلامية، ص٣٩.
(١٢) المسعودي :مروج الذهب، ٤/٣١٨.
(١٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص٥٠.

وشاركت الجواري الحرائر في لبس الخفاف مع اختلاف في الألوان، فكانت خفاف الجواري مزركشة ومزينة بألوان مختلفة، كما زين خفافهن بكتابة الأشعار عليها، واتخذن النعال المزركشة أيضًا، والمزينة بالأشعار، والتي تصر عند المشي حتى تلفت أنظار الرجال، ووضح ذلك في نعال الجارية متيم[١]،وقد شارك الرجال النساء في الكتابة على النعال[٢]، أما النساء الذميات فقضت عليهم الأوامر بأن يكون أحد الخفين أسود اللون بينما الآخر أبيض تمييزًا لهن[٣]، وفضلاً عن ذلك استخدمت النساء بعامة الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف[٤].

صاحب التطور الحضاري في بغداد تطور أزياء النساء هناك، ونالت هذه الأزياء شهرة في العواصم الأخرى، وحاولوا الحصول على بعض هذه الأزياء من بغداد، فقد طلب فرج بن سلام –أحد أكابر أدباء وعلماء قرطبة– من الجاحظ أن يتوسط له لدى صاحب الطراز، ليعمل له ثيابًا عراقية رفيعة الطراز، على أن تطرز باسم الأمير محمد بن عبد الرحمن حاكم الأندلس آنذاك[٥].وأولت المرأة البغدادية شعرها عناية كبيرة لا تقل في أهميتها عن عنايتها بملابسها، فابتكرت تصفيفات للشعر، واتخاذ أوضاع للذوايات واستخدمت الأصباغ، وزينته بالجواهر أيضاً، أو التيجان المرصعة بالأحجار الكريمة[٦]، كما اهتمت بنظافة شعرها فغسلته وعطرته، ويقال أن عريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة، وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً من المسك والعنبر[٧]، وكانت الجارية «نبات» تغسل شعرها بالبان[٨]، واستخدمت أمشاطًا لتمشيط شعرها، وكانت هذه الأمشاط من الصدف والصندل[٩] أو الخشب كل بحسب طبقته الاجتماعية، واستعانت بعض النساء في بغداد بالماشطة لتقوم

---

(١) الوشاء: الموشي، ص١٦١،١٦٤،٢٣٦ .

(٢) قال أبو العتاهية عندما كتب على نعل أرسلها للمأمون:

نعلٌ بعثت بها لتلبسها ... تسعى بها قدمٌ إلى المجد

= ديوان أبي العتاهية، ص٦٠.كذلك الجاحظ: البيان والتبيين، ١٢١/٣.

(٣) صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية الإسلامية، ص٣٣٢.

(٤) الوشاء: الموشي، ص١٦٤.

(٥) ابن حيان،أبو مروان بن خلف: المقتبس من أنباء أهل الأندلس (بيروت،١٩٧٣م)، ص١٦٤.

(٦) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.كذلك ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٨، كرم البستاني: النساء العربيات (بيروت، ١٩٦٤م)، ص١٢٦.

(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٧٨/٢١.كذلك فايد العمروسي: الجواري المغنيات، ص١٨٤.

(٨) قال أبو نواس:

أمانيات فقد أضحت مخضبة ... والشعر مفترق بالبان مغسول

= ديوان أبي نواس، ص٣٠٩.

(٩) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص٥٠.كذلك صلاح الدين العبيدي: أصحاب الحرف، ص٨٥.

عنها بذلك[١].

والتزمت الحرائر من النساء بتصفيف شعرهن بما يناسب وضعهن الاجتماعي، ولم يقلدن الجواري فيما جئن به أو ابتكرنه من تصفيفات للشعر، خشية تعرضهن للسخرية والاستهزاء من قبل مجتمع بغداد[٢]، فإن استحسن ما جاءت به الجواري من تصفيفات الشعر، فإن الغالبية رفضوا أن تتمثل الحرائر بهن، بيد أن ذلك لم يمنع الحرائر من ابتكار وسائل لتزيين شعورهن، فابتكرت عُلَيَّة بنت المهدي العصائب المكللة بالجوهر، وقيل أنها لجأت إلى ذلك لستر عيب في جبينها[٣]، وقلدتها الكثيرات من الحرائر، كما استخدمت الحرائر التيجان كزينة للشعر، ومن هذه التيجان أهدى هارون الرشيد الكثير منها حينَ زواجه من السيدة زبيدة[٤].

وبالغت الجواري في العناية بتصفيف شعورهن، فاستخدمن الأحجار الكريمة[٥] في تزيين العصائب، وكتبن على العصائب الأشعار التي تدور حول الحب والهجر والفرح بالخيوط الذهبية والفضية، فقد غنت شمسة الطنبورية للرشيد وعليها عصابة مزينة بالأشعار[٦]، ولبست الجواري القلانس كزينة للشعر في مناسبات اللهو ومجالس الشراب[٧]؛ لأن غالبية الناس فضلت الشعر الأسود، ولم يقبلوا على الشعور الذهبية، عمل النخاسون على صباغة شعور الجواري الشقر باللون الأسود[٨].

واهتمت نساء الطبقة الوسطى في بغداد أيضاً بزينة شعورهن وتصفيفه حسب مكانتهن الاجتماعية، فزين الرؤوس بحلية مسطحة من الذهب ولففن حولها عصائب محلاة باللؤلؤ والزمرد[٩]، كما اعتنين بزينة جواريهن، وبان ذلك فيما فعلته أم جعفر بن يحيى البرمكي التي جعلت وصائفها يحلين رؤوسهن بالجواهر والأحجار الكريمة[١٠].

أما نساء العامة، فمعلوم أنهن مثلن الطبقة الكادحة، التي تشقى من أجل لقمة

---

(١) السيوطي: المستظرف، ص٢٠.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص٣٩.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.كذلك ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٨، كرم البستاني: النساء العربيات ، ص١٢٦.

(٤) الشابشتي: الديارات، ص١٥٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ٢٢١/٨.كذلك مليحة رحمة الله: الحالة الاجتماعية(القاهرة، ١٩٦٨م)، ص٨٤.

(٦) الوشاء: الموشي، ص١٦٣.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل، ٤٢/٨.كذلك صلاح الدين العبيدي: الملابس العربية الإسلامية، ص٣٩.

(٨) يقول ابن بطلان: «واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد»= شري الرقيق، ص٣٥٥.

(٩) حسن محمود وزميله: العالم الإسلامي، ص٢٢٧.كذلك رمزية الأطرقجي: الحياة الاجتماعية،ص٢٦٧.

(١٠) الجهشياري: الوزراء، ص٢٤١.

العيش التي تقيم الأود، وشغلن تمامًا بالبحث عن الضروريات، ولم يكن لهن أمل في التمتع بقليل من الكماليات، ومن ثم فمن المستبعد أن يكن تحلين بهذه الجواهر والحلي التي شاع استخدامها كزينة للشعر، وربما لم تكن نساء العامة تجد وقتًا لتصفيف شعرها، إذ شغل طلب الرزق جلَّ وقتها، وبقية الوقت في الراحة من الكد وتعب اليوم.

وأولت المرأة البغدادية وجهها عناية خاصة، فاستخدمت نساء الطبقة الراقية أغطية للوجه مثل الخمار والمقنعة[١] تعبيراً عن الفخامة والأبهة، وليس تقليداً دينياً كما فعلت نساء النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، إذ كانت معظم نساء العصور الوسطى سافرات؛ لأن الإسلام لم يحرم النظر إلى وجه النساء[٣]، كما اعتنت النساء البغداديات ببشرتهن، فغسلتها بأنواع كثيرة من الغسول والدهون والطيوب لتطريتها، وإضفاء النضرة عليها، واستخدمن «الورس»[٤] لطلاء البشرة وإكسابها اللون الأصفر، الذي مال العرب إليه[٥].

واستخدمت المرأة الكحل لتجميل العيون؛ لأن العرب اعتبرت الكحل أزين الزينة[٦]، حتى أنهم أطلقوا على المرأة التي لا تكتحل اسم «مرهاء»، وبه وصفت محبوبة جارية المتوكل؛ لأنها أضربت عن الزينة بعد وفاته[٧]، واستخدمت المرأة في ذلك مواد مصنوعة من الخشب والزجاج والذهب والفضة، وحفظت النساء الكحل في أوعية خاصة سميت «المكحلة»[٨] كما كحلت النساء أجفانهن بأنواع من الطيوب والدهان مركبة من العنبر والبان والمسك[٩].

واهتمت الجواري بزينة الوجه بدرجات فاقت الحرائر، إذ فعلن مثلما فعلت الحرائر، وزادوا عليه التزجيج، والتنميص، وإزالة الحواجب أو إطالتها، إذ وجدت جارية على عهد الرشيد ذات حواجب مقرونة وكحلاء العينين[١٠]، كما رسمت الجواري شوارب[١] في وجوههن

---

(١) ابن سيدة: المخصص، ص٣٨.
(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٣،٣٥.
(٣) الجاحظ:رسائل، ١٥٧/٢.
(٤) الورس،نبات كالسمسم يصبغ به، ويقال له الغمرة= ابن قتيبة: أدب الكاتب (بيروت،١٩٨٥م)، ص٩٨.
(٥) ذكر الجاحظ أن الأصمعي رأى جارية دهنت بالورس بدنها= المحاسن والأضداد، ص٢٢٧.
(٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ٩٢/٢.كذلك زكية العلي: التزين والحلي، ص٦٨.
(٧) ذكر البعض أن بعد مقتل المتوكل:«جاءت الجواري عليهن الثياب الفاخرة وقد تزين وتعطرن، سوى محبوبة فإنها جاءت مرهاء»= السيوطي: المستظرف، ص٦٦.كذلك المسعودي: مروج الذهب، ١٢٥/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٥٦/١.
(٨) ابن سيدة: المخصص، ٥٨/١.
(٩) الطبري: تاريخ الرسل، ١٩١/٨.كذلك السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص٣٢٦.
(١٠) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٨٢.

وجوههن من الطيب والمسك والعنبر تشبهاً بالغلمان، وانتشر ذلك بينهن في العصر العباسي الثاني أكثر من سابقه، والغالب على الظن أن الحرائر بعدن عن ضروب الزينة هذه لنهي الإسلام عن ذلك[٢].

واختصت الجواري من دون الحرائر بالوشم[٣]، الذي شاع بينهن في العصرين معًا، ورسمن الخال على الوجه بنقطة أو أكثر بالطيب، وكتبت بعضهن على وجههن أسماء، لعله تعبير عن إظهار الحب والعشق، كما فعلت محبوبة[٤] جارية الخليفة المتوكل، إذ كتبت على خدها «جعفر»، وظل هذا النوع من وسائل زينة الوجه باقيًا، واستمرت المرأة البغدادية في استخدامه بعد ذلك[٥].

واستخدمت النساء بعامة الخضاب للزينة، ومعلوم أن الإسلام حث على ذلك[٦]، فاستخدمت الحرائر الحناء[٧] في العصر العباسي الأول، أما الجواري فقد طورن في استخدام الخضاب، برسم أشكال متعددة، كذا كتابة الأشعار على أيديهن وأرجلهن[٨]، وفعلت ذلك الجارية «قائد» إحدى جواري الخليفة المأمون عندما نقشت الحناء على يدها[٩]، كما استخدمت الجواري الطيب كنوع من الخضاب[١٠].

واستعملت حرائر بغداد أبان العصر العباسي الأول، الطيب بكثرة في المناسبات الخاصة، مثلما حدث في زواج السيدة زبيدة[١١]، وزواج المأمون من بوران بنت الحسن

=

(١) وصف ابن المعتز هذه الشوارب في قوله:

ومستنصر يزهى بخضره شارب وفترة أجفان وخد مورد

=ديوان ابن المعتز، ص١٤٧.

(٢) ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٣٣٩.

(٣) الوشم :هو غرز الإبر في البدن حتى يسيل الدم ثم ينثر عليه الشحم فيزرق أو يخضر= ابن منظور: لسان العرب، ٦٣٨/٢، ابن سيدة: المخصص، ٥٧/١.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، ١٢٥/٤.كذلك الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص١١١، ابن كثير: البداية والنهاية، ٣٥٠/١٠،السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(٥) ورد في قول الشاعر مجد الدين بن أيوب المتوفى (سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م):

آه من ورد على الخد يك بالمسك منقط

= الجبوري: المرأة، ص١٩٠.

(٦) ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٣٦.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل، ١٩١/٨.

(٨) ابن الجوزي: أخبار الظراف و المتماجنين، ص١٠٢.

(٩) الوشاء: الموشي، ص٣٣٨.

(١٠)المصدر نفسه والصفحة.

(١١) الشابشتي: الديارات، ص١٥٦.

ابن سهل[١]، ومن الجلي أن بعض أنواع الطيب اقتصر استعمالها على نساء الطبقة الغنية من الحكام وأعيان الدولة والتجار لارتفاع أسعارها، واستخدمت نساء بغداد عطورًا خاصة آنذاك، اختصت بها تلك الفترة، وعرفت باسم العطور المركبة مثل النيوفر[٢]، والند[٣]، والمثلثة الخزائنية[٤]، واللخالخ[٥]،

وعملت نساء بغداد على تقوية بعض العطور بخلطها مع الورد، فتكون رائحتها أزكى من رائحتها الأصلية، ونجم عن ذلك ابتكار عطور جديدة، فالنرجس عندهن يقوي الورد، والورد بالمسك، والبنفسج بالعنبر، أما الريحان فيقوي بالكافور[٦]، ومن ثم اشتهرت بغداد بمنثور بغداد[٧]،وابتاعت نساء بغداد ما احتجن من عطور من سوق العطارين الذي كان يقع فيما يلي باب القرية من دار الخلافة، واختص هذا السوق بالنساء وحدهن[٨]، ولم يكن الشراء وحده وسيلة للحصول على الطيب، وإنما يمكن الحصول عليه كهدية أو هبة، فقد تهادت[٩] الحرائر بأنواع مختلفة من الطيب، ووهبت الخيزران الطيب للنساء في مواسم الحج، إذ قسمت بينهن آنية من ذهب وفضة مملوءة بأنواع الطيب[١٠]، واستعملت نساء الطبقة الوسطى الطيب، وتهادين أنواعاً كثيرةً منه فيما بينهن،بينما أسرفت الجواري في بغداد في استخدام العطور حتى وصل بهن الأمر إلى غسل شعورهن به[١١]، كما تعطرن من رأسهن إلى أقدامهن بجميع أنواع العطور والطيب [١٢]، وتهادينها فيما بينهن[١٣]، وأولعت الجواري باقتناء الورود والزهور، فأعجبت الجارية متيم بالبنفسج، ولم يكن كمها يخلو أبداً من الريحان، «ولا يرى إلا كما قطف من البستان»[١٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ٦٠٧/٨.كذلك المسعودي: مروج، ٣٠/٤، ابن الأثير: الكامل، ٢١١/٥.
(٢) النيوفر: ضرب من الرياحين= ابن الجوزي: المنتظم، ٦ /٢٥٣.
(٣) الند: مركب من العنبر والمسك وماء الورد والعود المعطر =كذلك الأبشيهي: المستظرف، ٦٥/٢.
(٤) الوشاء: الموشي، ص١٦٤.
(٥) المصدر نفسه والصفحة.كذلك الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٢١٧.
(٦) الأبشيهي: المستطرف، ٦٥/٢.
(٧) الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢٣٩.كذلك صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٤٠٥.
(٨) الحموي: معجم البلدان، ٣٤٠/٤.
(٩) المسعودي: مروج الذهب، ٣٥١/٣.
(١٠) مجهول: العيون والحدائق، ٢٩١/٣.
(١١) الأصفهاني: الأغاني، ٧٨/٢١.كذلك العمروسي: الجواري والمغنيات، ص١٨٤، سهام الفريح: الجواري والشعر في العصر العباسي، ص٤٢،أبونواس: ديوان أبي نواس، ص٣٠٩.
(١٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٨٢.
(١٣) الأصفهاني:الأغاني، ٢٧٤٦/٤.
(١٤)المصدر نفسه والجزء والصفحة.

واحتاجت المرأة البغدادية لآنية تحفظ فيها العطور والطيب، ومن ثم تفنن صُنَّاعُ الزُّجَاجِ في بغداد في صناعة القناني والزجاجات المزينة حتى اشتهرت بغداد بها، وزخرف الصناع القناني برسومات الطيور وأبيات الشعر من غناء وغزل، كما نقشوا عليها الأمثال[1]، بهدف إرضاء ذوق المرأة هناك التي تميل بطبيعتها إلى الزخارف، وأكد الوشاء ما ذهبنا إليه باستخدام النساء لأنواع كثيرة من الطيب، إذ رصد هذه الأنواع[2].

وَتُعَدُّ الحلي من أهم وسائل الزينة لما تضفيه من جمال على المرأة، ولقد تحلت حرائر بغداد من الطبقة العليا إبان العصر العباسي الأول بكثير من الجواهر أثناء المناسبات، ففي حفلة زفاف السيدة زبيدة، قيل أن عليها من الجواهر بلغ من كثرته أنها لم تستطع المشي، كما زينت بالجواهر خفيها، وبالتيجان رأسها[3]، واشتهرت السيدة عُلَيَّة بنت المهدي باستعمال الحلي في تزيين عصائبها[4].

والجواري بعامة حريصات على زينتهن وإبراز مفاتنهن لجذب الأنظار، كما حَرِصْنَ على المال والهدايا، إذ كانا وسيلتي رضائِهِنَ، فحتماً اقتنين الكثيرَ من المجوهرات اللاَّتي ساهم خلفاء العصر وكبار رجال الدولة في زيادتها عندهن[5]، فقيل إن في مجلس الرشيد زهاء ألفي جارية عليهن الكثير من المجوهرات[6]، التي أبانت المصادر عن أسمائها مثل المخنقة وهى القلادة وأطلق عليها المخنقة لأنها تحيط بالعنق مثل التي تزينت بها متيم الهاشمية [7]،وتوسط المخنقة حبة ذات قيمة عالية، وعن يسار الحبة ويمينها أربع زمردات وأربع يواقيت[8]، واستعملن أيضاً المخانق الذهبية المحلاة بالخرز[9]، واتخذت الجواري الخلاخيل لزينة أرجلهن[10]، وَرُصِّعَتْ بَعْضُ هذه الخلاخيل بالأحجار الكريمة، أو

---

(١) الوشاء: الموشي، ص٢٤٣.كذلك حسن محمود: العالم الإسلامي، ص٢٠١، جابر الشكري: الطيب والعطور،مجلة المورد،مج١٤،العدد ٤(بغداد، ١٩٨٥م)، ص٥٤.

(٢) إذا قال: «من زينتهن في الطيب الذي ليس للرجال فيه نصيب، استعمال اللخالخ والصندل والصباح والقرنفل، والساهرية والأدقال، والمعجونات، والزعفران، والخلوق وماء الخلوق، والكافور وماء الكافور، والمثلثة الخزائنية، والبرمكية السلطانية، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزنبق والبان»= الموشي، ص١٦٤.

(٣) الشابشتي: الديارات، ص١٥٦.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.كذلك ابن الجوزي: أحكام النساء، ص٤٤٨.

(٥) الاصفهاني: الأغاني، ٦١٧٨/٩.كذلك البيروني: المجاهر، ص٦٢.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة، ١٥١/٥.

(٧) الأصفهاني: الإماء والشواعر، ص٩١.

(٨) الأصفهاني: الأغاني، ٢٧٤٦/٤.

(٩) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٨٢.

(١٠) ذكر الجاحظ في وصفه لجارية: «قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها»= المحاسن والأضداد، ص١٨٣.

بقطع معدنية تصر عند المشي، وتغني كثيرُ من الشعراء[١] بخلاخيل محبوباتهم من الجواري وإن أطلقوا عليه «الحجل»، واستعملت الجواري الخواتيم لتزيين أصابعهن، وحلين الخواتيم بأغلى أنواع الفصوص كالياقوت وغيره، وكتبن عليها مثلما فعلت إحدى جواري المأمون، وزينت الجواري معاصمهن بالأساور، وأذرعهن بالدماليج، كما استعملن الأقراط والشنوف[٢]؛ لإبراز زينة وجههن[٣].

ويمكن القول، أن نساء بغداد بالغن في أناقتهن وزينتهن، فاخترن الملابس الحريرية وصففن شعورهن وزينها بالأحجار الكريمة، كما استخدمن كل ضروب الزينة الأخرى، وساعدهُن على ذلك التطور الحضاري الذي شهدته بغداد آنذاك.

صفوة القول، أن المرأةَ البغدادية تَرَكَتْ بصماتها على الحياة الاجتماعية رغم ما فرض عليها، وبخاصة الحرائر، من العزل والبقاء في قعر دارها، وساهمن في تطوير وسائل زينة المرأة، وفي الوقت نفسه حافظت الحرائر على أنفسهن من تأثير الماجنات من الجواري، إذ لم تكن كُلُّ الجواري خليعاتٍ باحثاتٍ عن المال، والحقيقة أن الجواريَ بعامة أَثْرَيْنَ الحركة الأدبية إبان تلك الفترة، وابتكرن وسائل جديدة للتجمل والتزين، وإن بالغن دوماً في زينتهن، فذلك من متطلبات عملهن.

---

(١) وصف مسلم بن الوليد أحد شعراء العصر العباسي الأول ذلك في قوله:

خَفِينَ على غَيْبِ الظنُونِ فلم يَنْطقْ بأَسْرارِها حِجْلُ

= ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص٨٣٩.

(٢) الشنوف: حلى للآذان تعلق أعلاها بينما تعلق الأقراط أسفلها= ابن منظور: لسان العرب، ٣٧٤/٧.

(٣) الوشاء: الموشي، ص١٦٥.كذلك موريس جود فروا: النظم الإسلامية، ص١٩٦.

الفصل الرابع

دور المرأة الثقافي

المبحث الأول : دور الحرائر في مجال الأدب والفنون.

المبحث الثاني : دور الجواري في مجال الآداب والفنون.

المبحث الثالث : دور المرأة في مجال العلوم الدينية.

المبحث الأول: دور الحرائر في مجال الأدب والفنون

تعتبر دراسة الأوضاع الثقافية عند الحرائر من الموضوعات ذات الأهمية لأنها تنقل لنا صورة صادقة للمجتمع الذي عشن فيه سواء داخل جدران القصر أو عند الطبقات الأخرى في المجتمع. فمعلوم أن خلفاء العصر العباسي الأول وشعراءَه وَغَيْرَهُمْ ساهموا مساهمةً فعالةً في إثراء النهضة الأدبية في المجتمع العباسي الذي تمثلت في ثقافة هؤلاء الشعراء وغيرهم من أدباء العصر ومفكريه وجواريه. هذا الأمر الذي حرمت منه الحرائر.

ورغم ذلك برزت من الحرائر من تمتعن بثقافة عالية في شتى الفنون الأدبية والإشكالية التي نحن بصددها تبيين مدى تقبل المجتمع لثقافة هؤلاء الحرائر خاصة من نساء الخلفاء،وإلى أي مدى أثرت وتأثرت هؤلاء الحرائر بالثقافة الأدبية، وما هي الثقافات الأجنبية الوافدة التي أثرت في أدب هؤلاء الحرائر. وسترتكز دراسة هذا المبحث على المحاور الآتية:

١- ثقافة الحرائر في القصور من شعر ونثر وغيره من الفنون والأدب.

٢- ثقافة النساء من الطبقات الأخرى وتأثرهن بالأوضاع الموجودة.

٣- ثقافة الأعرابيات في العصر العباسي.

من المعلوم أن العصر العباسي الأول شهد تطورًا كبيرًا في جميع جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية ومما لا شك فيه أن هذا التطور شمل أيضًا الناحية الثقافية التي تعتبر صورة صادقة تعكس مدى تطور المجتمع.كما أن التيار الفارسي وغيره من التيارات الوافدة كان لها تأثيرات في كثير من جوانب مجتمع بغداد بخاصة والمجتمع الإسلامي عامة،ورأيتُ ذلك في تطور الأزياء.

ومما لا شك فيه أن حركة الترجمة التي نشطت في هذا العصر وامتزاج الثقافات الوافدة مع الثقافة العربية وتشجيع الخلفاء ومساهمتهم في نشر الثقافة من عقد مجالس العلم في الدولة وتشجيع المناظرات وإجزال العطاء للعلماء والشعراء والأدباء، ومجانية التعليم وعدم تدخل الدولة في تحديد مناهجه ومراقبة المعلمين، كل ذلك ساعد على وجود نهضة أدبية عالية، وازدهار حضاري شمل كافة مرافق الدولة[١]، وساعد على شيوع الثقافة وتوغل

(١) ابن الطقطقى: الفخري، ص١٩٣،٢١٦.كذلك المسعودي: مروج، ٣١٤/٤-٣١٥،٣١٨-٣١٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٦٩،٣٠٦،محمد الخضري بك: الدولة العباسية(القاهرة، ١٩٧٠م)، ص١٣٧.

الحركة التعليمية إلى أدنى طبقات المجتمع أن باب العلم كان مفتوحًا للجميع لذلك رأينا نبوغ كثير من هؤلاء الذين ساهموا في إثراء النهضة الأدبية مثل أبي العتاهية الذي كان خزافاً وأبي يوسف القاص الذي كان يعمل جزارًا. ولا ينبغي أن نغفل دور الوراقين الذين ساهموا في نشر الثقافة في بغداد والأمصار المجاورة من قيامهم بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها. هذا الدور الذي لم يغفله كثيرُ من الدارسين للحركة الأدبية[١].

لقد استفادت المرأة في العصر العباسي الأول من هذه النهضة الثقافية الأدبية، بالرغم من القيود التي فرضت عليها من حجاب وغيره، والمناداة من قبل الفقهاء بعزلها خوفاً عليها من التأثير بتيار الفسق والمجون؛ الذي شاع في تلك الفترة[٢].

ولهذا لابد من الإشارة إلى تعليم البنات في تلك الفترة فكانوا يؤثرون تعليم البنات القرآن الكريم وخاصة سُورة النُّور[٣]، بالإضافة إلى تعليمهن بعض الأمور الخاصة بالفنون المنزلية. بيد أن تعليم الفتيات لم يقف عند هذا الحد بل تطور كثيراً؛ فقد قامت النساء بتعليم البنات وتثقيفهن[٤]، بل إن النساء كن يتسابقن في اختيار هؤلاء النساء اللاَّتي أحرزن نصيبًا وافرًا من العلوم والفنون لتعليم بناتهن القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية، وتعليمهن فروع اللغة العربية من الشعر والمنطق والبلاغة، هذا أدى إلى أن المرأة لم تقتصر على طلب العلم فقط؛ وإنما تعدت ذلك إلى التدريس[٥].

ومعلوم أن نساء الطبقة العليا كان لهن نصيب أوفر من التعليم حتى برزت منهن من عُرِفْنَ بحُبِّهِنَّ لـلآداب والعلوم ورواية الشعر، حتى قيل إنَّ نساءَ الخلفاءِ أَكْثَرُهُنَّ مُستنيرات، وكانت بعضهن يحضرن المجالس والمناظرات من وراء الستار ويشتركنّ في مناظرة الرجال[٦]. ومما يؤكد ذلك بروز أسماء في قصور الخلفاء كان لهن دورُ كبيرُ في النهضة الأدبية وهو ما نستطيع أن نطلق عليه ثقافة الحرائر الأدبية.

---

(١) فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، ص٢٨٩.كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٤/٢، شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص١٠٣،حسن محمود وزميله: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢٥٨.

(٢)البخاري:صحيح البخاري، ١٨/٧.كذلك الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٩،آدم متز: الحضارة الإسلامية، ١٧٥/٢.

(٣) وهم قد يتبعون في ذلك حديث للرسول صلى الله عليه وسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«**لاَ تُنْزِلُوهُنَّ الغُرَف وَلاَ تُعَلمّوهُنَّ الْكِتَابة وعَلِّمُوهُنَّ المغْزَل وسُورة النُّور**»= الحاكم، أبو عبدا لله النيسابوري: المستدرك عن العميق في الحديث (الرياض، بدون تاريخ)، ٣٩٦/٢.

وقال الجاحظ:كان يقال:«لا تُعَلموا بناتكم الكتابَ ولا تروُّوهن الشعر، وعَلّمُوهُنَّ القرآن، ومن القرآن سُورة النُّور»= البيان والتبيين، ١٨٠/٢.كذلك عمركحالة: المرأة في عالم العرب والإسلام(بيروت، ١٩٧٨م)، ٢٣/١.

(٤) محمد بيهم: المرأة في حضارة العرب،دار النشر للجامعيين(بيروت، ١٩٦٢م)، ص١٥٠.

(٥)المصدر نفسه والصفحة،.كذلك باسمة كيال: تطور المرأة عبر التاريخ(بيروت، ١٩٨١م)، ص٩٦.

(٦) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص١١٧.كذلك السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص٣٣٤.

ومن سيدات العصر العباسي الأول اللاَّتي لهن دور ثقافي معروف السيدة الخيزران زوجة الخليفة المهدي،فقد كانت تقابل العلماء والشعراء في دور الخلافة، وكانت على درجة كبيرة من الذكاء والثقافة المتمثلة في حب الأدب وقرض الشعر[١]، والراجح أنها اكتسبت هذه الثقافة على أيدي النخاسين الذين لهم فنونهم في أبراز جواريهم وتثقيفهن قبل البيع؛ فضلا عن استفادتها من العلم والأدب في قصر المهدي.

أخذت الخيزران العلم من مناهله وأُصولهٍ؛ فقد أخذته عن الأوزاعي [٢]، حتى قيل أن الخيزران كانت عاملاً من عوامل انتشار العلم في قصر الخلافة؛ بل إن معظم الأعمال التي تخص العلم والتي قام بها المهدي من إنشاء المعاهد وغيرها منسوبة إلى تأثير زوجته[٣]، التي كانت تشجعه على ذلك، ونبغت السيدة الخيزران في قول الشعر وإن لم نجد لها إلا القليل ويتمثل شعرها في الرد على الأشعار التي كانت يبعث بها زوجها المهدي أثناء فترة غيابه عنها، فقد كتبت للمهدي قصيدة؛ رداً على قصيدته؛ التي بعث بها إليها وهو في مكة[٤].

واشتهرت السيدة الخيزران بحسن الجواب مثلها في ذلك مثل معظم النساء المثقفات؛ فقد وصل إليها أن كاتبها عمر بن مهران يأخذ الهدايا في فترة ولايته هناك وحاول أن يبرر موقفه في كتاب أرسله إليها؛ فردت عليه برسالة تدل على عمق ثقافتها وحسن جوابها[٥].

واستفادت النساء الحرائر اللاَّتي عشن في زمن الخليفة هارون الرشيد من النهضة الأدبية التي اجتمعت له ولم تجتمع لخليفة عباسي غيره؛ فبرزت بعض النساء اللاَّتي بلغن شأناً كبيرًا في هذا المجال،ومن أشهر سيدات بغداد وأقربهن إلى الخليفة السيدة زبيدة

(١) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص١١٧.

(٢) الأوزعي: هو عبد الرحمن بن عمرو، من الأوزاع، توفى سنة تسع وخمسين ومائة وله كتب في الفقه= ابن النديم: الفهرست، ص٤٨٧ .كذلك القرطبي: المجالس، ٦٠/٢، ابن كثير: البداية والنهاية، ٤٥/١٠.

(٣) محمد بيهم: المرأة في حضارة العرب، ص٢١٠.

(٤) ردت عليه قائلة:

قد أتانا الذي وصفت من الشوق	**فكدناوما فعلنا نظير**
ليت إنّ الرياح كن تودين	**إليكم ما قد يكنّ الضمير**

= القرطبي: بهجة المجالس، ٨١٩/١.

(٥) قائلة له ما نصه: «قد وصل كتابك تذكرة وتذكر، ولا تستكثرون شيئًا يكون منك واستدم أحسن ما أنت عليه يدم أحسن ما عندي لك، وأعلم أنه كل شيء لم يزد إلا نقص، والنقصان يمحق الكثير، كما ينمي على الزيادة القليل»= الجهشياري: الوزراء، ص٢٢١.

زوجته؛ فقد عُرف عنها أنها على درجة كبيرة من العلم والأدب وحدة الذكاء، وبُعد النظر، فقد نظمت الشعر وناظرت الرجال في شتى العلوم والثقافة كما أنها شجعت الشعراء والأدباء وكافأتهم(١).

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى ما تمتعت به السيدة زبيدة من الذوق الأدبي، فكان يجتمع ببابها الشعراء الذين كانت تسمع منهم وتختار أحسن القصائد وتكافئ قائلها مثلما حدث مع العباس بن الأحنف(٢) عندما أرسلت جاريتها تنثر الدراهم في حجره لاستحسانها أحد أبيات شعره(٣).

وما دامت السيدة زبيدة تمتعت بهذا القدر من التذوق الأدبي في نقد الشعر واختيار أجوده، فحتماً كان لها إبداعات شعرية، فقد عُرف عنها براعتها وبديهتها في قول الشعر وليس أدل على ذلك من القصيدة التي أرسلتها إلى الخليفة المأمون عندما قَتَل ابنها الأمين؛ فقد دعت بدواة وقرطاس وكتبت القصيدة وأرسلتها إلى المأمون(٤).

وللسيدة زبيدة أيضاً موهبة المحاورة الشعرية فقد تحاورت هي وزوجها الرشيد في شأن كاتبيهما، سعدان بن يحيي كاتب زبيدة، وأبي صالح عيسى بن عبد الرحمن كاتب الرشيد حتى قيل أنها قالت هذا الشعر في تلك الساعة(٥).

---

(١) ابن الجوزي: أخبار النساء، ص٤٤٧.كذلك عمر كحالة: أعلام النساء، ٢٣/٢

(٢) هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي،شاعر غزل رقيق من شعراء الدولة لعباسية،لا يوجد في ديوانه مديح،توفى سنة(١٩٢هـ/٨٠٨م)= ابن خلكان : وفيات الأعيان، ٢٠/٣.

(٣) قال هذا البيت:

مَنْ ذَا يُعيرُكَ عَينَهُ تَبْكي بها … أَرأيتَ عَيْناً للبكاءِ تُعَارُ

=الأصفهاني: الأغاني، ٣١١٥/٤.كذلك الزركلي:الأعلام، ٧٣/٣.

(٤) من شعرها للمأمون:

لخيرِ إمامٍ قام من خير عُنْصُرِ … وأَفضل رَاق فوق أعواد منبرِ

ووارث علم الأولين وفخرهم … وللملك المأمون من أم جعفرِ

=المسعودي: مروج الذهب، ٤٢٤/٣.كذلك أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة (بيروت، ١٩٣٨م)، ٣١٣/٣-٣١٤، على إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص٧٤.

(٥) المحاورة التي جرت بينهما قال لها الرشيد: قال الشاعر في كاتبك سعدان

صب في قنديل سعدان … مع التسليم زيتا

وقناديل بنيه … قبل أن يخفي الكميتا

قالت: وقال الشاعر في كتابك:

قنديل سعدان على ضوئه … فرخ لقنديل أبي صالح

تراه في مجلسه أحولاً … من لمحه للدرهم اللائح

=الجهشياري: الوزراء، ص٢٥٦.

وأمتاز شعر السيدة زبيدة بالمواساة والنصح؛ مثل شعر معظم النساء في الجاهلية والإسلام حيث كان شعرهن محصوراً في نطاق الرثاء، فقد رثت السيدة زبيدة «نظم»[1] أم ولد الخليفة الأمين؛ إذ كان الأمين معجبًا بها، فعندما هلكت جزع عليها شديدًا، وعلمت زبيدة بالأمر؛ فواسته بقصيدتها؛ التي حاولت فيها أن تخفف عن ابنها مأساته[2].

وكما نبغت السيدة زبيدة في قول الشعر، نبغت أيضاً في فن النثر أو ما يعرف (بأدب المراسلات)، ولها في هذا المجال رسائل نثرية تشمل أغراضاً عديدة من الاستعطاف[3]، والتهنئة[4]، والنصح[5]، وما نبوغها في الشعر والنثر إلا دلالة على علو قدرها في الأدب حتى أنها كانت تصلح من كتب كاتبي عمالها في الأمصار[6]. وقد أشاد البعض بمهارة السيدة زبيدة في دقة ملاحظاتها وبلاغتها في توقيعاتها في حواشي الكتب المتبادلة بينهما وبين عمالها[7].

أما بالنسبة لبقية الفنون الأدبية كالغناء والعزف على الآلات الموسيقية؛ فإنني لم أجد في المصادر ما يفيد أن للسيدة زبيدة مجال فيها. لكنها كبقية الحرائر في العصر العباسي الأول اللاَّتي كان لهن أكبر الأثر في المساهمة في النهضة الغنائية داخل القصر؛ فقد كان قصرها أشبه بمعهد موسيقى تتعلم فيه الجواري الموسيقى والغناء على يد أكبر الموسيقيين، ففي قصرها زهاء مائة جارية[8] كلهن يغنين في صوت واحد ويشكلن جوقة موسيقية للغناء داخل القصر. فقد أخرجتهن زبيدة للغناء في قصر الرشيد عندما

---

(١) نظم: هي أم موسى بن محمد بن هارون المخلوع = الطبري: تاريخ الرسل، ١٢٥/٥.

(٢) من رثائها فيها:

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللّهفُ — ففي بقائكِ مما قد مضى خلَفُ

عُوِّضْت موسى فهانت كلّ مرزئةٍ — ما بعد موسى على مفقودة أسَفُ

= الطبري: تاريخ الرسل، ٥١٤/٨.كذلك المسعودي: مروج الذهب،٤٠٢/٣،باسمه كيال: تطور المرأة، ص٩٦.

(٣) مثل كاتبها إلى المأمون قالت فيه «كل ذنب يا أمير المؤمنين- وإن عظم صغير في جنب عفوك وكل ذلك- وإن جل- حقير عند صفحك، وذلك عودك الله؛ فأطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير ورفع بك الشر» = حمد صفوت: جمهرة رسائل العرب، ٣١٤/٣-٣١٥.كذلك أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (بيروت، بدون تاريخ)، ٨٣/١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٦/٢.كذلك الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤-٤٣٤.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ٤٠٥/٨-٤٠٦.

(٦) قيل أنها أرجعت كتاباً إلى أحد عمالها قائلة له: «أصلح كتابك وإلا صرفناك من عملك»= القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة، ١٩٨٥م)، ٦٤/١.

(٧) ذكر عمرو بن مسعده -كاتب المأمون- «قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسلفها، فوجدتها أجود اختصار وأجمع للمعاني»= القلقشندي: صبح الأعشى، ٦٤/١.

(٨) التنوخي: نشوار المحاضرة، ١٥١/٥.كذلك الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٦/٥، عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص٢٤٠.

طلبت منها عُلَيَّةَ بِنْت المَهديِّ ذلك [١] ؛وذلك عندما أرادت زبيدة أن تصرفه عن تعليقه بإحدى الجواري «دنـانير»[٢].وَحَرِصَتِ السَّيدةُ زُبَيْدَةُ كُلُّ الْحِرْصِ علـى عـدم خـروج أَيِّ صَوْتٍ تغنيه جواريها خارج القصر؛ حتى يتميزن وحدهن بهذا الصوت وهذا إن دل على شـيء فإنما يدل على مدى اهتمام الطبقة العليا بالغنـاء؛ كما أنها كانت تبذل العطايا والأموال للمغنين؛ فأعطت ابن جامع[٣] مائة ألف درهم لكل بيت غناه وهو في حضرة الرشيد[٤].

ومن أشهر نساء العصر العباسي الأول من الحرائر اللاّتي أثرن في الحياة الثقافية في بغداد «عُلَيّة بِـِنْتُ المَهديِّ » وَهِيَ تُعَدُّ مِنَ النَّساءِ البارزاتِ في العلم والثقافة؛ فكانت تجمع إلى جانب جمالها وفتنتها الصوت الحسن والذكاء، والصنعة الموسيقية[٥].

ومن الجدير بالذكر أن عُليّة لعبت دورًا في تطوير الشعر من إطاره القديم في الرثاء إلى شعر الغزل وديوانها الحافل[٦] بهذا اللون من الشعر يدل على تطور الشعر النسائي، ويدل أيضًا على تطور روح العصر العباسي الأول الذي له آثاره في تطوير ثقافة وتعليم المرأة في بغداد، وتبدل المقاييس العامة لهذا المجتمع؛ لدرجة وصلت فيها أن المجتمع تقبل هذا النوع من الشعر من النساء؛ خاصة من واحدة تعتبر في مكانة عالية في هذا المجتمع، فقد كان الرشيد يستحسن استرسال أخته عُلَيّة في هذا اللون من الشعر[٧].

وشجع تقبل المجتمع العباسي لهذا النوع من الشعر أن أرسلت عُليّة بالأشعار من تخصه؛ فاختصت خادمًا يقال له «طَلّ» تكني عنه «بظل» من خدم أخيها الرشيد؛ فقالت فيه أشعارًا وأرسلتها إليه[٨]؛ فعندما علم الرشيد بذلك حلف عليها أن لا تكلمه ولا تلفظ باسمه؛ فضمنت له ذاك، ودخل عليها الرشيد يوماً وهي تقرأ سورة البقرة حتى

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٦/٥.
(٢) المصدر نفسه، ٦٨١٧،٦٨٢٠/١٠.
(٣) ابن جامع، ويكني أبو القاسم، وكان يغني للرشيد= الأصفهاني: الأغاني، ٢٣٦٩/٣.
(٤)الأصفهاني: الأغاني، ٢٣٩٠/٣.
(٥)المصدر نفسه، ٣٦٢٦/٥.كذلك الذهبي،شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء(بيروت،١٩٨١م)، ١٨٧/١٠.
(٦) السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء (القاهرة، ١٩٨٦م)، ص٦٨؛ محمد بيهم: المرأة في حضارة العرب، ص١٥٣ ،باسمه كيال: تطور المرأة، ص٩٨.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٦/٥.
(٨) قالت فيه شعرًا:

قد كان ما كُلفْته زمناً … ياطلُّ من وَجْدٍ بكم يكفي
حتى أتيتُك زائرًا عَجلاً … أمشى على حَتْف إلى حتفي

= الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٧/٥.

وصلت إلى قوله عَّز وجِ ّل﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ.... ﴾ [١]؛ فسكتت قليلاً ثم واصلت؛ فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين[٢].

كما أنها قالت الشعر في خادمها رشا، وكانت تكني عنه بزينب[٣]. وبلغ من ثقافتها أن أشعارها امتازت بالحكمة، وإصدار الأحكام وسنّ القوانين في الحب، وغيره من الأمور التي برعت في نظمها بالشعر[٤].

ولم تقف عُليّة عند حد قول الشعر، بل لَحَنَتْ بَعْضَ هَذِهِ الأشعارَ وغنتها وهو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالشعر الغنائي؛ كما لحنت بعض هذه الأشعار لبعض الجواري لتغنيها[٥]. فكانت تحدث في قصر الرشيد شيئاً عجباً من براعتها في قول الشعر وتلحينه وتلقينه لهؤلاء الجواري مثلما حدث عندما ضمت جواريها مع جواري زبيدة وأرسلتهن للرشيد فغنين في حضرته في صوت واحد[٦]. وكان الرشيد يحب سماع غناء عُليّة؛ فكانت تغنيه بصوتها، والغريب أن عُليّة لم تكن جارية تباع في سوق الرقيق؛ وإنما هي ابنة خليفة وأخت خليفة ومع ذلك تمارس الغناء بحضرة أَخيها إبراهيم المهدي ويعقوب. وهذا ما

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك سليمان البواب: مئة أوائل من النساء (دمشق،١٩٨٦)، ص٣٨٦.

(٣) من أشعارها فيه:

وَجَدَ الفُؤادُ بِزِيْنَبا   وَجْداً شَديداً مُتْعِبا

= الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٩/٥.

(٤) من أشعارها التي تمتاز بالحكمة قولها:

إنـي كثـرتُ عليـهِ فـي زيارتـهِ   فمَـلَّ والشـيءُ مَمْلـولُ إذا كثُـرا

وقولها:

تحبَّـبْ فـإنَّ الحـبَّ داعيـةُ الحـبِّ   وكم من بعيدِ الدارِ مُسْتَوجب القُرْبِ

وقولها:

بُني الحُبُّ عَلَى الجَوْرِ فَلَو   أَنْصَفَ المَعْشُوقُ فيهِ لَسَمُجْ

=الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٧/٥–٣٦٣٨.كذلك السيوطي: نزهة الجلساء، ص٧٠، محمد بيهم: المرأة، ص١٥٣، عمركحالة: أعلام النساء، ٣٤١/١.

(٥) الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص٤٠.كذلك الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٧٨/١٠؛ العمروسي: الجواري المغنيات، ص٢٦.

(٦) شكت زبيدة لعُليّة تعلق الرشيد بإحدى الجواري؛ فأرسلت إليها عليه: لا يهولنا هذا؛ فوالله لأرده إليك، قد عزمت أن أصنع شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على الجواري؛ فلا تبقى جارية إلا بعثت بها إلي؛ فلما جاء وقت العصر لم يشعر الرشيد إلا وعُليّة خرجت من حجرتها وأم جعفر من حجرتها معها زهاء ألفي جارية وكلهن في لحن واحد صنعته عليه.

يـا منفصـل عنـي ومـا   قلبـي عنـه منفصـل

يـا قـاطعي اليـوم لمـن   نويـت بعـدي أن تصـل

الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٦/٥.كذلك التنوخي: نشوار، ٥١/٥،الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص١٧٤.

نقلته إحدى الجواري المعاصرات لعُليّة[١].

ومن ناحية أخرى فيمكن أن نُكَوِّنَ صُوْرَةً عما كان عليه أبناءُ الخلفاءِ من الترف والثراءِ، وما اجتماعهم هذا وهم من الأسرة الحاكمة ويشكلون فيما بينهم جوقة طرب وهي صُوْرَةٌ صَادِقَةٌ لما كان يعيشه أبناءُ الخلفاءِ في القصور من حياة اللهو والترف، فعملت بذلك عُلية على نشر ثقافتها في المجتمع حتى أستطيع أن أقولَ عنها إنها شَاْعِرَةٌ وملحنة ماهرة ومطربة وقيل إنِّ لها مِئَةً وخمسين صوتاً[٢].

ومن حرائر العصر العباسي الأول اللاَّتي اشتهرن بقول الشعر خاصة في مجال الرِّثاءِ لبابة بنت المهدي[٣]؛ فقد كانت سيدة جليلة فاضلة خطبها الأمين؛ فقُتل قبل أن يدخل بها، فقالت شعرًا ترثيه به، وفي زمن الخليفة المأمون اشتهرت زوجته بوران بنت الحسن بالشعر فقالت شعرًا ترثيه به بعد وفاته[٤].

وكذلك خديجة بنت الخليفة المأمون التي اشتهرت بالثقافة العالية في قول الشعر والغناء، فقد سارت على خطى عمتها (عُليّة) في الشعر، وفي كناية من تحب بأسماء غير حقيقية. فقد كان أكثر أشعارها في خادم لها من خدم أبيها، بل أن تأثير أشعار خديجة ظل حتى زمن الخليفة المتوكل، فقد كانت جواري المتوكل يرددن أشعارها ويغنيها؛ فقد غنت شارية[٥] يومًا بين يدي المتوكل من شعر وغناء خديجة بنت المأمون، كما نبغت عائشة بنت المعتصم في قول الشعر حتى وصفت بأنها أديبة وشاعرة[٦]. وهذه نماذج من اللاَّتي وصفهن مؤرخو العصر أنهن أديبات شاعرات[٧].

لكن ما بال هؤلاء السيدات مثل (عُليّة)، (وخديجة) التعلق بهؤلاء الخدم رغم وجود

---

(١) قالت عريب: «أحسن يوم رأيته وأطيبه يوم اجتمعت فيه مع إبراهيم ابن المهدي وأخته عُليّة وعندهم أخوهم يعقوب، وكان أحذق الناس بالرمز؛ فبدأت عليه فغنتهم من صنعتها وأخوها يعقوب يرمز لها»= الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٧/٥.

(٢) ذكر صاحب الأغاني ذلك بقوله: «تبارت خشف الواضحية وعريب في غناء عُليّة بحضرة المتوكل؛ فقالت خشف: هي ثلاثة وسبعون صوتاً.وقالت عريب: هي اثنتان وسبعون صوتًا»= الأغاني، ٣٦٣٨/٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٥٠/٨.كذلك السيوطي: نزهة الجلساء، ص٧٦.

(٤) السيوطي: نزهة الجلساء، ص٣٢.كذلك عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شاعرات العرب، ٨٠/٢.

(٥) غنت شارية من شعر خديجة:

بالله قولوا لي لمن ذا الرشا	**المثقلُ الرِّدْف الهضيمُ الحشا**
لو لبسَ القُوهيَّ من رقّة	**أوجعَهُ القوهيُّ أو خَدَّشا**

=القوهيَّ: ضرب من الثياب أبيض، ينسب إلى قوهستان= الأصفهاني: الأغاني، ٥٧٧٥/٨.كذلك السيوطي: نزهة الجلساء، ص٤٨،عمركحالة: أعلام النساء، ٣٤٠/١.

(٦) السيوطي: نزهة الجلساء، ص٦٠.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٨،٦٠.كذلك الطبري: تاريخ الرسل، ٥٠/٨، الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٣٨/٥.

الأشراف وكبار رجال الدولة والقواد، مما لا شك فيه أن فرصة إلتقاء هؤلاء السيدات بالخدم كانت مفتوحة أكثر من التقائهن برجال الدولة؛ فقادهن ذلك إلى التعلق بهؤلاء الخدم وقول الشعر فيهم.

ولم يقتصر النبوغ في الآداب على حرائر القصر فقط، بل من الطبيعي أن تفرض الأوضاع الثقافية التي انتشرت حينئذ في العصر العباسي الأول أن ينبغ عدد من حرائر الطبقات الأخرى في العلوم الأدبية وخاصة في مجال الشعر، إذ أنه المجال المتاح للجميع.

فقد فرضت الظروف الاقتصادية التي عانت منها الطبقات الكادحة في المجتمع إلى لجوء بعض النساء إلى قصور الخلفاء لمدحهم ومدح نسائهم للحصول على بعض الهدايا والعطايا، وليس أدل على ذلك ما كانت تفعله «الحجناء بنت نصيب الأصغر»[1]. فقد كانت تطوف على القصور تمدح الخلفاء وغيرهم وهي في صحبة والدها؛ فدخلت يومًا على المهدي ومدحته؛ فأمر لها بعشرة آلاف ولوالدها بمثلها[2]، ثم دخلت على العباسة بنت المهدي ومدحتها ؛ فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب[3].

والأعرابيات من الحرائر؛ اتخذت بعضهن عدة طرق للتعبير عن ما يصيبهن من المعاناة والفقر، فقد كنّ يحاولنّ اقتحام القصور والدخول على الخلفاء أو التعرض لهم أثناء مرورهم في بعض مواكبهم، وكتب الأدب تزخر بمثل أخبار نوادر وحكايات هؤلاء الأعرابيات؛ مما يدل على أن النهضة الأدبية النسائية وصلت مداها في المجتمع النسوي البغدادي[4].

وليس أدل على ذلك ما قالته أم سلمه[5] زوجة محمد بن عبد الله بن الحسين

---

(١) الحجناء بنت نصيب الأصغر: مولى المهدي، شاعرة من شواعر العصر العباسي الأول في زمن المهدي= عنها ينظر الأصفهاني: الأغاني، ٢٣/٢٣.كذلك السيوطي: نزهة الجلساء، ص٣٩،عمركحالة: أعلام النساء، ٢٤٨/١.

(٢) قالت تمدح المهدي:

أميــــر المــــؤمنين ألا ترانـــــاً	**فقيـــــراتُ ووالـــــدنا فقيـــــرُ**
وأحواضُ الخليفةِ مُترعاتٌ	**لهـــا عــــرفُ ومعــــروفُ كبيــــرُ**

=السيوطي:نزهة الجلساء، ص٣٩.

(٣) وقالت تمدح العباسة:

أتينــاك يــا عباســةَ الخيــر والحيــا	**وقــد عجفــتْ أُدمُ المهــاري وكَلَّــتِ**

=الأصفهاني: الأغاني، ١٦/٢٣.

(٤) ابن عبد ربه الاندلسي: العقد الفريد،١/ ٢٨.

(٥) لما قتل المنصور محمد بن عبد الله بن الحسين اعترضته امرأته فقالت له: أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناي منه، آيتهما سيفك وأضرعهما خوفك؛ فإن رأيت أن تعطف عليهما لشوابك القرابة وأواصر الرحم، وإلا تصغر خدك لهما؛ فتتبع الأولى الأخرى فافعل»= النويري،شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة، بدون تاريخ)، ١٣٧/٥.

المنصور عندما اعترضته بعد قتله لزوجها، وقصص الأعرابيات مع المنصور كثيرة[1]؛ ليس لذكرها مجال هنا، ونبغت بعض الأعرابيات في عهد الخليفة المهدي، وأخبارهن فيه كثيرة؛ أوردتها كتب الأدب وغيرها. وكان المهدي يصل هؤلاء الأديبات بالعطايا والجوائز عندما تعجبه أقوالهن وآدابهن[2].

وقد عَبَّرَتْ هَؤلاءِ الأعرابياتُ عما حاق بهن من الظلم نثراً وشعراً؛ فقد دخلت إحدى الأعرابيات على الخليفة المأمون عندما جلس في مجلسه للمظالم شاكية إليه ابنه العباس، لأنه سلب منها ضيعتها فقالت للمأمون شعرًا[3]، جعلته يعّجل بمعاقبة ابنه العباس ورد ضيعتها إليها. والأمثلةُ كَثِيرَة على أدب النِّسَاءِ في العصر العباسي الأول، حاولت ذكر أمثلة محدودة منها بغية الاختصار.

وعبرت بعض الشاعرات الثائرات عن الأوضاع السياسية بشِعرهن خاصة أولئك اللاَّتي اشتركن في الأحزاب المعارضة ضد النظام السياسي القائم ومن أشهرهن ليلى بنت طريف التي رثت[4] أخاها الوليد بن طريف بعد مقتله سنة (١٧٩هـ/٧٩٥م) في خلافة الرشيد، وتميز شعرها بالرثاء. فقد سلكت مسلك الخنساء في مراثيها[5]، وكذلك نبغت شاعرات ثائرات في العصر العباسي الثاني سوف اضرب مثلاً بإحداهن في حينه.

أما بالنسبة لدور المرأة الثقافي في العصر العباسي الثاني؛ فإن النماذج التي لدي

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٢٧٨/٩.

(٢) وقف المهدي عند امرأة من بني ثقل فقال لها: «ممن العجوز؟ فقالت: (من طيء). قال: وما منع طيئًا أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك»= البيهقي: المحاسن والمساوئ، ص٤٥٩.كذلك الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٤٥٩، وعند ابن الجوزي «الذي منع الملوك»= أخبار الظراف، ص٩٨.

(٣) قالت شاكية له:

يا خير منتصف يهدي له الرشد	**ويا إماماً به قد أشرق البلد**
تشكو إليك عميد القوم أرملة	**عدى عليها فلم يترك لها سبد**
وابتز مني ضياعي بعد منعتها	**ظلماً وفرق مني الأهل والولد**

= ابن عبد ربه الاندلسي: العقد الفريد، ٢٨/١.كذلك أحمد الهاشمي:جواهر الأدب، ٤١٠/١، الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٨٤-٨٥، النويري: نهاية الأرب، ٢٧٦/٦.

(٤) رثته بقولها:

أيا شجَر الخابورِ مالكَ مُورِقاً	**كأنك لم تحزن على ابن طَريفِ**
فتى لا يحب الزاد إلاّ من التّقى	**ولا المالَ إلا من قَناً وسيوف**

الأصفهاني: الأغاني، ٤٢٥٨/٦.كذلك الطبري : تاريخ الرسل، ٢٦/٨،ابن كثير:البداية والنهاية، ١٧٣/١٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩٥/٢.

(٥) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الحارث، ولُقبت بالخنساء لجمال انفها، من أشهر شاعرات العرب بالجاهلية، وأدركت الإسلام وأسلمت، أكثر شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية اللذان قتلا في الجاهلية = خليل البدوي: شهيرات النساء، دار أسامة للنشر(عمان، ١٩٩٨م)، ص١٠٩

تكاد تكونُ معدومةً وقليلةً. وتنطبق هذه الملاحظة على عهد الخليفة المعتصم بالله من العصر العباسي الأول- ذلك لتبدل الثقافة بتوافد الأتراك. فأنني لم أجد من الحرائر اللاَّتي ينظمن الأشعار في الغزل وغيرها من أغراض الشعر؛ وذلك إلا بين الجواري اللاَّتي أردن من وراء ذلك التكسب ولفت الأنظار، وهذه الصعوبة واجهت معظم الدَّارسين الذين اهتموا بالتأريخ للحياة الثقافية في المجتمع؛ إذ ركزّوا على القرن الرابع الهجري فقط، ولم يعيروا الاهتمام- إلا نادرا- بالمرحلة السابقة له.

ومما لا شك فيه أن الحياة الثقافية لابد أن تتأثر بالأوضاع الموجودة في المجتمع؛ فقد تلونت الثقافة في العصر العباسي الثاني بالوضعية المستحدثة الناجمة عن هيمنة الأتراك؛ فلذلك كان الحجر على ازدهار الحياة الثقافية لصالح الوضع السياسي، ومن ثم قلَّ الإنتاج الأدبي، وظهر ذلك في عهد المتوكل، الذي قضى على أفكار المعتزلة[١]، وناهض الشيعة[٢]، وقد فطن أحمد أمين لذلك[٣].

وَعَبَّرَ ابن خلدون[٤] عن تدهور العلوم الأدبية في تلك الفترة وبالذات في «الشعر»؛ فقد ساير الشعراء الذين عاصروا عصر الهيمنة التركية الوضع السائد، وتأثروا به خاصة لإرضاء الخليفة المتوكل؛ لأنهم كانوا يريدون من وراء ذلك الوصول إلى المكانة الأثيرة لديه. فقد كان على بن الجهم[٥] يندد في شعره بالشيعة والعلويين، ويمدح موقف المتوكل من المعتزلة ومحنة خلق القرآن[٦]، كذلك تقرب الشاعر أبو السمط مَروانُ بن أبي الجنوب[٧]،

---

(١) المعتزلة: فرقة كلامية خاضت غمار السياسة فتكلمت في الإمامة وشروط الإمام وسميت بذلك نسبة إلى واصل ابن عطاء الذي اعتزل حلقة شيخه الحسن البصري فقال :«اعتزلنا واصل» =الشهرستاني: الملل والنحل، ٤٣/١.

(٢) الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه،وقالوا بإمامته،وخلافته نصاً ووصية،وان الإمامة لاتخرج عن أولاده = الشهرستاني:المصدر السابق، ٣٩/١.

(٣) بقوله: «كانت خلافة المتوكل خاتمة لعصر حافل بالآراء والمبادئ، وفاتحة لعصر آخر قيدت فيه الآراء والأفكار ومنحت فيه السلطة للمحافظين من الفقهاء والمتحدثين»= ينظر: ضحى الإسلام، ٤٨/٢.

(٤)بقوله: «ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن لسانهم من أجل العجمة ولقصيرها باللسان؛ وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم، طالبين معروفهم فقط»= المقدمة، ص٥٨١.

(٥) عليّ بن الجهم، أبو الحسن:شاعر،رقيق الشعر، أديب،من أهل بغداد.كان معاصرا لأبى تمام، وخص بالمتوكل ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام بهامدة ثم انتقل إلى حلب ومات بجراحه اثر غزوه سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م=ابن عبد ربه الاندلسى: العقد الفريد،١٤٠/٣.كذلك ينظر:على بن الجهم: ديوان على بن الجهم (بيروت، ١٩٥٩م)، ص٧٠.

(٦) كانت المعتزلة أيام المأمون تقول بأن القرآن مخلوق مُحدث؛ لأنه مجموعة من حروف وأصوات يخلقها الله، ومن يقول انه قديم أزلي يسجن ويعذب مثل الإمام أحمد بن حنبل، ولما استخلف المتوكل قام برفع المحنة وإظهار السُنة= فاروق عمر: الخلافة العباسية(عصر القوة والازدهار)، دار الشروق للنشر (عمان، ١٩٩٨ م)، ٢٣٥/١.

(٧) مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة: يكنى مروان الأصغر أبا السمط وكان يتشبه بجده في شعره،ويمدح الخلفاء ومنهم المتوكل، وكان يتقرب منه بهجاء آل أبى طالب فتمكن منه وتقرب إليه،وكسب أموالا كثيرة= ابن الأثير: الكامل، ٢٨٨/٥.كذلك الاصفهانى: الاغانى، ١١٢/٦.

من المتوكل بقصائده، فعقد له الخليفة المتوكل على البحرين واليمامة[١].

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى عدم وجود نهضة أدبية مثل تلك التي كانت في العصر العباسي الأول؛ وإذا عنّ للبعض التساؤل عن سبب هذا العرض للوضع السائد في العصر العباسي الثاني؛ فذلك التبيان – وإن كان في إيجاز – للاختلاف البين في الثقافة بين العصرين في الحقبة فترة الدراسة،وإرجاع ذلك إلى هذه الأوضاع السائدة من اقتصادية واجتماعية وسياسية.

ومن المرجح أن هذا الوضع السائد أثر على إنتاج النساء الأدبي،فقد زهدت النساء في قول الشعر، وإن وجدت شاعرات؛ فهن قلة، وندرن إلى حد العدم في الآداب الأخرى، بخلاف العصر العباسي الأول الذي امتاز بالاستقرار السياسي والثراء الأدبي. ورغم ذلك يمكن أن أستشف خصائص الحركة الأدبية النسائية من خلال نماذج من أشعار الشاعرات اللاَّتي وجدن آنذاك.

وتعتبر «أم القراطيس» من السيدات اللاَّتي اشتهرن بالثقافة العالية، حتى قيل عنها أنها «أشعر أهل عصرها وأعفّ النسِّاء وأجملهّن» سمع شعرها المتوكل وأعجب بها حتى أنه أجرى عليها نفقة تقديرًا منه لأدبها وعفافها، ومدحها له[٢].

وَعُرِفَ من سيدات القصر في العصر العباسي الثاني من اشتهرن بالثقافة، قطر الندى[٣]زوجة الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢ -٩٠١م)؛ فَهِيَ وإن كانت تركية الأصل إلا إنها تذوقت العلم والأدب؛ فأنشأت في قصرها حلقة تجتمع فيها العالمات والأديبات ليتناظَرْنَ ويتناقَشْنَ في كثيرٍ من الأمورِ التي تخص العلم[٤].

وَتُعْتَبَرُ أُمُّ الشريف[٥] من السيدات اللاَّتي نبغن في مجال الشعر، فقد كانت لها رسائلُ شعريَةُ[٦] تتميز بالحكمة والنصح خاصة لابن أخيها محمد بن أحمد بن عيسى[١]

---

(١) الشابشتي : الديارات، ١/١.

(٢) محمد بيهم:المرأة في حضارة العرب، ص١٥٣ .كذلك واجدة عبد الله: المرأة في العصر العباسي، ص٥١.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ٨/١٠.كذلك المسعودي: مروج الذهب، ٢٤١/٤-٢٤٢.

(٤) واجدة :المرأة في العصر العباسي، ص٥١.

(٥) أم الشريف: شاعرة من شواعر العصر العباسي،ذات عقل ورأى وبلاغة وفصاحة عاصرت الخليفة المعتضد بالله= عبد الحكيم الوائلى: موسوعة شاعرات العرب، ٣٢٧/١.

(٦) قالت شعرا لابن أخيها:

أقبــل نصــيحة أمَّ قلبهـــا وَجِــعٌ   عليك خوفًا وإشفاقًا وقُلْ سَدَدَا

ولاتَثِــقْ برجـــال فـــي قلـــوبهم   ضغائن تبعث الشَنْان والحسدَا

المسعودي: مروج، ٢٤١/٤.كذلك أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب، ٣٣٩/٤.

الذي حاصره المعتضد بجيوشه سنة(٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) في آمد[٢]؛ فقد أرسلت إليه تطلب منه عدم الوقوف في وجه الخليفة وعدم الاستماع إلى مشورة من يحملون له العداوة والبغضاء، ولكنه رفض نصحها؛ فبعثت إلى المعتضد بأبيات شعرية[٣] تمدحه بها وتستشفعه في أهلها؛ فأمر الخليفة المعتضد أن يحمل إليها من الثياب والمال وإلى ابن أخيها مثل ذلك، كما أن شعرها كان له تأثيره على الخليفة المعتضد؛ فشفع في كثير من أهلها مع عظم جرم ابن أخيها، واستحقاقه العقوبة[٤]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اتزانها ورجاحة عقلها.

ومن المرجح أَنَّ الشاعراتِ تَأَثَرْنَ بالأوضاعِ الاقتصادية والسياسية فنشأ شعر أستطيع أن أطلق عليه شعر المعارضة. ومن أشهرهن في هذا المجال في تلك الفترة ثمُامة بنت عبد الله البصري،التي نالت من الثقافة قدرًا كبيرًا وبلغت شَأْواً بعيدًا؛ إذ كانت شاعرة وأديبه أيضًا، ورثت أخاها (سوار) عندما توفى سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م[٥].

صَفْوَةُ القَوْلِ، أَنَّ المرأَةَ الحُرَّةَ في بغداد تمتعت بثقافة عالية مكَّنتها من التعبير عن آرائها سواء كانت في القصر أم بعيدة عنه، ومن ثَّم شاع في بغداد أدب نسائي وبلغ شأواً كبيراً.

=

(١) محمد بن احمد بن عيسى، ابن احمد بن عيسى صاحب آمد، عندما توفى سنة ٢٨٠هـ/٨٨٣م تركاها لابنه الذي حاصره الخليفة المعتضد=المسعودي :مروج الذهب، ١٤١/٢.

(٢) آمد: مدينة من مدن ديار بكر= الطبري: تاريخ الرسل، ٧٠/١٠.

(٣) أحمد زكي:جمهرة رسائل العرب، ٣٤٠/٤.كذلك عبد الحكيم الوائلى: المصدر السابق، ٣٢٨/١

(٤) المسعودي:مروج الذهب، ٢٤٣/٤.

(٥) السيوطي:نزهة الجلساء، ص٣٦.كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ١٨٤/١.

قالت ثمامة:

جفـــا جفنـــي الكـــرى بعـــ	**دكَ وأنهلّـــــــت مآقيـــــــهِ**
رمـــتُ الـــدهرَ لمـــا مُـــتّ	**فلتطــــــــرق دواعيـــــهِ**

المبحث الثاني: دور الجواري في مجال الآداب والفنون

تعددت مصادر جلب الجواري واختلاف أجناسهن، ومن ثم اختلفت ثقافتهن. ومعلوم أن الجواري اللاتي جُلبن وَهُنَّ كبيرات لا مجال لتعليمهن أي نوع من أنواع الثقافة من شعر وغناء وغيره. أما المولدات اللاَّتي سُبِيْنَ وَهُنَّ صغيراتُ السِّنِ فَنَشَأْنَ تنشئةً عربيةً خالصةً فتلين ألسنتهن في الكلام حتى تكاد تمحى آثار الأصول التي انحدرت منها، والأمثلة على نبوغِ هؤلاءِ المولداتِ كثيرةُ،سنحاول طَرْحَهَا من خلال البحث، وتبيان الحد الذي بلغته هؤلاء الجواري في فروعِ الآدابِ من شعر وغناء ومراسلات ورقص.. ولمعرفة هذا وجب أن يُرَكِّزَ هذا المبحثُ على النقاط التالية:

١- ثقافة الجواري في مجال المراسلات.

٢- ثقافة الجواري في الشعر.

٣- ثقافة الجواري في الغناء والرقص.

٤- مدى تقبل المجتمع لمثل هذه الثقافة التي تمتعت بها الجواري.

معلوم أن الجواري أَثَّرْنَ في المجتمع العباسي؛ فَعَمَلْنَ على نَشْرِ طَرَفٍ من ثقافتهن بين الناس وخاصة في قصور الخلفاء حيث النعيم والترف، كما أن الخلفاء والشعراء والنخاسين -كما سبق ذكره- كان لهم الفضل في تثقيف هؤلاء الجواري، حتى نبغت كثيرات منهن في العلوم الأدبية من المراسلات والكتابة والغناء والشعر والرقص والعزف على الآلات الموسيقية؛ مما أشاع نوعًا من الطرف والتذوق الأدبي في المجتمع البغدادي؛ وخاصة في العصر العباسي الأول. وسبقت مناقشة سبب اختلاف الثقافة بين العصرين، ولا داعي للتكرار، ومن ثَمَّ ينصب الحديث هنا عن دور الجواري الثقافي في العصرين معاً والإشارة إلى بعض التغيرات إذ اقتضت الدراسة ذلك، وذلك لاشتراك الجواري في نفس الأساليب في هذا المجال.

نشرت جواري العصر العباسي الأول طرفاً من ثقافتهن في المجتمع البغدادي، فقد تفنن في المراسلة والمكاتبة بينهن وبين عشاقهن(١)، وذلك لأنَّ بَعْضَ الجواري كُنَّ كاتبات خطاطات(٢)؛ فكن يكتبن بعض العبارات التي تدل على الحب والعشق أو أبيات شعرية

---

(١) ذكر الوشاء «أنهن لا فرح لهن إلا في المكاتبة، ولا فرح إلا في المراسلة»=الموشى، ص١٥٤.

(٢) الصولي: أدب الكتاب، ص٥٠.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١٩٨/٤.

غزلية، على المراوح[1]، والتفاح[2]، والمناديل[3]، والملابس[4]، والوقايات[5]، والكرازن[6]، والعصائب[7]، وعلى الأيدي والأقدام؛ بالحناء؛ وكن يكتبن بالطيب مثل الغالية والعنبر على الخد والجباه،وكما استخدمن الخيوط الذهبية في الكتابة على الملابس[8].

ومن المؤكد أن هذه الطروف والثقافة اختصت بها الجواري فقط، ولم تشاركهن فيه حرائر النساء؛ لأن هذا النوع من المكاتبات والمراسلات يناسبهن؛ لما جُبِلْنْ عليه من المجون والخلاعة حتى نشرتها في المجتمع[9].

وأفادت الجواري الكاتبات في نشر الظرافة والثقافة في المجتمع؛ هذا الظرف الذي وصل مداه حتى أنهن كتبن أبيات الغزل على ملابسهن. ومما يروي أن أحد الأشخاص دخل على الرشيد وعلى رأسه جوار كالتماثيل، وكتب على عصابة إحداهن أبيات الغزل من صفائح الذهب[10]. كما ذكر أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي دخل يومًا على الأمين وعلى رأسه وصائف بيد كل وصيفة مروحة مكتوب عليها أبيات شعرية موحدة[11].

واستخدمت الجواري الحناء كمادة للكتابة بأشكال متعددة على الأقدام والأيدي[12]، واستخدمن الطيب للكتابة على الخدود والجباه[13]. ولم يكن ذلك معروفًا قبلاً والأمثلة كثيرة على ثقافة هؤلاء الجواري وبراعتهن في الكتابة، وإنما هذه نماذج مبسطة للإبانة عن

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ٤٢٤/٦.
(٢) الوشاء: الموشى، ص٢١٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٠.
(٤)المصدر نفسه، ص٢٢٦،٢١٩.
(٥) الوقايات: مفردها الوقاية، شبه طاقية، تلبس تحت العصابة=زيمنهارت دوزي: المعجم المفضل، ص٣٤٧.
(٦) الكرزان: تاج ملوك فارس، وهو مرصع بالذهب والجواهر=المصدر نفسه، ص٢٢٢.
(٧)زيمنهارت دوزي: المصدر نفسه، ص٢٢٦.كذلك العقد الفريد، ٤٢٤/٦.
(٨) الوشاء: المصدر نفسه، ص٢٣٧.
(٩) المسعودي: مروج، ١٢٥/٤.كذلك الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص١١،السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.
(١٠) كتبت على عصابتها:

ظلمتني في الحب يا ظالم   **والله فيما بيننا الحاكم**

= ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ٤٢٤/٦.
(١١) كتبت على المراوح: «بني طاب العيش في الصيف وبي طاب السرور»= ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ٦ /٤٢٤.
(١٢) كتبت إحدى الجواري على راحة يدها اليمنى:

فقلبي ما يُنازعني سِواكا   **فَدَيتُكَ قد جُبِلْتُ على هَواكا**

= الوشاء: لموشى، ص٢٣٨.
(١٣) كتبت إحدى الجواري وقد أخرجها النخاسي للعرض:

وشادنٍ أحسنِ خَلقِ الله   **في كفّه سيفُ رسول اللهِ**

شادن: ولد الظبي= الوشاء:الموشى، ص٢٣٩.

مدى ثقافة هؤلاء الجواري.

وَيُعَدُّ الغناءُ في آخر الأمر من الفنون الأدبية التي نبغت فيه الجواري وكانت أكثر هؤلاء يغنين من شعرهن، أو من قرض الشعراء، وفي الواقع كان للجواري أثر في نظم هؤلاء الشعراء لأشعارهم، كما سبقت الإشارة. ومعلوم ولع العباسيين كغيرهم من العرب بالغناء الذي تنوعت ألحانه من نصب وهو غناء الركبان والقيان، وأما السناد فالثقيل الترجيح الكثير النفحات، وأما الهزج فالحفيف كله الذي يلهي وينشط. وهذه الألحان كانت موجودة منذ العصر الجاهلي[1]، واستمرت كذلك في العصر العباسي.

وأعان الخلفاء العباسيون وغيرهم على نشر الغناء في مجتمع بغداد؛ فقد كان للمغنيين والمغنيات في العصر العباسي الأول منزلة كبيرة في الدولة، وذلك نظرًا لشغف الخلفاء العباسيين الأوائل بالغناء والطرب؛ بحيث أصبحت بغداد مركزاً لهؤلاء المغنيين الذين يأتون إلى بغداد من شتى الأنحاء؛وذلك لأَنَّ أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى؛ فلا عجب إذا نبغت مولدات المدينة و الطائف في إجادة الغناء أكثر من غيرهن؛ وبالتالي فإن المغنيات من النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال؛ وذلك أنهن أجمل صوتًا وأرق نفحًا، ثم إنَّ لجمالهن وأنوثتهن أثر في الطرب[2].

وساعد على إثراء النهضة الغنائية في بغداد وجود طبقة من الموالي، يطلق على كبارهم الرؤساء[3] ومنهم إبراهيم الموصلي[4]، وابنه إسحاق، ودرهمان[5]، وقد ساهم هؤلاء في إبراز مواهب الجواري في الغناء، وتعليمهن الغناء، بعد أن كان العرب يعلمونه الجواري السود فقط[6].

أما دور الخلفاء العباسيين في إيجاد هذه النهضة الثقافية، فقد بدأ بأبي العباس السفاح الذي كان يطرب من وراء الستار، ويطلب من المغني إعادة الصوت إذا ما أعجبه أكثر من مرة بقوله «أحسنت لأعد هذا الصوت[7]». أما المنصور فعُرف عنه حزمه

---

(١) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (بيروت،١٩٨٧)، ص٣١٤.كذلك الإبشيهي: المستظرف، ٢ /٣٢٤، عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) وقد ذكر الجاحظ ذلك حيث قال: «وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله، وبين فم تشتهي أن تصرف وجهك عنه، وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء»= رسائل الجاحظ، ١٤٤/٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ٣٧٠/٣.كذلك حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٠٥/٢.

(٤) الأصفهاني: الأغاني،١٧٩٨/٣.كذلك ابن خلدون: المقدمة، ص٤٢٧.

(٥) المصدر نفسه ،١٩١٣/٣.

(٦) المصدر نفسه ،١٨١٤/٣.

(٧) المسعودي: مصدر سابق، ٣٧٠/٣.

الشديد فلم يظهر لندمائه بشرب أو غناء[١].ويرجع عدم اهتمام الخلفاء الأوائل بالغناء في أول الأمر لانصرافهم إلى تعمير دولتهم الجديدة وترسيخ قواعد حكمهم فيها، خوفًا من أعدائهم[٢].

ويعد الخليفة المهدي أول خليفة عباسي جعل الغناء في مجلسه[٣]، واشتهر عصر الرشيد بأنه العصر الذهبي للغناء؛ فكان يجمع المغنيين ويجالسهم للغناء[٤]، وهو أول من جعل للمغنيين مراتب وطبقات[٥]؛ فكان يجلس مع جواريه خلف الستارة التي تفصل بينه وبين المغنيين؛ فكانت هؤلاء الجواري تضربن وتغنين[٦].ومعلوم أن الرشيد كان عنده زهاء إلفي جارية للغناء والضرب على الآلات الموسيقية[٧].

وما دام الأمر كذلك من اهتمام الخلفاء وتشجيعهم للمغنيات فقد انعكس أثر ذلك على أبنائهم، حتى اشتهر بعضهم وأجاد الغناء مثل إبراهيم المهدي[٨] وعيسى بن الرشيد الذي نسبت إليه بعض الأغاني[٩]، وعبد الله بن موسى كان أجودهم غِنَاءً وضربًا على العود[١٠].وانعكس ذلك الاهتمام على سيدات القصر كما أوضحته في منافسة ثقافة الحرائر الأدبية، فقد وجدت في قصورهن عدد من المغنيات.

وبوجود مثل هؤلاء الخلفاء برزت نهضة الجواري الغنائية التي تمثلت في اشتهار بعضهن بالغناء مثل «بدعة»[١١] جارية عريب، فقد كانت أحسن أهل دهرها غناء، «ودنانير»[١٢] التي بلغ من ثقافتها الأدبية أن لها كتاباً مجرداً في الأغاني؛ لم يعرف أهل فن الغناء أصلاً ومرجعًا للغناء بعده وكانت «دقاق»[١٣] مغنية محسنة أخذت الغناء عن أكابر مغني الدولة العباسية؛ فأتقنت صنعته. وكذلك اشتهرت فريدة[١٤]، في خلافة الواثق

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٦٩.
(٢) سهام الفريح: الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، ص٥٩
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٦٩.
(٤) المسعودي: مروج الذهب، ٣٧٠/٣.كذلك ابن الطقطقى: الفخري، ص١٦٣.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٩٥.
(٦) المسعودي: مروج الذهب، ٣٨٧/٣.
(٧) التنوخي: نشوار المحاضرة، ١٥١،١٥٢/٥.
(٨)الأصفهاني: الأغاني، ٣٦٢٧/٥.
(٩) المصدر نفسه، ٣٦٥١/٥.
(١٠)المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(١١) الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص١٣٩.
(١٢) الأصفهاني: الأغاني، ٦٨١٧/١٠.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٢٨، ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٦٣.
(١٣) السيوطي: المستظرف من أخبار الجواري، ص٢٦.
(١٤) السيوطي: المستظرف، ص٤٩.كذلك ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص١٠٠.

بالغناء. فقد غنت للواثق ثم للمتوكل بعد زواجها منه، وكذلك «شارية»[١] التي تزعمت حركة الغناء بعد عهد المعتصم وفي خلافة المتوكل[٢].

وَتَّعَدُّ عريب من أشهر الجواري اللاَّتي لعبن دورًا ثقافياً في المجتمع الأدبي فقد عاصرت النهضة الأدبية إبان عهود تسعة خلفاء عباسيين كان آخرهم الخليفة المعتمد. وكانت تصوغ الألحان وتغنيها من شعرها[٣] وقد جمعت لها من غنائها ألف صوت ولغنائها ديوان مفرد[٤]، يعد أصل كبير من أصول الغناء زمن العباسيين حتى أن فايد العمروسي لقبها شيخة الغناء العباسي[٥]. وكذلك «مقيم»[٦] أخذت الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي فكانت من أحسن الناس غناءً،وأداءً أما «قلم الصالحية»[٧]، فقد اشتهرت بالغناء الذي أخذته من مشايخه، أمثال إبراهيم الموصلي،وابنه إسحاق. وكانت «بصبص» من المغنيات المشهورات، كل هؤلاء المغنيات كان لهن أثرهن في أثراء النهضة الأدبية في الغناء، وإشاعة نوع من روح المرح والظرف في المجتمع البغدادي[٨].

ومما ساعد على وجود مثل هذه النهضة الغنائية خاصة في العصر العباسي الأول شغف الخلفاء بالغناء، ووجود عمالقة الغناء ورواد وفحول الشعراء الذين برعوا في الشعر الغزلي المغني مثل العباس بن الأحنف (ت١٩٣هـ/ ٨٠٨م) [٩] الذي كان شعره على نسق قصائد أهل الحجاز ،وساعد أيضاً على وجود مثل هذه النهضة الغنائية انتشار قراءة القرآن بالألحان؛ فكثير من القراء كانوا يجيدون في تلحين أصواتهم؛ الأمر الذي أنكره بعض فقهاء العصر، وإن أجازه بعضهم مثل الشافعي[١٠].

ونظراً لتوفر كل هذه الظروف التي ساعدت ازدهار الغناء وارتفاع منزلته أن كثر عدد المغنيات، فيمدنا أبو حيان التوحيدي بإحصائية توضح لنا عدد هؤلاء المغنيات

(١) الأصفهاني: الأغاني، ٥٧٦٧/٨.
(٢) المصدر نفسه، ٥٧٧١،٥٧٧٥/٨.
(٣)المصدر نفسه ، ٢٤٧/٢٠.
(٤) ابن الساعي: نساء الخلفاء،ص٥٧.
(٥) ينظر: الجواري المغنيات، ص١٧٢.
(٦) الأصفهاني: الأغاني،٧٣٣/٤.أو الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص٩١.
(٧) السيوطي: المستظرف،ص٥٩.
(٨) الأصفهاني:الأغاني، ٥٣٠١/٨
(٩) المصدر نفسه ،٣٠٩٨/٤
(١٠) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٢٥.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص٢٤٢.

اللاَّتـي بلـغ عددهن علـى حد قولـه أربعمائـة وسـتين جاريـة[١].ولا أدل علـى اشـتهار هؤلاء الجواري بالغناء أن علت منزلة بعضهن على بعض في إجادة الغناء[٢]، وتذوق أهل بغداد الغناء، وبلغ تذوقهم مداه حتى باتوا شيعاً لبعض هؤلاء الجواري، فكان لكل مغنية جماعة وأنصار، فقوم مع عريب وقوم مع شارية، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب تلك في هؤلاء[٣].

وحتمـاً وجـدت بـين الجـواري مُغنيـات لـم تـتح لهـن فرصـة الشـهرة؛ فكّـن يُغنّـين مـع الجـواري المغنيـات فـي الغنـاء الجمـاعي «الجوقـة» الـذي كـان منتشـرًا فـي قصـور الخلفـاء وغيرهم في ذلك الوقت. وقد استعانت هؤلاء الجواري بالآلات الموسيقية أثناء الغناء. ومن المرجح أن معظم هؤلاء المغنيات كانت لهن براعة في العزف خاصة على آلة العود التي كانت منتشرة آنذاك. والعود أشهر الآلات الموسيقية وكتب التاريخ ثرية بذكر الأخبار التي تبين لنا أن هؤلاء الجواري «عوادات» مثل شارية[٤] و محبوبة[٥].

واكتظت قصور الخلفاء والأمراء بمثل هؤلاء الجواري اللاَّتي يعزفن على العود. فقد أرق الرشـيد فـي إحـدى الليـالي؛ فـذهب إلـى منـزل إبـراهيم الموصـلي، وخرجـت الجـواري للغناء؛ فطلب الرشيد من إبراهيم الموصلي أن تضرب اثنتان على العود وتغني واحدة[٦]. وكـان الفضـل لـرواد فـن الغنـاء فـي تعليم هؤلاء الجـواري الضـرب علـى العـود. وقد عنيت الجـواري بإصـلاح أعوادهن أثنـاء العزف خاصـة فـي مجلس الخلفـاء. فقد حضـر إسـحاق الموصلي مجلس الغناء عند المأمون وفيه عشرون جارية للغناء ومعهن العيدان يضربن عليهـا؛ فاكتشـف خطـأ فـي وتـر فـي أحـد العيـدان بـين ثمـانين وتـرًا، وأمـر الجاريـة بإصلاحه[٧].

بالإضـافة إلـى هؤلاء الجـواري العـوادات فقد وجـد صـنف آخـر مـن الجـواري اتخـذن

---

(١) ذكر في الإحصائية «أحصينا ونحن جماعة في الكوخ – أربعمائة وستين جارية في الجانبين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان والبدور»= الإمتاع والمؤانسة– تحقيق أحمد أمين،وأحمد الزين (بيروت، بدون تاريخ)، ١٧٣/٢، محمد جمال الدين سرور: الحياة الاجتماعية ،ص٣٢

(٢) ذكـر الأصـفهاني: «أخبرنـي الصـولي قـال حـدثنا الحسـين بـن يحيـى عـن «ريّـق» أنهـا اجتمعـت هـي و «خشـف الواضـحية» يوماً فتذكرتا أحسن ما سمعتاه من المغنّيات فقالت ريّق: شاريةٌ أحسنهنّ غناءً ومتّيم، وقالت خشف: عريب وفريدة، ثم اجتمعتا على تساويهنّ، وتقديم متّيم في الصّنعة، وعريب في الغزارة والكثرة، وشارية وفريدة في أحكام الغناء»= الأغاني، ١٣٢٨/٢.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٥٧٧٣/٨.

(٤) المصدر نفسه، ٧٥٦٧/٨.

(٥) السيوطي:المستظرف، ص٦٣.

(٦) الأصفهاني:الأغاني، ١٨٦٢/٣.

(٧) المصدر نفسه،٣/ ١٩٢٩.

الآلات للعـزف عليهـا، وهـذا النـوع مـن الفـن أو العـزف فرضـته الظـروف الاقتصـادية والاجتماعية؛ فقد اتخذت «عبيدة الطنبورية»[١] آلة الطنبور للضرب والغناء عليها ؛ إذ لم تتح لها ظروفها الاتصال بأحد مشاهير الغناء أو الدخول على الخليفة هارون الرشيد؛ وإنما كانت تدعى للغناء والعزف على آلتها في حفلات خاصة لقاء مبلغ زهيد من المال.

وعادة ما يتبع الرقص الغناء والعزف، ولقد اشتهرت الجواري بالرقص وبرعن فيه. وهو جانب من جوانب النهضة الأدبية الثقافية لهؤلاء الجواري، فقد عرف نوع من الرقص بأن تتمايل الجواري وهن يغنين، كما اتخذن آلات للرقص منها مما يعرف «بالكرج» وهو عبارة عن تماثيل خيل من الخشب؛ معلقة بأطرافها ملابس يلبسنها ليحاكين بها إمتطاء الخيل والكر والفر[٢]. كذلك عندهم ما يعرف بالرقص المجوسي وهو عبارة عن تشابك أيدي الجواري بعضهن ببعض. وهذا الرقص ترقصه الجواري خاصة في يوم الشعانين[٣].

ومعلوم أن بعض هؤلاء الجواري نبغن في بعض فروع الآلات مثل الكتابة والغناء. وبذلك أثرن في وجود نهضة نسائية قوامها هؤلاء الجواري بل أن بعض هؤلاء الجواري كن يجمعن بين الغناء والألحان والشعر؛ إذ نبغن في إجادته وإجازته ومعارضته. ومن أشهرهن في العصر العباسي الأول عنان [٤]، وغريب[٥]، وسكن جارية الوراق[٦].

وبلغ من براعة هؤلاء الجواري في قول الشعر أن أَفرِدَ لَهُنَّ بَعْضُ المؤرخين[٧] كُتُباً ضَمَّنَهُ أخبارِهُنَّ وأشعارهُنَّ. واختار أشهر الجواري الشاعرات في اختصار دون تفصيل؛ فمن أشهرهن «عنان جارية الناطفي» التي كانت ترتجل الشعر ارتجالاً دون مشقة ولا عناء، ويحضر مجلسها فحول الشعراء أمثال أبي نواس؛ ودعبل الخزاعي؛ والعباس بن الأحنف ومروان ابن أبي حفصة، وكانوا يطارحونها الأشعار فتنتصف منهم[٨]؛ بفضل سرعة بديهيتها وإتقانها للصنعة الشعرية، كما كانت تدخل مع الشعراء في مطارحات شعرية[٩]. فضلاً عن

---

(١) الوشاء: الموشى، ص٢٢٦.كذلك فايد العمروسي: الجواري المغنيات، ص٢١٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٢٨.كذلك عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص٢٤٣.

(٣) الشعانين:أحدى أعياد النصارى=آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢٨٤/٢.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص٣١٢.كذلك الأصفهاني:الأغاني، ٨٤/٢٣، ابن الساعي :نساء الخلفاء، ص٤٧.

(٥) الأصفهاني:الأغاني، ٧٨/٢١.كذلك ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٥٥، السيوطي: المستظرف، ص٣٧.

(٦) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٣٦٦،٤٢٢.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٣٢.

(٧) المصدر نفسه، ٧٦١٢،٧٦٢١/١١.أو الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص٢٣،٤٩،٩٩،١١٧،١٢١.

(٨) الأصفهاني: الأغاني، ٨٤/٢٣.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٢٩.

(٩) قال لها العباس بن الأحنف:قال عباس

وقـد أُجهِـد مـن وجْـد شـديد لـيس لـي صبر علـى الهجـر ولا لـذع الصـدود

فقالت عنان:

=

أنها حازت المقدرة على الأجازات الشعرية[1]، وأجادت شاعرة أخرى قول الشعر فكانت شاعرة مطبوعة هي «عريب» التي تبعت آثار الشعراء؛ فتخرج مواضع خطئهم وغلطهم[2]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على موهبتها الفنية فضلاً عن أنها تفوقت في ناحية أخرى من نواحي الأدب، فقد كانت لها مكاتبات مع إبراهيم المدبر– كاتب أمور الدولة في زمن الخليفة المتوكل– الذي هوته[3].

قصارى القول، أَنَّ للجواري أثراً كبيراً في إثراء النهضة الأدبية في العصر العباسي الأول، وخاصة النهضة الشعرية حيث أبدع شعراء العصر في وصف هؤلاء الجواري وثقافتهن وزينتهن فضلاً عن أشعارهن، ونشر روح الطرب والتذوق الأدبي بين أهل بغداد

=

من تراه كان أَغنى منك عن هذا الصدودِ ... بعد وصل لك مني فيه إرغامُ الحسودِ

=الأصفهاني: الإماء الشواعر، ص٢٦.كذلك السيوطي: المستظرف، ص٢٣.

(١) الأصفهاني: الإماء والشواعر، ص٢٥.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٤٦١.كذلك الأصفهاني: الأغاني، ٧٨/٢١،ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص٥٥، ابن الجوزي: ري الظمأ، ورقة ١٦.

(٣) احمد زكي: جمهرة رسائل العرب، ١٧٥/٤.

المبحث الثالث: دور المرأة في مجال العلوم الدينية

معلوم أن التطور الذي شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي أثر على تطوير العلوم الدينية، وذلك لتقارب الثقافات الإسلامية سواء الثقافية الدينية داخل بغداد أو الثقافة الدينية الوافدة مع الشعوب الإسلامية المجاورة بيد أن وجود تيار اللهو والمجون في بغداد على أيدي شعراء العصر وجواريه، وانتشار الحانات ودور القيان، أدى إلى خلق تيار ديني مخالف ومضاد لتيار المجون تمثل في لجوء النساء إلى التعمق في أمور دينهن ولجوء بعضهن إلى التصوف والزهد في متاع الدنيا.

لكن ما الذي ترتب على وجود مثل هذه التيارات في المجتمع البغدادي وهل هو تيار المجون هو الذي أدى إلى بروز تيار التصوف والتعمق في العلوم الدينية أو وجود اتجاهات أخرى أدت إلى ذلك.

ولمعرفة كل ذلك اقتضت دراسة هذا المبحث التركيز على المحاور الآتية:

١- إسهامات المرأة في تطوير تيار الزهد والتصوف.

٢- الإشارة إلى أشهر النساء اللاَّتي تميزن بالعلوم الدينية من حديث وفقه... وغيرهما.

٣- اعتقاد بعض النساء بالخرافات والاستعانة بالمنجمين.

إنَّ التطور الذي شهده العصر العباسي الأول واختلاف وتباين نظرة المجتمع إلى المرأة والغالب عليه المناداة بعزل النساء وفرض الحجاب عليهن وعدم اختلاطهن بالرجال بسبب شيوع اللهو والفسق والمجون بين الجواري وغيرهم ومن ثم شيوع ظاهرة التسري في المجتمع البغدادي، التي أدت إلى الاستعلاء على النساء وسوء الظن بهن.

وشجعت هذه النظرة للمرأة البعضَ إلى المطالبةِ بالتشدد على النساء حتى أن المحتسب كان لا يسمح حتى للزوجين أن يجتمعا في طريق خال من المارة(١) ومما لاشك فيه أن الخلفاء سايروا هذه النظرة من الغيرة على نسائهن والتشدد في سترهن(٢)؛ فكانت زبيدة تجلس خلف الستار عند حضور مجلس الرشيد(٣)، وتبعهم في ذلك سائر طبقات

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٩.

(٢) عبر الخليفة المنصور عن رأيه في ذلك فقال: «الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثا: أخفاء السر، والتعرض للحرمة، والقدح في الملك»= الطبري: تاريخ الرسل، ٨٨/٨.

وذكر أن أبى جعفر المنصور ضرب خادماً كان يجلس بين الجواري يضرب بالطنبور= الطبري: تاريخ الرسل، ٦٣/٨.كذلك ابن الأثير: الكامل، ٤٥/٥.

(٣) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ص٢٥٥.

المجتمع من وزراء وأعيان ورجال العامة[١].

ومما لا شك فيه أن كثرة الحانات في بغداد فضلاً عن دور النخاسين ووجود هذا الكم الهائل من الجواري والقيان والمغنيين، لا يعني بالضرورة أن المجتمع البغدادي كُلَّهُ فَسَادُ وتحللُ. فقد وجد إلى جانب ذلك المساجد العامرة بالعُباد وأهل التقوى والوعاظ الذين كانوا يدخلون على الخلفاء ويسرونهم في أمور دينهم[٢]، وبالتالي أستطيع القول أن تيار المجون كان يقابله تيار مضاد تمثل في الزهد الذي تطور تطويرًا تدريجيًا وتحول إلى التصوف الذي اكتسب أبعاد فلسفية وروحية وفكرية على أيدي متصوفي العصر العباسي وزهاده.

ومن الطبيعي أن تتأثر المرأة بظاهرة الزهد والتصوف نتيجة لما كانت تعانيه من ضغوط اجتماعية مختلفة. كما أن نشاطها في هذا المجال لم يجد معارضة من أهلها والمجتمع، وربما كان الانقطاع إلى الزهد والتصوف أكبر متنفس لهموم المرأة في هذا المجتمع المحافظ الذي حكمته العادات والتقاليد الموروثة[٣] ولذلك ظهرت شخصيات بارزة ساهمت مساهمة فعالة في تطوير حركة الزهد، ومن أشهر النساء اللاَّتي سَاهَمْنَ مساهمةً فعالةً في العلوم الدينية اذكر أشهرهن وهي «رابعة بنت إسماعيل العدوية»[٤]، والتي يعود إليها الفضل في وضع قواعد التصوف الإسلامي، الذي يعد بحق زهدًا إسلاميًا خالصًا، وترك أثاره بعد ذلك على الأدب الصوفي من شعر ونثر[٥].

ومن الطبيعي أن يلجأ كثير من النساء إليها لكي يجلسن في حلقاتها ويسمعن وعظها، وذلك لتمكنها من معرفة دقائق التصوف واشتهارها بالتقوى والصلاح ولعبت ظروفها الخاصة دوراً كبيراً في هذا النشأة فقد نشأت رابعة في أسرة فقيرة، فذاقت مرارة الحرمان والفقر، ومن ثم جُرِفَتْ إلى تيار اللهو والمجون وما لبثت أن استيقظت من ذلك، فاعتكفت عن الحياة والناس لتطهر نفسها من شوائب الحياة المادية، وتأثرت رابعة أيضًا بالفوارق الاجتماعية التي كانت تفصل بين الطبقات في بغداد؛ كما تأثرت بالصراع

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة، ٣٦/١.كذلك ابن الجوزي: أخبار الحمقى، ص٥٦.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ١٦٤/٣.كذلك ينظر شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص٨٤.

(٣) واجدة عبد الله: المرأة في أدب العصر العباسي، ص٢٢٦.

(٤) رابعة العدوية:عابدة زاهدة من شاعرات العشق الالهى في القرن الثاني الهجري= عبد الحكيم الوائلى:موسوعة شاعرات العرب، ١٩٩/١.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٨٥/٢.كذلك الحنبلي:شذرات الذهب، ١٩٣/١،عمركحالة:أعلام النساء، ٤٣١/١،حسن إبراهيم حسن: التاريخ السياسي ،٢٢١/٢، عبد الرحمن البدوي: شهيدة العشق الإلهي (الكويت، ١٩٨٧)، ص٧ وما بعدها.كذلك وداد السكاكيني: التصوف تهجد وتعبد وفناء،مجلة العربي، العدد٢ (الكويت، ١٩٥٩م)، ١٣٧/٤.

السياسي والمذهبي الذي كان قائمًا في القرن الثاني للهجرة[١].

أما بالنسبة لمذهب رابعة العدوية الصوفي، فقام على أساس حب الذات الإلهية، والذي تجسد في قصائدها التي عبرت فيها بعمق عن حبها لله سبحانه وتعالى، كما تميز شعرها بالمناجاة[٢] والتوسل، وهذا بداية اتجاه جديد في آداب النساء وثقافتهن عند المرأة البغدادية، وبداية غرض جديد من أغراض الشعر شهده المجتمع البغدادي، مخالفًا للغزل والرثاء والمدح وغيره من أغراض الشعر الأخرى. كما نبغت رابعة في قول الشعر فإن اتجاهها الصوفي مكنها من الإطلاع والتعميق في أمور دينها حتى استفتاها في دقائق التصوف كبار المتصوفة في عصرها[٣]، وكان سفيان الثوري يذهب إليها لأنه يجد إلى جوارها السرور والمتعة في جو يبعث بالطهر والنقاء وكان يلقبها بالمؤدبة[٤].

وجسدت رابعة التصوف في أرقى صوره الصوفية فقد كان لزهدها في الحياة – الذي شاعت أخباره في المجتمع العباسي– تأثيره على الحياة الثقافية حتى أن بعض النساء سلكن مسلكها[٥]. وهذا إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدل على أن المرأة تمتعت في تلك الفترة بالحرية التي مكنتها من الإطلاع على شتى الثقافات، ونجم عنها نبوغها في العلوم الدنيوية وأيضاً العلوم الدينية فقد كانت رابعة رائدة العلوم الدينية وهذا يتمثل في تصوفها وزهدها لدرجة أنه عندما ماتت كفنت في خمار من صوف كانت تلبسه. وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاتها فقد قيل أنها توفيت سنة (١٣٥هـ/٧٥٢م)، وقيل سنة (١٣٨هـ/٧٥٥م)، وقال آخرون سنة(١٨٥هـ/٨٠١م) [٦].

وعرف من متصوفات العصر العباسي الأول أيضًا «ميمونة الزاهدة»[٧]. وكانت عابدة زاهدة من شاعرات العشق الإلهي في القرن الثاني الهجري وسلكت مسلك رابعة في

---

(١) سعاد عبد الرزاق: رابعة العدوية بين الغناء والبكاء، مكتبة الأنجلو المصرية(القاهرة، ١٩٨٢م)، ص١١.

(٢) من شعرها في الذات الإلهية قالت:

أحبــك حبــين حــبَّ الهــوى	**وحبــاً لأنــكَ أهــلٌ لــذاكا**
فأمـا الـذي هـو حـبُّ الهـوى	**فشـغلي بـذكركَ عمَّـن سـواكا**
وأمـا الـذي أنـت أهـلٌ لـه	**فكشـفُكَ للحُجـبِ حتـى أراكـا**

= عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي، ص٧٥.كذلك على العطوى: شعر الزهد، ص١٣٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٦/٢.كذلك الحنبلي: شذرات الذهب، ١٩٣/١.

(٤) عمر كحالة: أعلام النساء، ٤٣٠/١.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٨٥/٢.

(٦) ابن خلكان: المصدر نفسه والجزء والصفحة.كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٢٨٧/٢.

(٧) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٨/١٤.كذلك ابن حبيب، أبو القاسم حسن بن محمد: عقلاء المجانين – تحقيق عمر الأسعد (بيروت، ١٩٨٧م)، ص٢٨٦.

المناجاة والتوسل إلى الله[1].

(١) من مناجاتها لله سبحانه وتعالى قولها: «يا واحدي تمتعني بالليل بدرس التلاوة، ثم تقطعني عنك في ضياء النهار. إلهي وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك ولقاك»= ابن حبيب: عقلاء المجانين، ص٢٨٦.

وتركت لنا قصائد شعرية في مناجاة الذات الإلهية[١].

ونذكر في مجال التصوف أيضاً متصوفة عابدة «جواهر البراثية»[٢]، من عابدات بغداد، زهدت في الدنيا مسايرة لذلك مسلك زوجها المتصوف الزاهد العابد أبي عبد الله البراثي، وبلغ من زهدهما أنهما عاشا في كوخ بعيدًا عن كل متع الحياة زيادة في التعبد والتنسك وتعد «آمنة الرملية»[٣] من النساء التي برعن في مجال التصوف والمعرفة بالعلوم الدينية حتى أَنَّ كثيراً من فقهاء عصرها كانوا يأتون إليها للتبرك بقربها ونيل دعواتها، فقد اعتل بسر بن الحارث فعادته آمنة الرملية قابلها أحمد بن حنبل[٤] وطلب منها أن تدعو لَهُمَا أيضًا[٥].

ومن المؤكد أن علم الحديث استحوذ على اهتمام النساء، فأصبحن محدثات راويات في العصر العباسي الأول، ووجد عدد من النساء برزن في دراسة الحديث هن من زوجات وبنات الفقهاء والمحدثين، وإليهن يرجع الفضل الكبير في المحافظة على سمعة المرأة، والمنزلة العالية التي حظيت بها ومن هؤلاء المحدثات أخص بالذكر السيدة «زينب بنت سلمان الهاشمية»وهي من ربات النفوذ والسلطان والعقل، ومن أفاضل النساء، حَدَّثَتْ عن أبيها وروى عنها الكثيرون ممن اشتهروا في علم الحديث، منهم عاصم بن علي الواسطي وأحمد بن الخليل بن مالك، وأخوها يعقوب بن سليمان، وتوفيت سنة(٢١٨هـ/٨٢٣م)[٦] .

ومن المحدثات أيضًا السيدة «أم عمر الثقفية» بنت أبي الفصن الثقفي، حدثت عَنْ زوجها وأبيها، وروى عنها فقهاء عصرها مثل أحمد بن حنبل وأبو إبراهيم الترجماني، وغيرهم كثيرون[٧]، وأَخُصُّ بالذكر من هؤلاء المحدثات الراويات السيدة «عباسة بن الفضل» التي كانت على دراية كبيرة بالعلوم الدينية، لكونها عاشت في بيت أحد الأئمة الأربعة، فهي زوجة أحمد بن حنبل وكثيرًا ما أثنى على علمها، وحدث عنها عبد العزيز بن جعفر الحنبلي[٨]، ومن

(١) ابن حبيب: عقلاء المجانين، ص٢٨٩.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٦/١٤. كذلك عمر كحالة: أعلام النساء، ٢٢٣/١.

(٣) عمركحالة: أعلام النساء، ١٠/١.

(٤) أحمد بن حنبل: فقيه إسلامي مشهور واحد أئمة المذاهب الأربعة ولد في بغداد في ربيع الأول عام (١٦٤هـ/ ٧٨١م)، عاصر بعض الخلفاء العباسيين حتى عهد المتوكل وتوفي في بغداد عام (٢٤١هـ/٨٥٥م)= رحيم كاظم وزميله: الحضارة العربية الإسلامية،دراسة في تاريخ النظم (القاهرة، بدون تاريخ)، ص٢١٦.

(٥) قالت تدعو لهما: «اللهم أن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيرانك من النار فأجرهما»= عمركحالة: أعلام النساء، ١٠/١.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٤/١٤.كذلك عمر كحالة: أعلام النساء، ٢ /٦٨.

(٧) عمر كحالة: أعلام النساء، ٣٤٣/٣.

(٨) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٨/١٤.

المحدثات المعاصرات للفقيه أحمد بن حنبل وروى عنها الكثيرون السيدة «خديجة أم محمد»، حدثت عن يزيد بن هارون وإسحاق بن يوسف، وأبي النصر هاشم بن القاسم، وكثيرًا ما التقت مع أحمد بن حنبل وسمعت منه وحدثها، وروى عنها عبد الله بن أحمد بن حنبل[1]. وطرقت النساء مجال علم الفقه، وبرعن فيه حتى أنهن قصدن لطلب الفتوى، ومنهن السيدة «أم عيسى بنت إبراهيم بن إسحاق الحربي»، وكانت فاضلة عالمة تفتي في الفقه حتى توفيت سنة (٣٢٨هـ/٩٣٩م) [2].

خلاصة القول، أن هناك نساء محدثات ومتصوفات كان لهن الأثر الكبير على مجتمع بغداد في نشر ثقافتهن الدينية بين الناس، بحيث أنهن كن بمثابة المشعل الذي يحمل نور الهداية في فترة غلب عليها اللهو والفسق والمجون حتى جرف تياره الكثيرين، كما أن وجود هؤلاء المحدثات رَدٌّ على القائلين بأن العصر العباسي كُلَّهُ عَصْرُ تحلل بسبب اللهو والمجون.

لكن بالرغم من وجود هؤلاء النساء اللاَّتي حظين بنصيب وافر من العلوم الأدبية والدينية إلا أن المرأة هي المرأة في كل عصر وبيئة، وبالرغم من هذا التقدم الفكري للمرأة فقد ظلت بعض النساء يعتقدن بالتعاويذ والتمائم مما جعلها تؤمن بالخرافات والغيبيات، فلجأت إلى المنجمين الذين يقرأون الطالع ويكتبون «كتب المحبة وكتب البغضة» وهؤلاء المنجمين إما أن يكون لهم مكان تذهب إليه النساء أو أنهم يطوفون على الدور والمنازل بأنفسهم[3].

وفي هذا الصدد اذكر بعض النماذج التي تدل على عجائب التنجيم في بغداد، فقد فقدت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد خاتماً له قيمة، واتهمت به بعض جواريها، فأحضرت رجلاً من أهل الصناعة فأخذ الطالع وأخبرها أن الله تعالى هو سبحانه الذي أخذ الخاتم، وكرر ذلك القول ولم يرجع عنه، وبعد مدة ختمت زبيدة المصحف فوجدت الخاتم فيه، وكان قد جعلته علامة للوقف عن قراءتها لبعض سور القرآن في المصحف الكريم[4].

مجمل القول، أن المرأة في هذا العصر عملت على نشر الثقافة والفنون بما أتيح لها في هذا المجال وكان لها دورُ لا بأس به، ترك أثراً واضحاً في نهضة نسائية ثقافية

---

(١) المصدر نفسه، ٤٣٥/١٤.

(٢) المصدر نفسه، ٤٤٢/١٤.

(٣) ابن الجوزي،أبو الفرج عبد الرحمن: تلبيس إبليس– تحقيق السيد الجملي (بيروت، ١٩٨٥م)، ص٤٨٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣١٧/٢.

تمثلت في أدب وشعر هؤلاء النسوة سواء كن من الحرائر أو الجواري خاصة الجواري اللاَّتي كان لهن عظيم الأثر في جلب نظر الرجال عامة والشعراء خاصة بما ترين به من الزينة فأشاع جو من الأدب بصورة عامة والشعر بصورة خاصة في بغداد، كما كان للنساء اللاَّتي نبغنَّ في العلوم الدينية دورُ في إيجاد التوازن في مجتمع بغداد الذي كاد يجرفه تيار اللهو والمجون.

الخـاتمة

ختاماً لهذه الدراسة التي تناولت بالبحث دور المرأة في المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي الأول عام(١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م) وذلك في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. والتي بينت فيها أهمية الدور المتعاظم الذي قامت به المرأة في العصر العباسي الأول، وألقيت الضوء على بعض الزوايا الغامضة؛برغم اضطراب المادة في المصادر وكثرة الخلط بين الأحداث وإغفال بعض الحقائق المهمة عن دور المرأة.

وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أهمها:

١- أن الدور السياسي المتواضع الذي لعبته المرأة سواء في التخطيط أو التمهيد للدعوة السياسية،لم يكن دورها مهماً ومباشرا؛ نظرًا لطبيعة العمل السري للدعوة العباسية.

٢- أبانت الدراسة أن النساء العربيات قد تدخلن في شئون الدولة تدخلاً يدل على رجاحة عقل وحكمة سياسية بهدف المحافظة على ترسيخ قواعد الدولة، والمحافظة على استمرار العنصر العربي وتواجده في ساحة العمل السياسي، وحفظ لنا التاريخ أسماء من نساء البلاط منهن السيدة زبيدة، وزينب بنت سليمان، ومن نساء الطبقات الأخرى نجد أم الشريف.

٣- أوضحتَ الدراسة أن تدخل الجواري والنساء الأجنبيات اللاَّتي أتيحت لهن فرصة الاقتراب من سلطة اتخاذ القرار والتسلط على الأمور وإدارة شئون الدولة، فقد انطلق تدخلهن بغية رفع مستواهن وشأنهن على عكس تدخل الحرائر اللواتي لم يقصدن الوصول إلى المكانة العالية لأنهن حصلن عليها بطبيعة الحال، وإنما قصدن من وراء ذلك السيطرة التامة على أمور الدولة، وكان أثر تدخلهن هذا سلبيًا فقد كان أحد أسباب زيادة الفوضى والاضطراب في البلاط العباسي، أما مظاهر نفوذهن وتمتعن بالثراء والسلطة فكانت عديدة منها الوساطة لعزل وتعيين رجال الدولة، ولا أدل على ذلك من طول باع السيدة أم المقتدر وأم الرشيد والهادي والخيزران.

٤- عالجت الدراسة في دور المرأة السياسي أيضاً الظروف الاقتصادية والسياسية التي أدت إلى اشتراك المرأة في أحزاب المعارضة ضد الأوضاع الموجودة من ذلك مشاركتها في حضور الجلسات السرية التي كان يعقدها زعماء هذه الحركات، وأسفر البحث عن حقيقة قناعة المرأة بمبادئ وأهداف هذه الحركات المعارضة، والتي عبرت عن روح السخط والاستياء من الأوضاع التي عانت منها العامة.

٥-كشفتِ الدراسة عن أن المرأة في العصر العباسي الأول تمتعت باستقلال اقتصادي إلى أبعد الحدود مكّنها من اقتناء ملكيات والقيام بمشاريع إنشائية من مالها الخاص، وأورد البحث أمثلة كثيرة عن نساء نلن شهرة كبيرة في هذا المجال.

٦-كما عالجتَ الدراسة من خلال الدور الاقتصادي للمرأة الظروف التي حاقت بالبعض منهن ودفعتهن إلى القيام ببعض المهن القائمة والمهن الأخرى المستحدثة التي عملت الجواري بها مثل السقاية في الحانات أو القيام بمهنة التجميل، وهذه المهن فرضتها الظروف التي أتاحت للمجتمع الأخذ بأسباب الرفاهية والثراء والترف.

٧- أوضحتَ الدراسة شكلاً من المقارنة بين تأثير الحرائر والجواري في جوانب حياة المجتمع العباسي، فرغم الكم الهائل من الجواري، وتوفر الفرص للرجل بحيازتهن ولقائهن والتعرف عليهن إلاّ أن المرأة الحرة حظيت بمكانة عالية، وأجبرت الرجل على تقديرها، بسبب كونها زوجة أو أُمّاً أو أختاً لأصحاب السلطان، كما لا نعدم أمثلة أخرى عن العامة عن تقديرهم للمرأة الحرة صاحبة الأسرة، فكثير من الآباء أحبوا بناتهم، ويفتحون أبوابهم للتعزية بهن، كما شاورهن في بعض الأمور على اختلاف نوعياتها إلى جانب أنهم رفعوهن مكاناً علياً، وأتضح لي ذلك في أمور الزواج والطلاق وتعدد الزوجات وحرص الإسلام على تثبيت حق المرأة وإعطائها حقوقها كاملة بالرغم من حرصهم على حجب نسائهن والغالب على الظن، أنهم قصدوا من وراء ذلك رفع شأنهن عن منزلة الجواري.

٨- أبرزت الدراسة أهم الآثار التي أحدثتها هؤلاء الجواري من التأثير على الخلفاء والشعراء وغيرهم وانساح الخطأ الشائع بالتفسخ على كل نساء المجتمع العباسي، في حين أن غالبية النساء الحرائر من هذا براء، ولا أدل على ذلك من قيامهن بدورهن العائلي على أكمل وجه، وأثبت البحث عدم انطباق هذه المقولة على كل الجواري فلم تكن كلهن ماجنات، وقدم الدليل على ذلك بوجود جواري قارئات للقرآن في قصر السيدة زبيدة، وخلصت الدراسة إلى تصحيح الرأي الذي كان شائعًا عن أن المجتمع العباسي كله تفسخ وتحلل ومجون.

٩- أوضح البحث تأثير الجواري في الحياة الثقافية في بغداد وأبان عن أهميته، إذا حملت الوافدات من الجواري مؤثرات ثقافية للبلدان اللاَّتي قدمن منها، ولم تخل هذه المؤثرات من أهمية في دعم وتنوع الثقافة القائمة،كما لعبن دوراً في الحياة الأدبية بمختلف فنونها، فآثرت بعضهن فن الغناء، وقرضت أخريات الشعر، ونظمت غيرهن النثر، فضلاً عن إثراء فن العزف على الآلات الموسيقية، وإدخال نوعيات جديدة منها، وأثرت بعض

الجواري في الشعر بطريق غير مباشر، إذ ألهمن بعض الشعراء قصائد الغزل والتغني بجمالهن.

١٠- وعن الحرائر في الحياة الثقافية في بغداد؛ فَقَدْ أوضحت الدراسة بالرغم من فرض القيود الاجتماعية كالحجاب مثلاً فقد برزت منهن من اختصت بثقافة عالية مثلتها نساء القصور في شتى أغراض الشعر والنثر وفروعها، كما أبرزت هذه الدراسة الدور الثقافي الذي لعبته نساء العامة في التعبير عن آرائهن من خلال ما قرضن من شعر، وما جادت به القريحة من نثر أمثال ليلى بنت طريف، والحجناء بنت نصيب.

١١- أوضحت الدراسة جانباً آخر من جوانب النهضة الأدبية للمرأة التي تمثلت في العلوم الدينية ؛إذ برز عدد من النساء المحدثات الراويات فذكرتُ أشهرهنّ على سبيل المثال لا الحصر واللاَّتي لهن الفضل في حمل مشعل الهداية والنور في عصر انتشرت فيه شتى أنواع اللهو والمجون، فكان لهنّ الفضل في إحلال التوازن في المجتمع العباسي.

والبحث بهذه الصورة رغم ما حقق من نتائج نتيجة للإطلاع على المَصَادرِ الأصلية بمختلف أنواعها تاريخية، وجغرافية، وطبقات، وتراجم أدبية من شعر ونثر، فإنه لم يقل الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع فمازالت هناك بعض زواياه الغامضة التي تحتاج إلى إلقاء الضوء، وخاصة نساء العامة اللاَّتي يُقَدِّرُ المنطق دورهن في كافة الأصعدة السياسية، والاقتصادية ،والاجتماعية ،والثقافية، وأقصرت المصادر عن أبانة هذا الدور بسبب الموروث من ناحية؛ ولأن المؤرخين الأوائل اهتموا بأصحاب السلطان، ونسوا تدوين دور العامة –ربما عامدين– وأملى كبير في ظهور مصادر جديدة تكشف عن الغامض والمستور من دور المرأة إبان العصر العباسي الأول، وحسبي طرق الباب، وفتح المجال لمزيد من الدراسات حول هذا الموضوع.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقتُ في عرض ودراسة موضوع البحث وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الباحثة....

مصادر ومراجع البحث

أولا – القرآن الكريم

- الحديث الشريف

المخْطُوطات

- ابن الجوزي ،أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (م:سنة٥٩٧هـ/١٢٠٠م).
ري الظمأ فيمن قال الشعر في الإماء، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم(١٩٨٧٨) القاهرة.

- أبو زكريا ،يحيى بن أبي بكر (م:سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧ م)
كتاب السيرة وأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠٣٠ ح).

المصادر المطبوعة

- الأبشيهي ،شهاب الدين محمد بن أحمد (م:سنة٧٩٠هـ/١٣٨٨م).
المستطرف في كل فن مستطرف، شرح مفيد قميحة (بيروت، ١٩٨٣م).

- ابن أبي أصيبعة ،موفق الدين أبو العباس أحمد (م:سنة٦٦٨هـ/١٢٦٩م) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت، بدون تاريخ).

- ابن الأثير ،أبى الحسن على بن أبي الكرم (م:سنة٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٨٠م).

- الأصفهاني ،أبو الفرج علي بن الحسين محمد (م:سنة٣٥٦هـ/٩٦٦م).
١- الأغاني- تحقيق إبراهيم الإبياري (القاهرة، ١٩٦٩م).
٢- الإماء الشواعر- تحقيق نور العشى، ويونس السامرائي (بيروت، ١٩٨٤م).

- الأصفهاني ،الرغب الأصفهاني (م:سنة٥٠٢هـ/١١٠٨م).
محاضرات الأدباء- تهذيب إبراهيم زيدان (بيروت،١٩٨٦م).

- الألباني ،محمد ناصر الدين
غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام،منشورات المكتب الإسلامي (بيروت،١٤٠٥هـ).
- الآلوسي ،السيد محمد شكري.
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب– (بيروت،بدون تاريخ).
- الآمدي ،أبو القاسم الحسن بن بشير بن يحيى (م:سنة٣٧٠هـ/٩٨٥م).
المؤتلف والمختلف– (بيروت،١٩٨٢م).
- الأندلسي أبو عمر بن محمد بن عبيد (م:سنة٢٨٢هـ/ ٨٩٥م).
ديوان البحتري (بيروت، بدون تاريخ).
- البخاري ،محمد بن إسماعيل بن إبراهيم(م:سنة٢٦٥هـ/ ٨٧٨م).
صحيح البخاري (بيروت، بدون تاريخ).
- البسوي أبو يوسف يعقوب بن سفيان (م:سنة٢٧٧هـ/٨٩٠م).
المعرفة والتاريخ– تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت،١٩٨١م).
- ابن بطلان أبو الحسن المختار بن عبدون الطبيب(م:سنة٩٥٥هـ/١٠٦٣م).
شرى الرقيق وتقليب العبيد – تحقيق عبد السلام هارون،ضمن مجموعة نوادر المخطوطات(القاهرة،١٩٧٣م)
- البكري ،أبو عبيد الله (م:سنة٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
معجم ما استعجم (بيروت، ١٩٨٣م).
- البلاذري ،أبو الحسن أحمد بن يحيى (م،سنة٢٧٩هـ/٨٩٢م).
فتوح البلدان (بيروت، ١٩٨٣م).
- البيروني ،أبو الريحان محمد بن أحمد (م:سنة٤٤٠هـ/١٠٤٨م).
الجماهر في معرفة الجواهر (حيدرأباد الدكن، ١٣٥٥هـ).

- البيهقي ،إبراهيم بن محمد (م:سنة٣٢٠هـ/٩٣٢م).
المحاسن والمساوئ (بيروت، ١٩٧٠م).
- ابن تغري بردي ،جمال الدين بن يوسف (م:سنة٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، بدون تاريخ).
- التنوخي ،أبو علي المحسن بن علي القاضي (م:سنة٣٨٤هـ/٩٩٤م).
١- الفرج بعد الشدة- تحقيق عبود الشايجى (بيروت،١٩٧٨)م.
٢- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (بيروت،١٩٧١م).
- التوحيدي ،أبو حيان الأندلسي (م:سنة٣٨٠هـ/٩٩٠م).
الإمتاع والمؤانسة- تحقيق أحمد أمين،وأحمد الزين (بيروت،بدون تاريخ).
- الثعالبي ،أبو منصور عبد الملك النيسابوري(م:سنة٤٣٠هـ/١٠٣٨م).
١- فقه اللغة (بيروت، بدون تاريخ).
٢- لطائف المعارف- تحقيق إبراهيم الإبياري، كامل الصيرمي (القاهرة، ١٩٦٠م).
- الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر (م:سنة١٥٠هـ/٧٦٧م).
١- البيان والتبيين- تحقق عبد السلام هارون (القاهرة،١٩٧٥م)
٢ - التاج في أخلاق الملوك- تحقيق أحمد زكي باشا(القاهرة،١٩١٤م)
٣- رسائل الجاحظ- تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة،١٩٦٤م).
٤ - المحاسن والأضداد- تحقيق فوزي عطوى (بيروت،١٩٦٩م).
- ابن جبير ،محمد بن أحمد (م:سنة٦١٤هـ/١٢١٧م).
رحلة ابن جبير (بيروت،١٩٨١م).

- الجراح ،أبو عبد الله محمد بن داود.

الورقـــة- تحقيـــق عبـــد الوهـــاب عـــزام، عبـــد الســـتار أحمـــد فراج(القاهرة،١٩٥٣م)

- الجهشياري ،أبو عبد الله محمد بن عبدوس (م:سنة٣٣١هـ/٩٤٢م).

الــوزراء والكتــاب- تحقيــق مصــطفى الســقا، إبــراهيم الإبيــاري، عبدالحفيظ شلبي (القاهرة، ١٩٨٠م).

- ابن الجهم ،على بن بدر بن سعود(م:سنة٢٤٩هـ/٨٦٣م)

ديوان علي بن الجهم- تحقيق خليل مردك (بيروت، ١٩٥٩م).

- ابن الجوزي ،أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (م:سنة٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

١ - أحكام النساء- تحقيق علي بن محمد (بيروت،١٩٨١م).

٢ - أخبار الحمقى والمغفلين (بيروت، ١٩٨٥م).

٣ . أخبار الظراف والمتماجنين- راجعة عبد الرءوف سعد (القاهرة، بدون تاريخ)

٤ - تلبيس إبليس- تحقيق السيد الجملي (بيروت،١٩٨٥م)

٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم(حيدر آباد ،١٣٥٨هـ).

- الحاكم ،أبو عبد الله محمد النيسابوري (م:سنة٤٠٥هـ/١٠١٤م)

المستدرك عن العميق في الحديث (الرياض، بدون تاريخ).

- ابن حبيب ،أبو القاسم حسن بن محمد (م:سنة٤٠٦هـ/١٠١٥).

عقلاء المجانين- تحقيق عمر الأسعد (بيروت، ١٩٨٧م).

- ابن حزم ،أبو محمد علي بن أحمد الاندلسى (م:سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣).

جمهرة أنساب العرب- تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة،١٩٧١م)

- الحموي ،شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت (م:سنة٦٢٦هـ/١٢٣٠م).

معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي(بيروت،بدون تاريخ)

- الحنبلي ،أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (م:سنة١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب(بيروت،١٩٧٩م)

- ابن حوقل ،أبو القاسم النصيبى(م:سنة٣٦٧هـ/ ٩٨٦م).
صورة الأرض (بيروت،١٩٧٩م).
- ابن حيان ،أبو مروان بن حيان بن خلف(م:سنة٤٦٩هـ/١٠٧٦م).
المقتبس من أنباء أهل الأندلس- تحقيق محمود علي مكي (بيروت، ١٩٧٣م).
- ابن خرداذبه ،أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (م:سنة٣٠٠هـ/٩١٢م).
المسالك والممالك (بغداد، بدون تاريخ).
-الخطيب البغدادي ،الحافظ أبو بكر أحمد بن على(م:سنة٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
تاريخ بغداد (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد (م:سنة٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
المقدمة (بيروت، ١٩٧٨م).
- ابن خلكان ،أبو العباس شمس الدين أحمد (م:سنة٦٨١هـ/١٢٨٢م).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان-تحقيق إحسان عباس(بيروت،١٩٦٨م).
- الدينوري ،أبو حنيفة أحمد بن داود (م:سنة٢٨٢هـ/٨٩٥م).
الأخبار الطوال- تحقيق عبد المنعم عامر(بغداد،١٩٥٩م).
- الذهبي ،شمس الدين محمد احمد(م:سنة٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
سير أعلام النبلاء- تحقيق شعيب الأرنؤط (بيروت، ١٩٨١م).
- ابن رشيق ،أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده- تحقيق محي الدين عبد الحميد (بيروت،١٩٨٧م).

- الزبيدي ،محمود تقي الحسين الزبيدي
تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق عبد الستار أحمد (الكويت، ١٩٧١م).
- ابن الساعي ،تاج الدين أبو طالب علي (م: سنة٦٧٤هـ/١٢٧٥م).
نساء الخلفاء المسمي جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء- تحقيق مصطفى جواد (القاهرة، بدون تاريخ)
- السراج ،أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين
مصارع العشاق- ضبطه أحمد يوسف نجاتي، أحمد مرسي مشالي (القاهرة، ١٩٥٦م).
- ابن سعد ،محمد بن سعد البصري(م:سنة٢٣٠هـ/٨٤٤م)
الطبقات الكبرى(بيروت،بدون تاريخ).
- السويدي ،أبو الغور محمد أمين
سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، المكتبة العلمية (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن سيدة ،أبو الحسن بن إسماعيل (م:سنة٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).
المخصص في اللغة والآدب- تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (بيروت، بدون تاريخ).
- السيوطي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (م:سنة٩١١هـ/١٥٠٥م).
١- تاريخ الخلفاء- تحقيق محمد محي الدين (القاهرة، ١٩٥٢م).
٢- المستظرف من أخبار الجواري- نشر صلاح الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٩٥٢م).
٣- نزهة الجلساء في أشعار النساء- تحقيق عبد اللطيف عاشور (القاهرة، ١٩٨٦م).

- الشابشتي ،أبو الحسن علي بن محمد (م:سنة٣٨٨هـ/٩٩٨م).
الديارات– تحقيق كوركيس عواد (بغداد ،١٩٦٦م).
- الشماخي ،أبو العباس أحمد بن سعيد.
السير (القاهرة، بدون تاريخ).
- الشهرستاني ،أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (م،سنة٤٧٩هـ/١٠٧٦م).
الملل والنحل– تحقيق محمد سيد الكيلاني،دار الفكر (بيروت،١٩٨٢م)
- الصفدي ،صلاح الدين خليل بن أيبك (م:سنة٧٦٤هـ/١٣٦٢م).
الوافي بالوفيات (فيسبادن ،١٩٦١م).
- الصولي ،أبو بكر محمد بن يحيى (م:سنة٣٣٥هـ/٩٤٦م).
أدب الكتاب– تحقيق محمد بهجة الأثربي (بيروت،بدون تاريخ).
- الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير (م:سنة٣١٠هـ/٩٢٢م).
تاريخ الرسل والملوك– تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، ١٩٧٩م).
-ابن الطقطقى ،محمد بن على بن طباطبا (م:سنة٧٠٩هـ/ ١٣٠١م).
الفخري في الادآب السلطانية والدول الإسلامية(بيروت،بدون تاريخ).
- ابن طيفور ،أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (م:سنة٢٨٠هـ/٨٩٣م).
١– بغداد في تاريخ الخلافة العباسية (بغداد، ١٩٦٨م).
٢– بلاغات النساء (بيروت، ١٩٨٧م).
- ابن عبد ربه ،أبو عمر احمد بن محمد الاندلسى(م:سنة٣٢٨هـ/٩٣٩م).
العقد الفريد (بيروت، ١٩٨٣م).
- أبو العتاهية ،إسماعيل بن القاسم (م:سنة٢١٠هـ/٨٢٥م).
ديوان أبي العتاهية (بيروت، بدون تاريخ).

- العسقلاني ،شهاب الدين أبو الفضل أحمد(م:سنة٨٥٢هـ/١٤٤٨م).
فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة،١٩٧٨م)
- الغزالي ،الإمام أبي حامد (م:سنة٥٠٥هـ/١١١١م).
١- إحياء علوم الدين (القاهرة، بدون تاريخ).
٢- الاقتصاد في الاعتقاد (أنقرة ،١٩٦٢م).
- أبو الفداء ،عماد الدين إسماعيل (م:سنة٧٣٢هـ/١٣٣١م).
المختصر في أخبار البشر (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن الفقيه ،أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق (م:سنة٣٠٠هـ/٩١٢م).
كتاب البلدان، (موسكو، ١٩٦٨م).
- الفيروز آبادي ،محمد بن يعقوب(م:سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م) .
القاموس المحيط(القاهرة، ١٣٤٤هـ) .
- ابن قتيبة ،أبو محمد عبد الله بن مسلم (م:سنة٢٧٦هـ/٨٨٩م).
١ - أدب الكاتب- تحقيق محمد الدالي (بيروت، ١٩٨٥م) .
٢- الشعر والشعراء- تحقيق أحمد محمود (بيروت،١٩٧٧م).
٣- عيون الأخبار (القاهرة، ١٩٧٣م).
٤ - المعارف- تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة،١٩٦٩م).
- ابن قدامة ،قدامة بن جعفر البغدادي (م:سنة٣٣٧هـ/ ٩٤٨ م).
الخراج وصناعة الكتابة- شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي (بغداد،١٩٨١م).
- القرطبي ،أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري.
الجامع لأحكام القرآن (بيروت، ١٩٦٥م).
- القرطبي ،أبو عمر يوسف بن عبد الله (م:سنة٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
بهجة المجالس وأنس الجالس، تحقيق محمد مرسي الخولي (بيروت ،بدون تاريخ).

- القرطبي ،عريب بن سعد القرطبي (م:سنة٣٦٣هـ/٩٧٣م).
صلة تاريخ الطبري، ملحق على تاريخ الطبري- تحقق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، ١٩٦٩م).
- القفطى ،جمال الدين أبو الحسن على (م:سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م).
أخبار العلماء بأخبار الحكماء (بيروت، بدون تاريخ).
- القلقشندى ،أبو العباس أحمد بن علي (م:سنة٨٢١هـ/١٤١٨م).
١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة،١٩٨٥م).
٢- مآثر الإنافة في معالم الخلافة- تحقيق عبد الستار فراج (بيروت،١٩٦٤م).
- ابن القيم الجوزية ،شمس الدين أبو عبد الله محمد(م:سنة٧٥١هـ/١٣٥٠م).
أخبار النساء- تحقيق نزار رضا (بيروت، ١٩٨٢م).
- الكتبي ،محمد بن شاكر (م:سنة٧٥٤هـ/١٣٥٣م).
فوات الوفيات- تحقيق إحسان عباس (بيروت، ١٩٧٣م).
- ابن كثير ،أبو الفداء الحافظ إسماعيل (م:سنة٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
البداية والنهاية (بيروت،١٩٨٧م).
- ابن منظور ،أبو الفضل جمال الدين محمد (م:سنة٧١١هـ/١٣١١م).
لسان العرب (بيروت، بدون تاريخ).
- الماوردي ،أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (م:سنة٤٥٠هـ/١٠٥٨).
الأحكام السلطانية والولايات الدينية (القاهرة، ١٩٦٠م).
- مجهول أخبار الدولة العباسية- تحقيق عبد العزيز الدوري، عبد الجبار المطلب (بيروت، ١٩٧١م).
- مجهول العيون والحدائق في أخبار الحقائق (بغداد، بدون تاريخ).
- المرزباني ،الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران (م:سنة٣٨٤هـ/٩٩٤م).

معجـــم الشـــعراء- تهـــذيب المستشـــرق ســـالم الكرنكـــوي (بيروت،١٩٨٢م).

- المسعودي ،أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (م: سنة٣٤٦هـ/٩٥٧م) .

١- التنبيه والأشراف (بيروت، ١٩٨١م).

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت، ١٩٨٢م).

- ابن مسكويه ،أبو علي أحمد بن محمد (م:سنة٤٢١هـ/١٠٣٠م) .

تجارب الأمم (القاهرة ،١٩١٤م).

- ابن المعتز ،عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن هارون الرشيد(م:سنة٢٩٦هـ/٩٠٨م).

١ - ديوان ابن المعتز- شرح وتقديم ميشيل نعمان(بيروت،١٩٦٩م).

٢- طبقـــات الشـــعراء- تحقيـــق عبـــد الســـتار أحمـــد فـــراج (القاهرة،١٩٦٨م).

- المقدسي ،شمس الدين أبو عبد الله (م: سنة٣٨٨هـ/٩٩٨م).

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن، ١٩٠٦م).

- المقري ،شهاب الدين أحمد بن محمد (م:سنة١٠٤١هـ/١٦٣٦م).

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٩٤٩م).

- المقريزي ،تقي الدين ابن العباس أحمد (م:سنة٨٤٥هـ/١٤٤١م).

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بيروت، بدون تاريخ).

- ابن النديم ،أبو الفرج محمد بن إسحاق (م:سنة٤٣٨هـ/١٠٤٦م).

الفهرست- تحقيق ناهد عباس عثمان (الدوحة، ١٩٨٥م).

- أبو نواس ،الحسن بن هانئ (م:سنة١٩٥هـ/٨١٠م)
ديـوان أبـي نـواس- تحقيـق أحمـد عبـد المجيـد الغزالـي (بيروت،١٩٨٢م)
- النويري ،شهاب الدين أحمد (م: سنة٧٣٢هـ/١٣٣١م).
نهاية الإرب في فنون الأدب (القاهرة، بدون تاريخ).
- الهمذاني ،أبو الحسن محمد بن عبد الملك (م:سنة٥٢١هـ/١١٢٧م)
تكملة تاريخ الطبري- تحقيق محمد بن أبي الفضل إبراهيم (القاهرة، ١٩٧٩م).
- الوشاء ،أبو الطيب محمد بن إسحاق (م:سنة٣٢٥هـ/٩٣٦م).
الموشـي والمظـرف والظرفـاء- تحقيـق كمـال مصطفى(القاهرة،١٩٥٣م)
- اليعقوبي ،أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (م:سنة٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).
تاريخ اليعقوبي (بيروت ، بدون تاريخ).

المراجع

- الآلوسي ،عادل محي الدين
تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري وأواخر القرن الثالث عشر ميلادي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام سلسلة الدراسات ٣٥٨، ودائرة الشئون الثقافية والنشر العراق (بغداد،١٩٨٤م).
- إسماعيل ،محمود
١- الحركات السرية في الإسلام (فاس ،١٩٧٦م).
٢ - الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،مكتبة الحرية (القاهرة ،١٩٨٦م)

- الأطرقجي ،رمزية

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس (القاهرة ،١٩٧٢م).

الأطرفجيي ،واجدة عبد الله

المرأة في أدب العصر العباسي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات ٢٥٤، دار الرشيد للنشر (بغداد،١٩٨١م).

- أمين ،أحمد

ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي (بيروت، بدون تاريخ).

- أنيس ،إبراهيم ، عبد الحليم منتصر، وآخرون.

١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (الدوحة، ١٩٨٦م).

٢ - الموسوعة العربية الميسرة (بيروت ،١٩٨٦م).

- أبو رحمة ،محمد

هارون الرشيد، مكتبة مدبولى (القاهرة، ١٩٩٣م

- البدوي ،خليل

شهيرات النساء، دار أسامة للنشر(عمان، ١٩٩٨م).

- بدوي ،عبد الرحمن

شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية (الكويت، ١٩٨٧م).

- بروكلمان ،كارل

تاريخ الشعوب الإسلامية- نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي ،دار العلم للملايين (بيروت،١٩٨٤م).

- البستاني ،كرم

النساء العربيات، دار صادر (بيروت، ١٩٦٤م).

- البشبيبي ،محمود

الفرق الإسلامية (القاهرة ،١٩٣٢م).

- البواب ،سليمان سليم
مائة أوائل من النساء (دمشق، ١٩٨٦م).
- بيهم ،محمد جميل
المرأة في حضارة العرب، دار نشر للجامعيين (بيروت،١٩٦٢م).
- تامر ،عارف
القرامطة، دار الكتاب العربي (بيروت، بدون تاريخ).
- الجبوري ،يحيى
الزينة في العصر الجاهلي، دار القلم (الكويت، ١٩٨٤م).
- جود فروا ،موريس
النظم الإسلامية- نقله إلى العربية فيصل السامر، صالح الشماع، دار النشر للجامعيين (بيروت، ١٩٦١م).
- حسن ،حسن إبراهيم
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، ١٩٧٩م).
- حسن ،علي إبراهيم
نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة،١٩٨١م)
- حسين ،محمد
عصر تسلط الأتراك، رسالة ماجستير(فاس،١٩٨٤م).
- حسين ،محمد
معجم المصطلحات الدخيلة، دار الفكر(بيروت، بدون تاريخ).
- حسين ،محمود إبراهيم
المرأة في إنتاج المصور المسلم (القاهرة، ١٩٨٣م).

- الخضري بك ،محمد

محاضـرات فـي تـاريخ الأمـم الإسـلامية الدولـة العباسـية (القاهرة،١٩٧٠م)

-خليل ،شوقي

هـارون الرشـيد أميـر الخلفـاء واجـلّ ملـوك الـدنيا، دار الفكـر (دمشق،١٩٩٦م)

- دوزي ،رينهارت

معجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب– ترجمة أكرم فاضـل، منشـورات وزارة الثقافـة والأعـلام، سلسـلة المعـاجم ١ (بغداد،١٩٧١م).

- الدوري ،عبد العزيز

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي،دار الطليعة(بيروت،١٩٨٢م)

- رحمة الله ،مليحة

الحالـة الاجتماعيـة فـي القـرنين الثالـث والرابـع بعـد الهجـرة، كليـة الآداب، رسالة دكتوراه، عين شمس (القاهرة، ١٩٦٨م).

- رشدي ،صبيحة رشيد

الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية (بغداد ،١٩٨١م).

- الزاوي ،طاهر احمد

مختار القاموس،الدار العربية للكتاب(بدون مكان،١٩٨١م).

- الزركلي ،خير الدين

الأعلام، دار العلم للملايين (بيروت، بدون تاريخ).

- زكار ،سهيل

أخبار القرامطة في الإحساء، والشام، واليمن، والعراق، دار حسان (دمشق، ١٩٨٢م).

- زيادة ،نقولا

الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية(بيروت،١٩٦٢م)

- زيدان ،جرجي

تاريخ التمدن الإسلامي،منشورات دار الحياة(بيروت،بدون تاريخ).

- سابق ،السيد

فقه السنة، دار الفكر (بيروت، بدون تاريخ).

- سالم ،السيد عبد العزيز

العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية،١٣٩٨هـ)

- السباعي ،مصطفى

المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي(دمشق،١٩٧٥م).

- سعد الدين ،ليلى حسن

المرأة في الإسلام، بنتاً –زوجة– وأماً، دار الفكر (عمان،١٩٨٤م).

- سليمان ،حسين محمد

الدولة الإسلامية في العصر العباسي والعلاقات السياسية مع الأمويين والفاطميين، عالم الكتب (الرياض، ١٩٨٤م).

- السيد ،مجدي فتحي

تاريخ الإسلام والمسلمين،دار الصحابة(طنطا،١٩٩٩م).

- الشطشاط ،على حسين

١- تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن ٣-٧هـ/٩-١٣م)

،منشورات جامعة قاريونس (بيروت ،١٩٩٩م).

٢-دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية،دار قباء(القاهرة،٢٠٠١م)

٣- الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحرانى، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي،١٩٩٠م).

- شلق ،على

العقل العلمي في الإسلام (طرابلس–الشام،١٩٩٢م)

- الصالح ،صبحي

النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين(بيروت،١٩٨٠م).

- الصباغ ،ليلى

المرأة في التاريخ العربي في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق، ١٩٧٥م).

- صفوت ،أحمد زكي

جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة(بيروت،١٩٣٨م).

- ضيف ،شوقي

١– العصر العباسي الأول، دار المعارف (القاهرة، ١٩٦٦م).

٢– العصر العباسي الثاني، دار المعارف (القاهرة، ١٩٨٥م).

- العبادي ،أحمد مختار

في التاريخ العباسي والفاطمي،دار النهضة العربية(بيروت،١٩٧١م)

- العبيدي ،صلاح الدين

الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي، دار الرشيد (بغداد،١٩٨٠م).

- عبد الرزاق ،سعاد

رابعة العدوية بين الغناء والبكاء،مكتبة الأنجلو المصرية(القاهرة،١٩٨٢م).

- العسكري ،سليمان إبراهيم

التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، مطبعة المدني (القاهرة، ١٩٧٢م).

- العش ،يوسف

تاريخ عصر الخلافة العباسية ،دار الفكر(عمان، ١٩٦٨م).

- عطوى ،علي نجيب

شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، منشورات المكتب الإسلامي (بدون مكان، ١٩٨١م).

- عفيفي ،عبد الله

المرأة في جاهليتها وإسلامها، دار الرائد العربي (بيروت،١٩٨٣م).

- عقلة ،محمد

نظام الأسرة في الإسلام، مكتبة الرسالة (الأردن، ١٩٧٣م).

- العلي ،زكية عمر

التزين والحلي عند المرأة في العصر العباسي، دار الحرية للطباعة (بغداد، ١٩٧٦م).

- علي ،أحمد إسماعيل

تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (١٣٢-٤٦٢هـ) (دمشق،١٩٨٤م).

- العمروسي ،فايد

الجواري والمغنيات، دار المعارف (القاهرة، ١٩٦١م).

- عمر ،فاروق

١- الثورة العباسية٩٨ -١٣٢هـ/٧١٦-٧٤٩،دار الشروق للنشر (عمان،٢٠٠١م).

٢- الخلافة العباسية(عصر القوة والازدهار)،دار الشروق للنشر(عمان،١٩٩٨م).

٣ – طبيعة الدعوة العباسية، دار الإرشاد (بيروت، ١٩٧٠م).

– عويس ،محمد

المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ،دار الثقافة (القاهرة،١٩٧٠م)

–عيسى بك ،احمد

تاريخ البيمارستان في الإسلام،دار الرائد العربي(بيروت،١٩٨١م)

– الفريح ،سهام عبد الوهاب

الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، الربيعان للنشر (الكويت،١٩٨٠م).

– فواز ،زينب محمد

الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار المعرفة (بيروت، بدون تاريخ).

– المدور ،جميل نخلة

حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية(القاهرة،١٩٣٧م).

– المنجد ،صلاح الدين

١– بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، دار الحياة (بيروت،١٩٥٧م).

٢ – جمال المرأة عند العرب، دار الكتاب الجديد(بيروت،١٩٦٩م).

– النجار ،عامر

الخوارج، عقيدة، وفكر، وفلسفة، دار المعارف (القاهرة، ١٩٩٩م).

– الوائلي ،عبد الحكيم

موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين،دار أسامة (عمان، ٢٠٠١م).

- الولي ،طه
القرامطة، أول حركة اشتراكية في الإسلام (بيروت، ١٩٨١م).
- كاظم ،رحيم
الحضارة العربية الإسلامية «دراسة في تاريخ النظم » (القاهرة،بدون تاريخ).
- كحالة ،عمر رضا
١-أعلام النساء، مؤسسة الرسالة (بيروت، ١٩٨٢م)
٢- المرأة في عالم العرب والإسلام (بيروت،١٩٧٨م)
- كرد على ،محمد
الإسلام والحضارة العربية، مطبعة التأليف والترجمة (القاهرة،١٩٦٨م).
- كيال ،باسمه
تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين (بيروت، ١٩٨١م).
- لوبون ،غوستاف
حضارة العرب- ترجمة عادل زعيتر (القاهرة، ١٩٥٦م).
- ماجد ،عبد المنعم
١- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي(القاهرة،١٩٧٤م)
٢- العصر العباسي الأول،مكتبة الأنجلو المصرية(القاهرة،١٩٧٩م)
٣- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (القاهرة، ١٩٧٣م).
- متز ،آدم
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد أبوريدة ،دار الكتاب العربي (بيروت، ١٩٦٧م).

- محمود ،حسن أحمد، وأحمد إبراهيم الشريف
العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي (القاهرة،١٩٧٧م).
- مصطفى ،شاكر
دولةبني العباس، وكالة المطبوعات (الكويت، ١٩٧٣م).
- مظهر ،جلال
حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجى (القاهرة، بدون تاريخ).
- الهاشمي ،أحمد
جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، منشورات مؤسسة المعارف (بيروت، بدون تاريخ).
- هاشم ،مهدي طالب
الحركة الأباضية في المشرق العربي،رسالة ماجستير(بغداد، ١٩٧٧م)

الدوريات

- الشكري ،جابر
الطيب والعطور، مجلة المورد، مج١٤، العدد٤ (بغداد، ١٩٨٥م).
- سرور ،محمد جمال الدين
الحياة الاجتماعية في بغداد العصر العباسي، مجلة العربي، العدد٥٧(الكويت،١٩٦٣م).
- العبيدي ،صلاح الدين
أصحاب الحرف والمهن الشعبية في العصر العباسي، مجلة المأثورات الشعبية ،السنة الأولى، العدد٣ (الدوحة، ١٩٨٦م).
- سكاكيني ،وداد
التصوف تهجد وتعبد وفناء، مجلة العربي، العدد٤ (الكويت،١٩٥٩م).


الملاحق

ملحق رقم-١-

بنان الشاعرة [١]

من جواري المتوكل، لها مقدرة كبيرة على الإجازة الشعرية، فقد خرج المتوكل يوماً فمشى في صَحْنِ القَصرٌ وهو مُتَّكِئٌ على يد بنان ويد فضل الشاعرة ثم انشد قول الشاعر:

تعلمتُ أسباب الرضي خوف هجرها وعلمها حبّي لها كيف تغضبُ

ثم قال لها أجيزي قول الشاعر فقالت:

وعندي لها العتبى على كلّ حالَةٍ فما منه لي بدٌّ ولا عنه مذهبُ

ملحق رقم -٢-

- بُوران بنت الحسن بن سَهل [٢]

ابنة وزير المأمون وهى أديبةُ فاضلةُ، ولدت في صفر سنة(١٩٢هـ/٨٠٧م)،ويُقال أن اسمها (خديجة)، وبُوران لقبها. وقد تزوج بها المأمون في شهر رمضان سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م) لمكانة أبيها منه، وأنفق على عرسها أموالاً جمة، فقد احتفل أبوها بزواجها، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من العصور، رثتْ المأمون بعد وفاته بقصائد تفيض حزناً على وفاته توفيت في بغداد عام (٢٧١هـ/٨٨٤م).

ملحق رقم -٣-

- الخيزران [٣]

هي جارية يمانية بنت جرس، قيل أن المهدي اشتراها بمائة ألف درهم،ثم تزوجها ولدت خليفتين هما الهادي، وهارون الرشيد، كان المهدي يلبي رغباتها بتحقيق طلباتها، فكانت لها الكلمة النافذة في بغداد فكانت تأمر وتنهى حتى علم الناس منزلتها عند زوجها، فأكثروا من الوقوف عند بابها ليسألونها قضاء حوائجهم. هذا الأمر الذي ينهاها عنه ابنها الهادي بعد أن تولى الخلافة فقد سألته في قضاء حاجة فرفض ذلك فكان

---

(١) الأصفهاني:الأغاني، ٧٦١٢/١١.كذلك السيوطي: المستطرف، ص١٢، عمركحالة:أعلام النساء، ١٤٨/١.

(٢) الطبري:تاريخ الرسل، ٥٦٦/٨.كذلك ابن قتيبة: المعارف، ص٣٩١، الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٢٠.

(٣) السيوطي:المستطرف، ص٢٤.كذلك على إبراهيم حسن:نساء لهن في الإسلام نصيب، ص٧٩.

العداء قائمًا بينهما حتى سعى كل منهما إلى قتل الآخر، وكانت تمتلك كثيرًا من الأملاك حتى قيل إن غلتها في السنة بلغت مائتي ألف وستين ألفاً. كانت كثيرة البر بالفقراء والمساكين والعطف على الشعراء حتى قيل أنها وراء المنشآت التي قام بها المهدي، وتوفيت سنة (١٧٣هـ/٧٨٩م).

ملحق رقم -٤-

- دنانير (جارية يحيى بن خالد البرمكي) (١)

كانت دنانير لرجل من أهل المدينة، أدبها،فهي أديبة شاعرة، ومغنية وكانت من أحسن النساء وجهاً وأظرفهن وأحسنهن أدباً، ولها كتاب مجرد في الأغاني لم يذكر اسمه، اشتراها يحيى بن خالد البرمكي، وكان الرشيد يذهب لدارِه ليسمعها ويتحدث إليها، فاشتد إعجابه بها فكان لا يطيق الصبر عنها ووهبها كثير من المجوهرات ؛ومن ذلك أنه وهبها عقداً ثمنه ثلاثون ألف دينار أصابتها العلة الكلبية، فكانت لا تصبر عن الأكل ساعة واحدة، فكان يحيى يتصدق عنها في شهر رمضان عن كل يوم بألف دينارٍ لأنها لا تصوم، ظلت على وفائها للبرامكة بعد نكبتهم ورفضت الغناء بعدهم حتى للخليفة هارون الرشيد الذي رق لها بعد ذلك وأمر بإطلاق سراحها.

ملحق رقم -٥-

- ذات الخال (خنث)، (جارية إبراهيم الموصلي) (٢)

مغنية من أجمل النساء وأكملهنّ، قال فيها إبراهيم الموصلي الشعر وغنى به فشهرها، فلما سمع الرشيد عن خبرها اشتراها بسبعين ألف درهم وأهداها كثير من الجواهر ،عاشت في بلاط هارون الرشيد، وكان لها نفوذ وسيطرة كبيرين عليه،حتى حلف يوماً أنها تسأل شيئا ذلك اليوم إلا قضاه فسألته أن يولِّى حَّمويه الحرب والخراج بفارس خلال سبع سنيين ففعل ذلك حالاً، وكانت ذات الخال إحدى الثلاث الجواري اللاَّتي كان الرشيد يهواهنّ، ويقول الشعر فيهن، وهن، سحر ،وضياء،وخنث (ذات الخال).

ملحق رقم -٦-

- زُبَيدةَ بنت جَعفر (١)

---

(١) الأصفهاني:الأغاني، ٦٨١٧/١٠ وما بعدها.كذلك عمركحالة:أعلام النساء، ١٠٧/١.

(٢) الأصفهاني:الأغاني، ٦١٧٧/٩.كذلك ابن عبد ربه الأندلسي:العقد الفريد، ٤٦/٦.

اسمها أم جعفر أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور؛ وزبيدة لقبها به جدها الخليفة المنصور، وزبيدة تصغير زبدة، وذلك لبشرتها النضرة تزوجها هارون الرشيد سنة (١٦٥هـ/٧٨١م) وهي أول هاشمية ولدت خليفة، كانت معروفة بالأفضال على الشعراء والعلماء، كما عُرف عنها حبها للترف والبذخ وكانت لها أفضال كثيرة على الفقراء والمساكين بما أقامته من المنشآت وما أنفقت عليها من النفقات خاصة تلك الآثار التي في طريق مكة والمدينة، توفيت سنة (٢١٦هـ/٨٣١م).

ملحق رقم -٧-

- زيدان القهرمانة،(٢)

من ربات النفوذ والسلطان والدهاء في العصر العباسي، كان عيسى البغدادي طبيبها الخاص يحمل لها الرقاع بين الوزراء وكان يتقرب إليها كبار رجال الدولة ملتمسين منها الجاه والقوة.

ملحق رقم -٨-

سَكَنْ جارية محمود الورّاق (الورّاق م: سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م) (٣)

وهي من شاعرات العصر العباسي الأول، اشتهرت بالأدب والحكمة والاحتشام اشتهرت بالغناء وكانت تقول الشعر فتأتي بالمعاني الجياد والألفاظ الحسان، فضلت أن تعيش مع الورّاق بالرغم مما أصابه من ضيق الحال، فكافأها بأن أعتقها لوجه الله وأصدقها داره التي يملكها.

---

(١) ابن خلكان: لاوفيات الأعيان، ٣١٤/٢. كذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٩١، سليمان البواب:أوائل النساء، ص٣٨٠، على إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الاسلامى نصيب، ص٨٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٣٧/٦، ١٨٤.كذلك ابن الجوزي: المنتظم، ٧٠/٦، الهمدانى :تكملة تاريخ الطبري، ص٢٣٩، ٢٥٦، ابن مسكويه : تجارب الأمم، ٤٠١/١.

(٣) ابن المعتز:طبقات الشعراء، ص٣٦٦، ٤٢٢ كذلك عمركحالة: أعلام النساء، ٢٠٠/٢.

ملحق رقم- ٩-

- شارية [١]

مُوَلَّدة من مُوَلَّداتِ البصرة، يقال أن أباها كان حسن بن أسامة بن لؤي المعروفين ببني ناجية، وأنه جحدها فاسترقت،وكان قد اشترتها امرأة حسن بن هاشم، ثم اشتراها إسحاق الموصلي بثلاثمائة دينار، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي، فأخذت غناءه كله أو أكثره، وبذلك يحتج من يقدمها على عريب المغنية، وقد أعتقها إبراهيم وتزوجها ولما مات ابتاعها المعتصم بخمسة آلاف وخمسمائة دينار، وتزعمت شارية حركة الغناء بعد وفاة المعتصم حتى أواخر خلافة الواثق، ويقال أن شارية لم تضرب العود إلا في أيام المتوكل عندما اتصل الشر والعداوة والمنافسة بينها وبين عريب.

ملحق رقم -١٠-

عريب [٢]

شاعرة، ومغنية محسنة،ذات فصاحة وبلاغة، وحسن جمال، ولغنائها ديوان مفرد، ولدت سنة(١٨١هـ/٧٩٧م) ويقال أنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أمها اسمها فاطمة كانت قيمة لأم عبد الله بن يحيى بن خالد، تزوجها جعفر مغنية، ولما ماتت أم عريب في حياة جعفر، دفع عريب إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها فلما حدثت نكبة البرامكة باعتها إلى عبد الله بن إسماعيل المراكبي، والذي أدبها وعلمها الغناء. توفيت في شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائتين، وكانت وفاتها عن ست وتسعين سنة.

- ملحق رقم -١١-

عنان (جارية الناطفي) [٣]

مولَّدة من مولَّدات اليمامة، اشتراها النطاف، وهم الرشيد بابتياعها منه فمنعه منها اشتهارها وما هجاها به الشعراء مع حبه لها وميله إليها وقيل أنه أحضرها ليبتاعها من سيدها فطلب ثمنها مائة ألف درهم فأحضرها الرشيد عنده ثم ردها، فتصدق سيدها بثلاثين ألف درهم، فلما مات مولاها بيعت بمائتي ألف درهم، وكانت أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية، وأفضل من عرف من طبقتها، ولم يزل فحول الشعراء في عصرها يلقونها في منزل مولاها فيقرضونها الشعر، ماتت سنة ست وعشرين ومائتين.

---

(١) الأصفهاني: الاغانى، ٥٧٦٠/٨.كذلك السيوطي:المستظرف، ص٣٥، ابن الساعي:نساء الخلفاء، ص٩٢.

(٢) الأصفهاني: الإماء والشواعر، ص٩٩.كذلك ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ، ٧٩٦/٢.

(٣) الأصفهاني: الإماء والشواعر، ص٢٣.كذلك ابن المعتز :طبقات الشعراء، ابن النديم:الفهرست، ص٣١٢.

ملحق رقم -١٣-

- عُلَيَّة بنت المهدي، (١٦٠-٢١٠هـ/٧٧٦-٨٢٥م) [١]

أمها أم مغنية يقال لها مكنونة، اشتريت للمهدي في حياة أبيه المنصور بمائة ألف درهم، وعُلَيَّة من أحسن الناس وأظرفهن، تقول الشعر وتصوغ فيه الألحان كانت على علم بدينها، تعشقت خادم من خدم أبيها يقال له (طَلّ) فكانت تراسله بالشعر.

ساهمت السيدة عُلَيَّة في تطوير الأزياء بابتكارها العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها، فكان الرشيد يحبها ويصحبها معه في أسفاره حتى أنها تركت الغناء بعد وفاته، توفيت السيدة عُلَيَّة سنة عشر ومائتين ولها خمسون سنة وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمهَّا إليه وجعل يقبِّل رأسها، وكان وجهُها مغطًّى، فشرِقتْ من ذلك، ثمَّ حُمَّت بعد ذلك وماتت.

ملحق رقم -١٤-

- فضل الشاعرة[٢]

جارية المتوكل على الله، كانت شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار مدونة ذكرها الأصفهاني فقال: كانت فضل جارية مولدة من مولدات البصرة وكانت أمها من مولدات اليمامة، بها ولدت ونشأت في دار رجل من عبد القيس وباعها بعد أن أدبها وخرجها، فاشتريت وأهديت إلى المتوكل، وكانت سمراء أديبة من أحسن خلق الله -عز وجل- خطًا وأفهمهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة الشعراء ومحاورة الأدباء وكانت تجلس على كرسي في مجلس المتوكل وتعارض الشعراء وكثيراً ما كانت تتقدمهم في الشعر الغنائي، ولكن بالرغم من تفوقها هذا، لم تعرض لها كتب الأدب إلا قليلاً من شعرها، توفيت سنة سبع وخمسين ومائتين (٢٥٧هـ/٨٧٠م).

ملحق رقم -١٥-

- فريدة، جارية الواثق[٣]

---

(١) الأصفهاني: الإماء والشواعر، ص٤٠.كذلك السيوطي: نزهة الجلساء، ص٦٨.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ٧٦٠٨/١١وما بعدها.أم الأصفهاني:الإماء الشواعر، ص٤٩، ٧١، السيوطي:المستظرف، ص٥٠-٥١، ابن الساعي:نساء الخلفاء، ص٨٤.

(٣) السيوطي:المستظرف، ص٤٩.كذلك عمر كحالة: أعلام النساء، ١٦٢/٤.

كانت لعمرو بن بانة أهداها إلى الواثق، كانت حسنة الوجه، حسنة الغناء، حادة الفطنة والفهم، حظيت عن الواثق، فلما مات الواثق بالله وتولى جعفر المتوكل أحضر فريدة وطلب منها أن تغني له فأبت وفاء للواثق، ولكنها لم تثبت على وفائها للواثق، فقد تزوجت من المتوكل فولدت له ابناً أبا الحسن.

ملحق رقم -١٦-

- متيم الهاشمية [١]

كانت متيم الهاشمية صفراء مولدة من مولدات البصرة، وبها نشأت، وتأدبت،وغنت، أخذت الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي وعن أبيه من قبله وعن طبقتهما من المغنيين وخرجتها بذل وعلمتها فكانت من أحسن الناس أدباً وغناءً وأداءً، اشتراها علي بن هشام (أحد القواد في جيش المأمون) بعشرين ألف درهم،وحظيت عنده حظوة شديدو تقدمت على جواريه، فتزوجها وهي أم ولده كلهم.

ملحق رقم -١٧-

- محبوبة - (جارية المتوكل) [٢]

مولَّدة من مولَّدات البصرة، شاعرة مضيئة، حسنة الوجه والغناء، أهداها عبد الله بن طاهر إلى المتوكل لما ولي الخلافة في جملة أربعمائة جارية فحظيت عنده وتقدمتهن جميعاً حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ظلت بعد وفاته حزينة عليه هاجرة لكل لذة حتى ماتت.

ملحق رقم -١٨-

- هيلانة (جارية الرشيد) [٣]

من ربات النفوذ والسلطان والإحسان والبر، حفرت حوض عرف باسمها (حوض هيلانة) ولها ربض بين الكرخ وباب المحول، أخذها يحيى بن خالد البرمكي، وكانت بديعة الجمال، ظاهرة الكمال، فحظيت عنده وعندما ماتت حزن عليها الرشيد حتى قيل أنه امتنع عن الأكل والشرب فقال يرثيها:

---

(١) الأصفهاني:الأغاني، ٢٧٣٣/٤، ٢٧٤٨.أم الأصفهاني:الإماء الشواعر، ص٩١، ٩٣، عمركحالة: أعلام النساء، ٢١/٥، ٢٣، كرم البستاني: النساء العربيات، ص١١٤، ١١٨.

(٢) الأصفهاني:الأغاني، ٧٦٢١/١١.أوالأصفهاني:الإماء الشواعر، ص١١٧، السيوطي:المستظرف، ص٦٣، ٦٧.

(٣) ابن الساعي:نساء الخلفاء، ص٥٤-٥٥. كذلك الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٩٧/١.

أف للدنيا وللزينة فيها والأثاث إذ حثى   التراب على هيلانة في الحفرة حاث